عمر "محمد فؤاد" أبو الرُّب

النهضة والذكاء الجماعي

أفكار منهجية في البحث والتحليل والإدارة
تتعلق بالصفات الأساسية لنهضة الأمم

Editions Al-Adab 1923
42 Opera Square - Cairo Tel: (202) 23900868

مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت: ٢٣٩٠٠٨٦٨

النهضة والذكاء الجماعي

عمر "محمد فؤاد" أبو الرُّب

مكتبة الآداب

النهضة
والذكاء الجماعي

هل الإسلام هو الحل؟؟
أم الإسلام والاحتراف هما الحل؟؟؟

إن الهاوي غير المحترف إذا أخذ السيف البتار فإن هذا السيف
سيكون وبالاً عليه ووبالاً على من حوله.

وأما إذا أخذ الماهر المحترف سيفاً من خشب فإنه لن يصل إلى القمة
ولكن سيصنع بهذا السيف العجب.

وأما إذا أخذ الماهر المحترف السيف البتار فإنه سيشق به الجبال
والبحار حتى الهدف.

وكذلك الإسلام

فإذا طبقه جماعات ودول لا دراية لهم بمهارات الإدارة والتنظيم
فإن الكُفْرَ سَيَمْكُرُ بهم كما مَكَرَ بمن كان قبلهم.

وأما إذا طبقت دولة ذات احتراف نظاماً غير الإسلام
فإنها لن تصل إلى القمة ولكنها ستصنع بهذا النظام العجب.

وأما إذا طبقت الإسلام دولة ذات احتراف
فإنها ستشق الجبال والبحار حتى الهدف

فهل الإسلام هو الحل؟؟
أم الإسلام والاحتراف هما الحل؟؟؟

تباع كتبنا لدى المكتبات الكبرى :
دار المعارف - الأهرام - الأخبار - الجمهورية - الهيئة المصرية العامة للكتاب
روزاليوسف ... ودار الأمم للكتاب ٢٨ شارع الدقي ت: ٣٣٣٥٩٧١٩

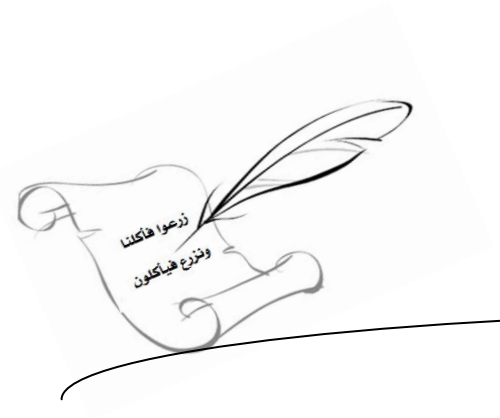

النهضة والذكاء الجماعي

أفكار منهجية في البحث والتحليل والإدارة
تتعلق بالصفات الأساسية لنهضة الأمم

عمر "محمد فؤاد" أبو الرُّب

مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا – القاهرة ـ ☎: ٢٣٩٠٠٨٦٨
e.mail:adabook@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات الكتاب

المقدمة ٩

١- العقد الكبرى في تاريخ الحضارات ١٢

◄ العقدة الكبرى في فلسفة الحكم ١٢

◄ العقدة الكبرى في فلسفة الجماعة ١٥

٢- الذكاء الجماعي ١٨

◄ الطبائع الرئيسية الثلاثة ٢٠

◘ سعة الصدر ٢١

◘ حُسن الاستماع ٢٢

◘ الجدية والالتزام بالمسئولية ٢٣

◄ الطبائع الأربعة الفرعية ٢٣

◘ الأدب والدبلوماسية ٢٣

◘ النظرة العملية (البراغماتية) ٢٤

◘ برودة الأعصاب ٢٥

◘ خطوط التفكير المتوازية ٢٦

◄ نظام وبروتوكولات الاجتماع والنقاش ٢٧

٣- قياس الذكاء الجماعي ٢٩

◄ فلسفة القياس ٢٩

◄ المقاييس الإنسانية (النسبية) والمقاييس المثالية ٣٠

◄ طريقة قياس الذكاء الجماعي ٣٧

٣٩ ..... **٤- أمثلة على الذكاء الجماعي**
٣٩ .....◄المثال الأول
٣٩ .....◄ المثال الثاني
٤٠ .....◄ المثال الثالث
٤١ .....◄ المثال الرابع
٤٧ .....◄ المثال الخامس
٥٦ ..... **٥- تناقض الذكاء الجماعي مع ثقافة الهمز واللمز**
٥٩ .....◄المزاح واللمز
٥٩ .....◘ المزاح تجاه الموقف أو تجاه الشخصية
٦٤ .....◘ المزاح تجاه النفس
٧٦ ..... **٦- الأعمدة الثلاثة للنجاح**
٧٩ ..... **٧- كيفية تقوية الذكاء الجماعي**
٧٩ .....◄ تمارين وتدريبات الاسترخاء
٧٩ .....◄ التحكم في البرامج العقلية الإجبارية غير المرغوبة
٨٣ ..... **٨- المهارات الإدارية وسعة الإدراك**
٨٣ .....◄ مواقع الإدراك الثلاثة
٨٤ .....◄ عجلة الإدراك
١٠٥ .....◄ الطبائع البشرية
١٠٦ .....◘ أساليب التفكير
١٠٨ ..... **٩- المناهج في البحث والتحليل**
١٠٩ .....◄ الذكاء البديهي
١١٣ .....◄ المنهج الفلسفي في البحث والتحليل

١١٧ .....◘ المنهج الشرعي في استخراج الأحكام الشرعية
١٢٠ .....◘ السيطرة على الجدل
١٢٥ .....◄ المنهج العلمي في البحث والتحليل
١٣٠ .....◘ دوائر التعلم الأساسية
١٣٢ .....◘ العرب والبحث العلمي
١٣٤ .....◘ الفرق بين العلم والساينس
١٣٥ .....◘ تعريفات مفيدة
١٣٨ .....◄ المنهج الديناميكي في البحث والتحليل
١٤٠ .....◘ حالة الاتزان
١٤١ .....◘ حالة الاستقرار
١٤١ .....◘ التأرجح
١٤٢ .....◘ قانون التأخير
١٤٣ .....◘ قانون التغيير
١٤٤ .....◘ دائرة التعاظم
١٤٦ .....◘ دائرة الانهيار
١٤٧ .....◘ قانون التعاظم الأول والثاني والثالث
١٤٧ .....◘ حالة التوازن الديناميكي
١٥٠ .....◘ قانون التشابك
١٥٢ .....◘ مهارة القفز فوق عتبات التوازن
١٥٣ .....◘ نقاط الحث
١٥٩ .....◄ المنهج الاستراتيجي في البحث والتحليل

١٠- كيفية نشر المهارات الإدارية والذكاء الجماعي ١٦٢
خاتمة الكتاب ١٦٧
الملحق الأول - المنهج العلمي ووجود الله والرسالة المحمدية ١٧٠
◄ المنهج العلمي وإثبات وجود الله ١٧٠
◄ المنهج العلمي وإثبات الرسالة المحمدية ١٧٣
الملحق الثاني - الغيبيات القرآنية والنظريات العلمية ١٧٦
◄ ذي القرنين ومغرب ومشرق الشمس ١٧٨
◄ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيل ١٨١
◄ مجمع البحرين وصخرة موسى ١٨٣
◄ قصة موسى عليه السلام وفرعون ١٨٨
الملحق الثالث - البرمجة اللغوية العصبية ١٩٧
الملحق الرابع - تفسير جديد لآية النصر ٢١٠
المراجع ٢٣٦
◄ مراجع عربية ٢٣٦
◄ مراجع غربية ٢٣٦
◄ مؤلفات سابقة للمؤلف ٢٣٧

مُقَدِّمَة

إن الله قد وعد المسلمين بالنصر في مواقع مختلفة كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ (٧ – محمد).

ولكن الله تعالى قد ذكر أن سُنته لن تتغير ولن تتبدل، قال الله تعالى: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ (٤٣ – فاطر).

وكذلك فقد طلب الله تعالى وبنص واضح على الإعداد، قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴾ (الأنفال – ٦٠).

ليس هدف هذا الكتاب التوفيق بين هذه النصوص، وإنما يبدأ هذا الكتاب من منطق أساسي وهو أن سنة الله في الكون والطبيعة لن تتبدل ولن تتغير وأن الانتصار في الدنيا يتطلب التعامل مع هذه السنة بمهارة وذكاء. هذا المنطق يتضمن أن الدولة أو الجماعة التي تتعامل مع سنة الله في الكون والطبيعة بمهارة وذكاء أكبر هي المتوقع أن تنتصر في النهاية بغض النظر عن ديانة هذه الدولة.

هذا يتطلب التنبيه للأمور التالية:

١ – المقصود بمهارة التعامل مع سنة الله في الكون والطبيعة هي مهارة التعامل مع القوانين والأنماط التي وضعها الله في الكون. كمثال على ذلك القوانين والأنماط المتعلقة بالحرب والسياسة والتجارة الخ. فعندما ينجح الرجل دائماً في تجارته فهو إما أن يكون محظوظاً، أي أن القوانين والأنماط المتعلقة بالتجارة دائماً في مصلحته لسبب أو لآخر (كأن يكون مثلاً ابن

الحاكم) أو أن الرجل قد أدرك وبشكل كافٍ الأنماط والقوانين المتعلقة بالتجارة وأنه يتعامل مع هذه القوانين والأنماط بمهارة.

٢- التعامل مع سنة الله في الكون بذكاء ومهارة لا يعني بالضرورة التنازل عن المبادئ أو المهادنة أو الركون إلى الظالمين.

٣- القوة المادية ضرورية للانتصار ولكن بنظرة إلى التاريخ العسكري والسياسي فستجد أن المهارة والذكاء كانت دائماً قبل القوة وأن العبقرية كانت دائماً تتعلق بكيفية ضمان النصر قبل دخول المعركة.

٤- الإضافة الأساسية التي يقدمها الإسلام لتحقيق النصر في الدنيا هي قوة الانسجام والثبات. ويجب التنبيه هنا أن الانسجام والثبات ليسا كافيين للانتصار ولكنهما إضافة في غاية الأهمية حيث إنهما يقومان بجمع وصهر أناس مختلفي الألسن والمنابت والطباع والعادات في جبهة صلبة واحدة.

٥- القرينة التي تدل أن الانسجام والثبات ليسا كافيين للانتصار هو انهزام أمراء كانوا عاليي العبادة والإيمان والمنزلة والعلم والشرف، منهم الإمام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين عليه السلام، والذي أُحرقت جثته ونثر رمادها على نهر الفرات. وعبد الله بن الزبير الذي علق ميتاً في فناء الكعبة. ومحمد النفس الزكية بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي بايعه الإمام مالك والإمام أبو حنيفة على الخلافة، وحاربه أبو جعفر المنصور، وحوصر في المدينة المنورة، ثم قُطعت رقبته وحمل رأسه الكريم إلى بغداد. وسيد الأمثلة هو سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب وهو حفيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسيد شباب أهل الجنة، ولم تسعفه هذه الصفات من أن يتحمل عواقب الاختيار الخاطئ لسنة الله في الكون والطبيعة وبكل ما في هذه العواقب من آلام وقسوة. ولو كان لسنة الله أن تتغير وتتبدل لغير الأنبياء لكان الأولى فيها سيدنا الحسين.

النقطة الأساسية هنا والتي يبدأ الكتاب منهـا أن انتـصار المـسلمين في الـدنيا ونجاحهم يتطلب أمرين اثنـين: الإسـلام وذكـاء التعامـل مـع سـنة الله في الكـون والطبيعة. الإسلام ضروري لأنه مصدر الانسجام والثبات لمجمـوع المـسلمين، وذكاء التعامل ضروري لأنه الأداة الأساسية القادرة على إدراك القوانين والأنمـاط المتعلقة بسنة الله واستغلالها لمصلحة الأمة.

وضمن النظرة إلى التاريخ فإنه توجد ثلاثة أعمدة رئيسة لقوة الذكاء والمهـارة عند الدول والجماعات:

١) القيادة المؤسسية.

٢) الذكاء الجماعي.

٣) سعة الإدراك والمهارات الإدارية.

وهذه الأعمدة سيتم نقاشها في هذا الكتاب.

ويجب التنويه أن مسودة الكتاب قد وضعت في ٨-٦-٢٠٠٦. ولكـن لم يـتم طباعة ونشر الكتاب وقتها. وفي ٢٠١١ تم تنقيح الكتاب وإضـافة فـصول جديـدة ذات صلة بالموضوع. وتم حذف الملحق «منهج التحليل السياسي» وذلك لورود هذا الملحق في كتاب حديث للمؤلف (سياسات الأمم ولعبة الأقدار).

وكان عنوان المسودة هو: «أفكار منهجية في البحث والتحليل والإدارة». وتم تغيير العنوان إلى الحالي قبل الطباعة.

عمر محمد
٢٠١١/١٠/٩
omr-mhmd.yolasite.com
omr.mhmd@ymail.com

١ ـ العقد الكبرى في تاريخ الحضارات

◄ **العقدة الكبرى في فلسفة الحكم:**

هناك نظامان رئيسيان في الحكم: القيادة الفردية والقيادة الجماعية.

وفي نظام القيادة الفردية تكون كل السلطات مركزة في يد رجل واحد (إما بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر: مثال ذلك ستالين؛ فقد كان يحكم روسيا حكما كاملا مع وجود مجالس صورية للحزب الشيوعي). أما القيادة الجماعية فتكون القرارات والسلطات بالتشاور والتصويت. وضمن النظرة إلى التاريخ فإن نظام القيادة الفردية ناجح إذا كانت قدرات القائد فوق الطبيعية. على أية حال فإن نجاح هذه القيادة مؤقت لأن سعة عقل الفرد غير كافية لمشاكل السياسة والمجتمع، ولأن الفرد مهما كانت عبقريته فإنه ليس معصوماً عن الزلل، وفي حالة القيادة الفردية فإن مراجعة الزلل والاعتراف به واستدراكه في غاية الصعوبة حيث يتعارض هذا مع الشعور بالعزة والكبرياء لدى القائد، وأخيراً فإن نظام القيادة الفردية لا يضمن دائماً أن يكون خَلَف القائد بنفس العبقرية، فالنظرة للإنسان تكون لقدراته الطبيعية وليست لقدراته المثالية. ولهذا فليس غريباً أن ترى في التاريخ إمبراطوريات أقامها الأجداد بمهاراتهم وحطمها الأبناء والأحفاد بحماقاتهم.

أما القيادة الجماعية فإن سعة عقل الجماعة أكبر من سعة عقل الفرد للإحاطة بالمشاكل السياسية والاجتماعية، وكذلك فإن القيادة الجماعية تمنع أية فرد أو جهة من فرض الرأي أو التسلط بالحكم. ولكن نظام القيادة الجماعية يكون بطيئاً في اتخاذ القرار، بطيئاً في التنفيذ وبطيئاً في التغير، وضعيفاً في المرونة.

وأفضل مثال لهذا النظام هو سويسرا، فالقيادة الجماعية هي التي فرضت على الجميع في سويسرا على الحياد في الحربين العالميتين، ولكن البطء واضح عندهم في اتخاذ القرارات السياسية.

إن النظرة لتاريخ الدول الضخمة في التاريخ يعطيك دلالة أن معظم هذه الدول قد أقامها أفراد قلائل، ولكن أهل الحل والعقد وممثلين الأمة هم من حافظوا عليها وكانوا قادرين على تنبيه القائد إن بدأ بالزلل وصد القائد إن بدأ بالتسلط، وكان بداية السقوط لهذه الدول عندما انفرط التوازن بين سلطة الفرد وسلطة الجماعة.

هذه هي النقطة: إقامة الدولة وتحقيق أهدافها والوصول إلى غاياتها يحتاج إلى عبقرية الأفراد ولكن المحافظة على الدولة ومنعها من السقوط يحتاج إلى وعي الجماعة.

لهذا السبب فإن العقدة الكبرى التي شغلت آباء الدول الضخمة في التاريخ هو كيفية عمل نظام يسمح للفرد بقيادة الدولة مع عمل نظام يمنع هذا الفرد من التسلط. أو بمعنى آخر: كيف يمكن عمل نظام بحيث يأخذ حسنات القيادة الفردية دون سيئاتها ويأخذ حسنات القيادة الجماعية دون سيئاتها.

إن النظرة للتاريخ تعطيك فكرة واضحة أن معظم الدول التي عَمَّرَت وأثمرت في التاريخ قد كان لها نظام هجين يجمع بين القيادتين الفردية والجماعية، أو بمعنى آخر إن هناك نظام هجين يسمح للفرد بالقيادة ولكن يمنعه من فرض رأيه عنوة ويمنعه تماماً من التسلط في الحكم.

وضمن النظرة إلى التاريخ والنظرة للأدلة الشرعية فإن المؤلف على قناعة أن الطريقة التي يمكن فيها حل العقدة الكبرى في الحكم هو أن يكون نظام الحكم إدارة فردية تحت إشراف مجالس رقابة وتشريع وفقه وقضاء ذوي سلطات

حقيقية (للأدلة الشرعية المتعلقة في هذا الموضوع راجع كتاب «فلسفات الحكم والدستور» للمؤلف). ويمكن تسمية هذا النظام بالقيادة المؤسسية للتفريق بينها وبين القيادة الجماعية والقيادة الفردية.

على أية حال فإن النظام السابق يشكل هيكلية الإدارة في الدولة وهي بداية جيدة ولكنها ليست كافية للنجاح، فلا بد للأمة بشكل عام وللأجهزة الإدارية ومجالس الحكم بشكل خاص أن تتوفر فيهم الصفات والطبائع اللازمة للنجاح. هذه الصفات والطبائع يمكن اختصارها في عبارة واحدة:

للوصول إلى الغايات فيجب أن يكون عند الأمة بشكل عام وعند الأجهزة الإدارية بشكل خاص ذكاء جماعي مرتفع.

وهذا هو موضوع الفصل التالي.

◄ **العقدة الكبرى في فلسفة الجماعة:**

كانت الجمهورية الرومانية القديمة أول من طبق بنجاح شكلاً من أشكال نظام القيادة المؤسسية وكانت الإدارة الفردية بين قنصلين وكان الإشراف بيد مجلس الشيوخ. ولكن مع توسع الجمهورية الرومانية في مشارق الأرض ومغاربها ودخول أعضاء جدد في مجلس الشيوخ من ثقافات وطبائع شتى، فقد بدأ مجلس الشيوخ بالتضعضع بسبب تنافر وشقاق أعضاءه مما يسر في النهاية ليوليوس قيصر ومن بعده أكتافيوس من أخذ الحكم المطلق عنوة من مجلس الشيوخ.

والعبرة هنا أن نهاية الجمهورية الرومانية قد بدأ مع تشقق وتنافر مجلس الشيوخ والذي كان بحق قلب الجمهورية.

وهنا نأتي إلى العقدة الكبرى في فلسفة الجماعة:

إن الرجال ذوي الأفكار والثقافات والاختصاصات والخبرات المختلفة سيكون لهم وجهات نظر مختلفة لأي موضوع مطروح للمداولة، وهذا مفيد عندما يكون الموضوع المطروح حيوياً ومصيرياً. وعندما يجتمع عشرة أشخاص متشابهين في الطبيعة والفلسفة والأفكار والخبرات، فإن النظرة التي يجتمع عليها هؤلاء هي نظرة واحدة تكررت عشر مرات. وهذه النظرة غير مفيدة أبداً إن كان الموضوع المطروح حيوياً ورئيسياً. والطريقة الوحيدة للإحاطة بالموضوع هو أن يجتمع ذوي الخبرات والأفكار والفلسفات المختلفة ويتداولوا الموضوع وتكون النتيجة هنا إحاطة حقيقية لهذا الموضوع. هناك مثال مشهور في الأدبيات الإدارية عن ثلاثة عميان بدئوا يتحسسون تمثالاً لفيل فقال الأول: إني أشعر بأعمدة أربعة سميكة. وقال الثاني: إني أشعر بخرطوم طويل. وقال الثالث: إني أشعر بحائط يخرج منه حبل قصير.

كل من هؤلاء رأى زاوية محددة من الموضوع وكل منهم كان صادقاً في نظرته ولكن لا أحد منهم كان قادراً لوحده للإحاطة بكل الموضوع، والطريقة الوحيدة التي يمكنهم من الإحاطة بكل الموضوع هو أن يتداولوا ويتناقشوا الأمر فيما بينهم.

وهنا العقدة الكبرى: كيف يمكن أن يقوم أعضاء المجلس (أو الفريق أو اللجنة) من عرض أفكارهم وشرحها مع تيار مخالف دون أن يزرع هذا الخلاف بذور النفور والشقاق والخلاف الشخصي. أي كيف يمكن أن نضع فلسفة تضمن أن اختلاف الرأي لن يتحول (كما هي العادة في طبيعة الإنسان) إلى خلاف شخصي.

النقطة هنا أن الموضوع المعقد يحتاج إلى أكثر من عقل للإحاطة به. وحيث إن كل عقل له زاوية انتباه معينة تختلف باختلاف الثقافة والأفكار والخبرات فإن الاختلاف في وجهات النظر طبيعي. بل إن الأدبيات الإدارية الحديثة تطالب بأن يكون الفريق ذوي مهارات وخبرات مختلفة لأن الإبداع والحلول العبقرية تأتي نتيجة لتلاطم الأفكار بعضها ببعض، وتلاطم الأفكار يكون نتيجة للخلافات في وجهات النظر.

فالسؤال هنا هو كيف يمكن عمل فريق يسمح بتلاطم الأفكار ويسمح بمناقشة الآراء المختلف عليها دون أن يؤدي هذا إلى النفور أو الشقاق أو الخلاف الشخصي بين أعضاء الفريق. وكذلك كيف يمكن لأعضاء الفريق أن يلتزموا كلهم بالخطط المتبناة حتى وإن خالفت وجهات نظرهم. بمعنى آخر: كيف يمكن أن نتسامح باختلاف الرأي ونَتَّحِدُ في الطريق.

يجب الانتباه أن الموضوع هنا لا يتعلق باختلاف عابر في جلسة نقاش. بل اختلاف حقيقي في وجهة النظر المتعلقة في التصرف الأولى للعمل والخطة الأولى

للتنفيذ. وخلاف الرأي هذا قد يمتد أسابيع وأشهر من المداولة، فكيف يمكن الضمان أن خلافات الرأي هذه ستبقى قدر الإمكان خلافات رأي ولن تتحول إلى شقاق وخلافات شخصية.

الحل هو تقوية الذكاء الجماعي لدى الجماعة بشكل خاص والأمة بشكل عام. وهذا هو موضوع الفصل التالي.

٢ـ الذكاء الجماعي

ضع لغزاً أو مشكلة عملية ومعقدة بعض الشيء بحيث يستطيع الفرد الذكي إيجاد الحل لها خلال ساعة واحدة، ثم اجمع عشرة أشخاص أذكياء ذوي مهارات وشخصيات مختلفة وأعطهم هذه المشكلة واطلب منهم أن يحلوا هذا اللغز بشكل جماعي. أغلب الظن أنهم لن يستطيعوا حل المشكلة وإن اجبروا على الجلوس معاً خمس ساعات. الطريقتان الوحيدتان، ضمن طبائع الإنسان العادية، والتي يمكن فيها حل هذه المشكلة هو ظهور شخصية أو شخصيتين طاغيتين في الفريق يجبرا الفريق على الاتجاه معهما والطريقة الثانية هو أن يتم تعيين مدير للفريق من سلطة خارجية ويكون لهذا المدير سلطة حقيقية. على أية حال فإن إتباع إحدى هاتين الطريقتين يعني أن الحل النهائي لم يكن حلاً جماعياً بل كان حلاً فردياً ولكن بمشاركة جماعية.

يجب التنبيه أنه إذا قام الفريق بتعين مدير له فإن هذا المدير لا يملك سلطة حقيقية إلا بالقدر الذي يتفق فيه غالبية الفريق. وإذا كانت المشكلة معقدة وتحتاج لوقت طويل فإن تبادل الألفاظ سوف يحدث (بقصد أو دون قصد) كما أن الغرائز الأساسية اللاواعية سوف تطفو دون انتباه (مثل حب الظهور، حب القيادة، كراهية الانقياد، الكبرياء، واللااعتذار، والاعتداد بالرأي، فرض الرأي، الخ)، وكلاهما سيؤدي إلى الضيق. وكل شخص له قدرات صبر مختلفة فإن خرج الضيق عن حدود الصبر فإن الضيق سيتحول وبسرعة إلى تنافر ويتحول التنافر إلى شقاق وسباب وخلاف شخصي. ولهذا فإن الطريقة لحل هذه المشكلة هو أن يكون هناك شخصية طاغية يتفق علها الفريق، أو يكون هناك مدير للفريق ذو سلطة

حقيقية مستمدة من الخارج.

وهناك طريقة أخرى وهي تنمية وتقوية الذكاء الجماعي لهذا الفريق.

ويقاس ذكاء الجماعة بقدرة الجماعة للتفكير والتصرف والوصول معاً للحلول دون وجود شخصية طاغية فيها ودون وجود مدير مُعين لها.

يجب التنبيه أنه من الضروري أن يكون للأجهزة الإدارية مدراء ولكن إذا كانت هذه الأجهزة ذوي ذكاء جماعي مرتفع فإن مهمة هؤلاء المدراء سوف تكون في غاية السهولة مقارنة بأجهزة إدارية ذوي الذكاء الجماعي المنخفض.

ويجب التنبيه كذلك أنه ضمن الطبائع العادية للمجتمعات فإن مستوى ذكاء الفرد أعلى من مستوى ذكاء الجماعة ولكن سعة ذكاء الجماعة أكبر من سعة ذكاء الفرد. والدليل على ذلك أن معالجة المشكلات البسيطة بشكل فردي يكون أسرع بكثير من معالجتها بصورة جماعية، وهذا هو المقصود بالقول إن مستوى ذكاء الفرد أعلى من مستوى ذكاء الجماعة. ولكن هناك بعض المشكلات التي تكون خارجة عن قدرة الفرد وإنما هي بحاجة للجماعة لمعالجتها. وهذا هو المقصود بالقول إن سعة ذكاء الجماعة أكبر من سعة ذكاء الفرد.

والسؤال الرئيسي في هذا الكتاب هو: كيف يمكن رفع مستوى الذكاء الجماعي في الأمة بشكل عام وفي أجهزتها الإدارية بشكل خاص.

وضمن وجهة نظر المؤلف لطبائع الفرد والمجتمع فإنه يوجد ثلاث طبائع رئيسية ضرورية للذكاء الجماعي ينتج عنهن (عاجلاً أو آجلاً) أربع طبائع فرعية وينتج عنها كذلك نظام وبروتوكولات الاجتماع والنقاش.

أ) الطبائع الرئيسية الثلاثة:

١) سعة الصدر.

٢) حُسن الاستماع.

٣) الجدية والالتزام بالمسئولية.

ب) الطبائع الأربعة الفرعية:

١) الأدب والدوبلوماسية.

٢) النظرة العملية (البراغماتية).

٣) برودة الأعصاب (الأناة).

٤) خطوط التفكير المتوازية.

ت) نظام وبروتوكولات الاجتماع والنقاش.

لندخل إلى التفاصيل:

◄ **الطبائع الرئيسية الثلاثة:**

من الأفضل قبل مناقشة هذه الصفات الإجابة على التساؤل التالي: جميع الصفات السابقة هي صفات فردية فلماذا أطلق على مضمونها اسم «الذكاء الجماعي»؟

الجواب هو أن هذه الصفات هي صفات فردية لا تثمر إلا في إطار الجماعة. بمعنى أن الرجل واسع الصدر إذا كان مع مجموعة ذوي صدر ضيق فأغلب الظن أن يعتزلهم ذلك الرجل أو أن يتعامل معهم بضيق الصدر، والرجل حسن الاستماع إذا ناقش مجموعة سيئة الاستماع فإنه إما أن يعتزلهم أو أن يفرض

وجوده معهم. لهذا السبب فالصفات السابقة لا يمكن أن تُثمر إلا بتغذية من الجماعة ولهذا السبب فقد أطلق على مضمونها اسم «الذكاء الجماعي».

◘ سعة الصدر:

سعة الصدر هي نفسها الحُلُم ولكن تم اختيار لفظة «سعة الصدر» حيث إن الحلم له تعاريف مختلفة.

سعة الصدر ليست مشابهة لكظم الغيظ: كظم الغيظ يكون في القدرة على ستر المشاعر ومنعها من الظهور. فكاظم الغيظ يصل له الغضب أو الضيق الشديد لكنه قادر أن يستر هذه المشاعر. واسع الصدر يتحكم في مشاعر الغضب والضيق نفسهما، فمشاعر الغضب والضيق لا تأتيا لصدره إلاّ في ظروف استثنائية، وإن ظهرت عليه إمارات الغضب والضيق فربما أنها بإرادة منه ولهدف يريده ولم تظهرا هذه الأمارات فجأة دون قصد منه.

هناك ثلاث مستويات لسعة الصدر: المستوى الأول هو سعة الصدر للآراء المخالفة. المستوى الثاني هو سعة الصدر للأخطاء غير المتعمدة من الآخرين، والمستوى الثالث هو سعة الصدر للأخطاء المقصودة والمتعمدة من الآخرين.

وضمن نظرة المؤلف فالذكاء الجماعي يحتاج إلى المستوى الأول والثاني وبعضاً أو وسطية من المستوى الثالث.

يجب الانتباه أن سعة الصدر لا تتعارض مع الحزم. سعة الصدر تتعلق بعدم الاندفاع وراء مشاعر الغضب والضيق والانتقاد والسخرية. والحزم يتعلق بتنفيذ الأعمال حسب الخطة أو القوانين، وعليه فإن كان الرجل حازما ولكن دون أن يكون حزمه نتيجة مباشرة للغضب أو الضيق فإنه يكون حازما وواسع الصدر في آن واحد.

◘ حُسن الاستماع:

حسن الاستماع وهي القدرة على الاستماع لآراء الآخرين والتحكم بالرغبة الدفينة للمقاطعة أو الرد أو التوجيه أو الأَسْتَذَة (أي تعليم الآخر).

كما سبق ذكره فإن حسن الاستماع هي صفة فردية تغذيها الجماعة. فإذا حدث نقاش بين اثنين كلاهما متصفان بحسن الاستماع فإن نقاشهم سيكون مثمراً. أما إن حدث نقاش بين اثنين أحدهما حسن الاستماع والآخر سيئ الاستماع فإن الرجل ذو الاستماع الحسن سيأخذ في النهاية أحد المخارج التالية:

١) فرض بروتوكولات النقاش على الاجتماع.

٢) الخروج من صفة حسن الاستماع وأخذ حق الكلام عنوة في المجلس، وهذا قد يؤدي إلى الجدل.

٣) استخدام مهارات عالية في الاتصال تجعل الآخر يُصغي بانتباه.

٤) إنهاء النقاش بفكرة أن لكل امرئ رأي مختلف.

٥) الانسحاب من النقاش.

وقد يبدو من الناحية المنطقية أن حسن الاستماع ناتج عن سعة الصدر، ولكن الملاحظات أظهرت أن هناك رجال ذوي سعة صدر ولكن استماعهم قليل وهناك رجال ضيقي الصدر واستماعهم حسن. إن سعة الصدر كما ذُكر سابقاً تتعلق بعدم الاندفاع وراء الغضب والضيق، أما حسن الاستماع فتتعلق بعدم الاندفاع نحو المقاطعة والرد والتوجيه.

يجب التنبيه أنه في بعض الأحيان وبسبب ضيق الوقت أو نقص في العلم، فإن الرجل عليه أن يقاطع الآخر ويرد عليه ويوجهه ويعلمه. ولهذا السبب فحسن الاستماع لا يتم تقييمها بالأحداث المنفردة وإنما يتم تقييمها بالطبع الغالب على الشخص.

◘ الجدية والالتزام بالمسئولية:

الجدية والالتزام بالمسئولية هما صفتان متشابهتان ولذا وضعا معاً، خصوصاً أنه لا يوجد التزام بالمسئولية دون وجود الجدية.

الالتزام بالمسئولية هو الالتزام بالقوانين والاتفاقيات والوعود. وكما سبق ذكره فإن الالتزام بالمسئولية والحزم صفتان متلاصقتان.

وقد يظهر أن الالتزام بالمسئولية وسعة الصدر متعارضتان ولكن بالمقارنة: فإذا كان لرجل التزام كبير بالمسئولية ولكنه كان ذي صدر ضيق فإنه سيكون كضابط الشرطة الفظ في محيطه، فأي مخالفة تحدث فإنه سيشعر مباشرة بالضيق وسيتوهم أن إهمال هذه المخالفة سيؤدي إلى مخالفة أكبر فأكبر فأكبر حتى يتحطم المجتمع. فيكون انتقاداته اللاسعة كما لو كانت هذه المخالفات الصغيرة مصيرية.

في حين إذا كان للشخص سعة الصدر ولكن التزامه بالمسئولية ضعيف فإن التسيب والفوضي ستكون هي الغالب في نشاطه.

أما إذا امتلك الرجل الصفتين معاً: سعة الصدر والالتزام بالمسئولية، فإن التقاء هاتان الصفتان سيؤدي إلى صفة نادرة وهي الاهتمام والحزم في الأمور الأساسية ونظرة التسامح والتعقل في الأمور الثانوية.

◄ الطبائع الأربعة الفرعية:

◘ الأدب والدبلوماسية:

الأدب والدبلوماسية تأتي أجلاً من سعة الصدر والالتزام بالمسئولية. وتم وضع الأدب مع الدبلوماسية لأن الدبلوماسية هي أداة المؤدب في مواجهة الجميع، فالدبلوماسية هي فن الإيحاء والتلميح. وتقاس بمدى المهارة في اختيار

الألفاظ وتَعمد التصرفات التي تحدد وبوضوح الإيحاءات المطلوب إرسالها. وتسمح هذه المهارة على التصرف بحزم ووضوح دون الحاجة لأي انتهاك لأعراف الدماثة وحدود الأدب. ومع وجود الظروف التي تكون فيها الدبلوماسية غير مناسبة إلاّ أنه في الظروف العادية تكون الدبلوماسية هي أنجح الأساليب لنقل المعني دون تجريح وانتقاص.

◘ النظرة العملية (البراغماتية):

لكل مجتمع قوانينه والتي تحدد وتنظم علاقة الفرد بالمجتمع. هذه القوانين تحدد واجبات الفرد وحقوقه. وبالإضافة لهذه القوانين فإنه توجد هناك الأعراف والتقاليد غير المكتوبة والتي ورثها الأبناء عن الأجداد. وضمن هذه النظرة فهناك ثلاث طبائع تحدد نظرة الفرد إلى القوانين والتقاليد: النظرة المحافظة، والنظرة العملية، والنظرة المتمردة.

النظرة المتمردة لا تعبأ بأعراف المجتمع ولا تعبأ بقوانينه، خصوصاً إذا تعارضت هذه القوانين والتقاليد مع المصلحة.

النظرة المحافظة تحاول الحفاظ على أعراف المجتمع وتقاليده وتحاول سن القوانين التي تمنع العبث بتقاليد المجتمع دون النظر إلى المصلحة.

أما النظرة العملية فهي لا تعبأ بالأعراف والتقاليد ولكنها تلتزم بالقوانين، وإذا ما تعارضت القوانين مع المصلحة فإنهم سيحاولون تغيير القوانين بالطرق القانونية.

لتطبيق التعريف السابق على المجتمع الإسلامي فإن الأحكام الشرعية مقسومة إلى خمسة أنواع رئيسية: الفرض والمستحب والحلال والمكروه والحرام. بالإضافة لهذه الأحكام الشرعية فإن لكل إقليم في العالم الإسلامي تقاليده

وأعرافه. ولم تأت هذه الأعراف والتقاليد من الإسلام بل جاءت من تجارب الآباء وخبراتهم وأخذها الأبناء بعدهم.

وكعادة الطبيعة البشرية، تكتسب هذه الأعراف والتقاليد في منطقة العقل الباطن قدسية القوانين. كمثال على ذلك انظر لأعراف الزواج في كل إقليم من العالم الإسلامي فستجد أن لكل إقليم أعرافه وتقاليده وستجد أن كل من يخالف الأعراف والتقاليد سيتعرض لانتقادات عنيفة من المجتمع في ذلك الإقليم. ومع أن الله قد أحل في قرآنه وبلفظ صريح واضح التعدد في الزواج إلا أنه في كثير من الأقاليم الإسلامية فإنه من يتجرأ على التعدد فإنه يتعرض لانتقادات شنيعة وكأنه خرج عن الملة الإسلامية.

النظرة العملية هنا تقتضي الالتزام بالأحكام الشرعية وعدم العبأ بالأعراف والتقاليد الوضعية إن كانت تتعارض مع المصلحة. بل إن النظرة العملية قد تشجع على البحث بعمق لهذه الأحكام الشرعية إذا ظهر احتمال أن فهمنا لهذه الأحكام غير دقيق.

والأحكام الشرعية الملزمة والتي تكون فوق النظرة العملية هي الفرض والحرام. أما باقي الأحكام فتقع ضمن الجائز وعليه تجوز النظرة العملية فيهم.

◘ برودة الأعصاب:

برودة الأعصاب هي نفسها الأناة، ولكن تم اختيار لفظة «برودة الأعصاب» حيث إن الأناة لها تعاريف كثيرة.

لا تتعارض الأناة مع سرعة البديهة ولكنها تتعارض مع التسرع. فسرعة البديهة هي سرعة الاستغلال لفرصة سانحة. أما التسرع فهو الانجرار وراء مشاعر آنية عند تنفيذ الخطة. وعليه فإن برودة الأعصاب هي فصل المشاعر الآنية عن

العقل عند تنفيذ الخطة.

وهناك الكثير من المشاعر الآنية ولكن أهمها وأكثرها تغلباً على العقل هن: الطمع والخوف والغضب والشفقة والفخر والكراهية والمحبة والكبرياء.

كمثال لما سبق فإن مصدر الثقافات والفلسفات في الغرب هو فرنسا ولكن المشكلة في فرنسا أن معظم خططهم تتأثر بالمزاجات اليومية والمشاعر الآنية لقادة الأجهزة الإدارية عندهم. وهذا هو السبب الرئيسي لتخبطات السياسة الفرنسية في العالم.

◘ خطوط التفكير المتوازية:

خطوط التفكير المتوازية هي قمة الذكاء الجماعي. وتحتاج هذه الطبيعة إلى جميع الطبائع السابق ذكرها. خطوط التفكير المتوازية هي المهارة وبرودة الأعصاب في التعامل مع المتناقضات.

طبيعة الإنسان لا ترتاح إلى التناقض ولا ترتاح إلى التعامل مع المتناقضات، ويبحث الإنسان دائماً على تفسير كي يشرح ما يحدث من تناقضات، وعليه فعندما يتعرض الإنسان لموقفين متناقضين فإن طبيعة الإنسان العادية أنه سوف يأخذ أحدهما ويهمل الآخر. خطوط التفكير المتوازية تعطي المهارة للتعامل مع الموقفين معاً.

أحد الأمثلة على هذه المهارة هي ما فعلته إنجلترا مع أمريكا. فقد كان هناك صراع حقيقي بين إنجلترا وأمريكا على الشرق الأوسط منذ الخمسينات من القرن العشرين وحتى أول الثمانينات من القرن نفسه. في المقابل فقد كانت إنجلترا مهتمة باحتواء الاتحاد السوفييتي. ولقد تعاملت إنجلترا بثلاثة خطوط متوازية مع أمريكا. ففي الخط الأول كانت إنجلترا تدير صراعاً حقيقياً وشرساً ضد أمريكا في

الشرق الأوسط وفي الخط الثاني فقد كانت إنجلترا تقيم حلفاً حقيقياً مع أمريكا ضد الشيوعية، وفي الخط الثالث فقد كانت إنجلترا تقيم شراكة حقيقية مع أمريكا في مجال التجارة والصناعة. ولم يتأثر كل خط بالخط الآخر بل كان كل خط يتضافر مع الخط الآخر. والنتيجة التي انتهت إليها الأمور أن الخطوط التي أقامتها إنجلترا مع أمريكا قد أدت إلى تنافر واضح بين الأجهزة الإدارية في أمريكا للمصلحة الإنجليزية وبالأخص بين الجيش والخارجية الأمريكية.

في المقابل فقد كانت الطريقة التي اتبعتها فرنسا لمقاومة النفوذ الأمريكي هي المواجهة، فقد كانت فرنسا مصرة على تحويل الدولارات الأمريكية إلى ذهب (إلى أن قام نيكسون بفصل الدولار عن الذهب) وانسحبت من حلف الناتو نكاية في أمريكا، وبدأت مخططها في عمل الاتحاد الأوروبي ليكون قطباً ضد أمريكا. ولم يكن عمل فرنسا خاطئ من الناحية الإستراتيجية ولكن عملها يبين بوضوح عدم قدرتها على التعامل مع المتناقضات.

◄ نظام وبروتوكولات الاجتماع والنقاش:

إن حسن الاستماع والجدية ستفرضان على الفريق ابتكار أو تبني نظام اجتماعات لهم تساعدهم في تسهيل النقاش والتداول وتحثهم على استخراج الأفكار المبدعة. إن طبائع الناس مختلفة فمنهم من يسترسل ويسترسل في الحديث ومنهم من يفضل السكوت عن الكلام فيكون حديثه مقتضباً، الخ. ولمعالجة تأثير هذه الطبائع فلا بد من نظام ينبه المسترسل وينبه المقتضب. وأحد الأنظمة في هذا المجال هو نظام الوقت المحدد. وفي هذا النظام لا يُسمح للفرد أن يزيد حديثه عن وقت محدد وبعدها عليه أن يسمح لغيره بالحديث. بالإضافة إلى ذلك، فإن هناك أنظمة تساعد على استثارة العقل للخروج بأفكار

خلاقة. أمثلة لهذه الأنظمة: نظام العصر الذهني لـ «دي بونو» (Edward De Bono)، نظام القبعات الستة لـ «دي بونو»، استراتيجية ديزني في البرمجة اللغوية العصبية، الخ.

٣ـ قياس الذكاء الجماعي

هذا الملحق يتعرض لفلسفات قياس الذكاء الجماعي في المجتمعات. وينقسم هذا الملحق إلى العناوين التالية:

- فلسفة القياس.
- المقاييس الإنسانية (النسبية) والمقاييس المثالية في الصفات البشرية
- طريقة قياس الذكاء الجماعي.

◄ فلسفة القياس

عندما نقول أن زيداً أطول من جرير فهذه نظرة قياس مباشرة وواعية. فنحن نرى زيداً ونرى جريراً ونرى أن طول زيد أكبر من طول جرير وننتهي بالنتيجة (أو الفكرة) أن زيداً أطول من جرير.

وعملية القياس المباشرة هذه تطلبت مقارنة شيء نجهله (ونريد قياسه) بشيء آخر نعرفه وبشكل واعٍ.

الآن ..... عندما نقول أن زيداً طويل، فكيف وصلنا إلى هذه النتيجة؟ وكيف يمكن التحقق من صحتها؟

هذه النتيجة تم التوصل إليها بمقارنة شيء نجهله ونريد قياسه بأشياء أخرى عرفناها وخبرناها وأصبحت عندنا عرفا. ففي القرية هناك رجال أطول من رجال.

ونتيجة للملاحظات الواعية وغير الواعية تم الانتباه أن هناك طول يمكن اعتباره الطول الوسط، وأن هناك رجال طولهم أقصر من هذا الطول وتم تسميتهم بالقصيرين، وهناك رجال طولهم أطول من هذا الطول وتم تسميتهم بالطوال.

ولهذا السبب فعندما يأتي أحد رجال هذه القرية ويقول إن زيداً طويل إنما هو في الواقع يقوم بمقارنة طول زيد بالطول الوسط الملاحظ عندهم.

انتبه هنا: الرجل الذي يتم اعتباره في الفلبين طويل قد يتم اعتباره في ألمانيا قصير. والسبب هو أن الأعراف في الفلبين فيما تم اعتباره الطول الوسط يختلف عن الطول الوسط في ألمانيا.

ولهذا السبب فإن المقاييس العرفية هي مقاييس نسبية تختلف من قرية لقرية ومن إقليم لإقليم.

ولكن من الممكن توحيد المقاييس باتفاق العالم على وحدة تحدد المعنى من كلمة طويل أو قصير. فيستطيع العالم بعد دراسة الأطوال في أهل الأرض أن يتخذ قراراً أن الطول ١.٧٥ (على سبيل المثال) هو الطول العادي وأن أي طول أقل يعني قصير وأن أي طول أكبر هو طويل.

وعندها فإن هذا المقياس هو مقياس مباشر وواعٍ ولا يختلف من مكان إلى آخر.

وفي الواقع فإن أحد دلائل عظمة الحضارات هي في سعيها (قدر الإمكان) لتوحيد المقاييس. فتوحيد مقاييس الأطوال والأوزان والأحجام والكتابات (الخ) قد ساعد في سرعة التواصل بين القرى والبلدان مما ساعد في نمو التجارة وسرعة التواصل في الأفكار.

◄ المقاييس الإنسانية (النسبية) والمقاييس المثالية

عندما تنظر إلى جبال الهمالايا فأنت تراها كعامود طاعن إلى السماء. ولكن أيما شخص ينظر إلى الأرض من السماء فإن جبال الهمالايا ليس لها أثر يذكر. إذ إن الشخص الذي ينظر إلى الأرض من السماء يراها مسطحة وملساء إلى درجة كبيرة. لماذا؟؟؟؟

انتبه أن ارتفاع جبال الهمالايا هي حوالي: ٩ كم

وأن قطر (diameter) الأرض هو حوالي: ١٢٠٠٠ كم

وأن محيط الأرض هو حوالي: ٤٠٠٠٠ كم.

أي أن ارتفاع الهمالايا بالنسبة إلى قطر الأرض هو ٠.٠٠٠٧٥

وأن ارتفاع الهمالايا بالنسبة إلى محيط الأرض هو ٠.٠٠٠٢٢٥

أي أن الذي يضع محيط الأرض وقطر الأرض ضمن انتباهه ونظرته ومقاييسه فإنه سيقوم بمقارنة جبال الهمالايا بالأطوال الأخرى الضخمة ويراها ضئيلة جدا. وهذا الذي يحدث لشخص ينظر إلى الأرض من أعماق السماء.

ولكن بالنسبة إلى الشخص الجالس على الأرض فإن جبال الهمالايا هي شيء كبير جدا حيث إن هذا الشخص لا ينتبه ولا يضع في إحساسه المقارنة بين جبال الهمالايا ومحيط الأرض وإنما ينظر إلى إحساسه بجبال الهمالايا بالنسبة إليه نفسه. وهذا هو الفرق بين المقياس المثالي والمقياس الإنساني (أو النسبي).

وهذا الاختلاف بين المقياس المثالي والإنساني تجده وبكل وضوح في النظرة إلى الصفات الإنسانية. ولنضرب المثال عن صفة النظافة:

هناك أشخاص نعتبرهم في غاية النظافة وهناك أشخاص نعتبرهم عاديين (أو وسط) في مقياس النظافة وهناك أشخاص نعتبرهم غير نظيفين تماما. وهناك مسافة شاسعة جدا بين من نعتبره غاية في النظافة وبين ما نعتبره غير نظيف. وهذا بالتأكيد ضمن المقاييس المحسوسة عندنا.

ولكن إذا نظرنا إلى الأمر ضمن المقاييس المثالية فقد يتعجب القارئ إذا قيل له إن المسافة بين النظيف جدا وبين غير النظيف جدا هي مسافة صغيرة جدا.

إن غير النظيف في المقياس الإنساني له درجة عالية جدا من النظافة في المقياس الشمولي لأنه إذا لم يكن عنده هذه الدرجة فإنه غير قادر على مواصلة

الحياة. فمهما كانت مناعة الرجل ضد الأمراض فإن لكل شيء حدوده ولو كانت نظافة الرجل أقل من مستوى معين فـإن الأمـراض ستنـسف جـسمه ومنـذ وقـت طويل.

دعنا نضع أرقام لهذه الفرضية (انتبـه هنـا أن الأرقـام هـي غلبـة تخمـين مـن المؤلف وللتوضيح):

من الممكن اعتبار أن الشخص غير النظيـف تمامـا في المقيـاس الإنـساني لـه مستوى يساوي ٩٠٪ من النظافة في المـستوى الـشمولي. إذ إن أي شـخص لـيس عنده هذا الحد الأدنى من النظافة فإنه غير قادر على مواصلة الحياة.

وعلى نفس النسبة نستطيع أن نفترض أن الأشخاص الـذين يمكـن اعتبـارهم عاديين (أو وسط) في مقياس النظافة الإنساني عنـدهم نـسبة تتـراوح بـين ٩٦٪ إلى ٩٨٪ في المقياس الشمولي. وأن الشخص الـذي يمكـن اعتبـاره نظيـف جـدا هـو الشخص ذو الدرجة التي تزيد عن ٩٨٪ في المستوى الشمولي.

لنضع مثالا آخر:

الرجل (أو المجتمع) الذي يمكن اعتباره في غاية الشر في المقيـاس الإنـساني إنما عنده درجة عالية من الخير في المقياس الشمولي. وهذا الخير قد يكون موجها نحو عائلته، أو أصحابه، أو مواشيه، أو النباتات والأشجار التي عنده، الخ.

وهذا أمر منطقي إذ إن أي رجل ليس عنده الحد الأدنـى مـن الخيـر فإنـه لـن يكون قادرا على العيش في أي محيط إنساني.

وعلى نفس النسبة السابقة فـإن الـشخص الـذي يـتم اعتبـاره شـريرا جـدا في المقياس الإنساني قد يكون عنده درجـة ٩٠٪ مـن الخيـر في المقيـاس الـشمولي ، والأشخاص الذين يمكن اعتبارهم عاديون قد يكون عنـدهم درجـة تتـراوح بـين

٩٦٪ إلى ٩٨٪ من الخير في المستوى الشمولي. والأشخاص الذين نعتبرهم في غاية الخير فربما درجتهم هي أعلى من ٩٨٪ في المقياس الشمولي. وهذا المثال ينطبق على جميع الصفات الإنسانية وعلى جميع المجتمعات الإنسانية.

وهذا بالضبط يشابه المثال المطروح عن جبال الهمالايا. فالفرق عندنا بين قمة جبال الهمالايا وقاع البحر الميت هو فرق شاسع جدا ولكن عندما تضع هذا كله ضمن مقياس محيط الأرض فإن الفرق هو صغير جدا.

وهذا كذلك ينطبق على صفات سعة الصدر وحسن الاستماع والجدية. فإذا وصفت شخصا (أو مجتمعا أو دولة) أنه سيء الاستماع فأنت تصفه ضمن المقياس الإنساني ولكن إذا انتبهت بشكل عميق فستجد أن مستوى الاستماع عند هذا الشخص في المقياس الشمولي مرتفع إذ لولا هذا لما استطاع هذا الرجل أن يتعلم أو ينمو.

الآن..... كيف تستطيع أن تحدد مستوى النظافة أو الخير أو الاستماع عند شخص أو مجتمع باستخدام المقياس الشمولي ؟؟؟

الجواب بسيط: تقوم بتحديد المعيار الشمولي للنظافة (على سبيل المثال) ووضع استبيان (Questionnaire) عميق مؤيد باختبارات موضوعية. ثم تقوم بالبحث عمن تم اعتبارهم أشخاص في غاية الاستماع ويتم تحديد درجتهم في هذا المعيار. ثم يتم البحث عن الأشخاص الذين تم اعتبارهم وسط في موضوع الاستماع ويتم حساب درجتهم في هذا المعيار ثم البحث عن الذين يتم اعتبارهم غير مستمعين أبدا ويتم تحديد درجتهم في هذا المعيار.

وبالتالي يكون عندك مقياس له أربع معالم رئيسية وهي الدرجة المثالية والدرجة العالية (أي درجة ذوي الاستماع العالي) والدرجة الوسط والدرجة الدنيا (وهي درجة الأشخاص غير المستمعين).

ومن هذا المعيار يتم تحديد درجة استماع أي شخص بعد إكماله للاستبيان المقدم.

الآن.... كيف تستطيع أن تحدد مستوى النظافة أو الاستماع أو الخير عند شخص أو مجتمع باستخدام المقياس الإنساني (النسبي)؟؟؟

الجواب كذلك بسيط: تقوم بملاحظة المجتمعات والأشخاص ذوي الاستماع العالي (على سبيل المثال) ثم تضعهم هم الأساس ثم تضع استبيانا يقوم بتحديد مستوى الأشخاص (والمجتمعات) التي يتم اعتبارهم وسط ومستوى الأشخاص (والمجتمعات) التي استماعهم غير جيد. وفي هذا المقياس فأنت عندك معيار ذو ثلاثة معالم وهي الدرجة العليا والوسط والدنيا. ومن الممكن بعدها باستخدام هذا الاستبيان تحديد مستوى استماع أي شخص (أو مجتمع).

وإذا انتبهت في المقياسين فإن أساس القياس هو تحديد مستوى الدرجة العليا والوسط والدنيا ومن ثم مقارنة المجتمعات أو الأشخاص بهذه المستويات. وإذا انتبهت بعمق أكبر فإن الأساس الحقيقي هو مقارنة المجتمعات والأشخاص بالدرجة العليا (أي على سبيل المثال مقارنة مستوى استماع المجتمع الفلاني بمستوى مجتمع نعرف أنه على درجة عالية من الاستماع) وذلك لأن الدرجة الوسط والدرجة الدنيا في الحقيقة تم تحديدها عن طريق مقارنتها أصلا بالدرجة العالية.

وهذا في الحقيقة يرجعنا إلى أول المقالة وهو أن القياس في النهاية هو عملية مقارنة بين شيء نجهله وبين شيء آخر نعرفه.

الآن.... ما هو الأفضل: استخدام المقياس الشمولي أم استخدام المقياس الإنساني (النسبي)؟؟

بالطبع فإن استخدام المقياس الشمولي هو الأفضل والأكثر دقة إذا تم التمكن

منه، ولكن خلق المقياس الشمولي بحاجة إلى جهد ضخم جدا. أما المقياس الإنساني فدرجة الدقة فيه جيدة ولكن الجهد اللازم لخلقه بسيط. ولهذا السبب فالمقاييس الإنسانية في كثير من الأحيان هي الأكثر عملية.

الآن ..... ما الفائدة من هذه المقالة وما هو الداعي أن يتم بحث موضوع المقاييس الشمولية والمقاييس الإنسانية في هذا الكتاب؟؟؟

انتبه إلى النقاش التالي:

زيد: الدولة الفلانية ليس عالية الحضارة.

جرير: كيف تتجرأ بهذا القول، ألا ترى بأم عينك كيف أقامت هذه الدولة الفلانية المدارس والمستشفيات والشوارع والأنهار العظيمة وكيف أنارت الطرقات وكيف جعلتها آمنة من أيدى المجرمين.

الآن ..... ما فعله زيد هو مقارنة غير مباشرة بين المجتمع الفلاني وبين مجتمع آخر موجود في عقله ليخرج بالنتيجة التي مفادها أن المجتمع الفلاني ليس عالي الحضارة. والمقياس بالطبع هنا مقياس إنساني غير مباشر وخاص بزيد.

ولكن انتبه أن جريراً هنا لم يستخدم أية مقارنة لا بشكل واعٍ ولا بشكل غير واعٍ وإنما عنده مقياس شمولي خاص به يضع فيه كل دولة تقوم ببناء المستشفيات والمدارس على أنها دولة ذات حضارة عالية.

وهنا تكون المشكلة في النقاش السابق وهو أن زيداً يستخدم مقياساً إنسانيّاً خاصّاً وغير مباشر في حين أن جريراً يستخدم مقياساً شموليّاً خاصّاً. ولهذا السبب فإن هذا النقاش سيتحول إلى جدال غير مفيد لأن كل واحد منهما يعتمد على قاعدة مختلفة في صناعة أحكامه.

والنقطة الأهم أن النقاش السابق هو الغالب في كثير من النقاشات التي تحدث بين الناس عند الحديث عن الصفات المتعلقة بالمجتمعات.

انظر كذلك إلى النقاش التالي:

زيد: الدولة «أ» أقل مهارة في حسن الاستماع من الدولة «ب».

جرير: كيف تقول هذا. هل لأن انجازات «ب» كانت أكثر من «أ» ؟؟؟ ولكنك تعلم تماما أن «ب» كانوا محظوظين بكذا وكذا. وأنا شهدت بأم عيني موقف لوزراء «أ» وقد فعلوا كذا وكذا. وهذا يعطي إثبات واضح وصريح أن الدولة «أ» عندها حسن استماع عالي. وقد صدر قرار وزاري في الدولة «أ» يقول كذا وكذا. وهذا دليل كافي لك لأن تشهد أن الدولة «أ» هي ذات مهارة عالية جدا في الاستماع.

الآن....زيد يقوم بعملية مقارنة كاملة بين دولة ودولة أخرى باستخدام المقياس الإنساني. وبالطبع يبقى صحة رأيه تعتمد على صحة المقياس الذي يستخدمه.

وأما جرير فهو ما زال يعتمد في نقاشه على استخدام خاص به للمقياس الشمولي. فلا يوجد في كل كلامه أية مقارنة لا بشكل واعٍ ولا بشكل غير واعٍ. ولهذا السبب فإنه من المتوقع أن يكون النقاش هنا بين زيد وجرير كذلك ذو صبغة جدلية غير مفيدة.

ولكي يكون النقاش مثمرا فإنه يجب إما التحقق من صحة أو خطأ المقياس الإنساني (النسبي) الذي استخدمه زيد. أو التحقق من صحة أو خطأ المقياس الشمولي الذي استخدمه جرير (أي التحقق من صحة أو خطأ أن الدولة التي تبني المدارس والمستشفيات أو التي أصدرت مراسيم كذا وكذا أنها ذات حسن استماع). وغير ذلك فإن النقاش سيكون جدالا في جدال حيث إن قاعدة الأحكام عند زيد مختلفة تماما عما هي عليه عند جرير.

وهذا هو الهدف من هذه المقالة وهو أن التوضيح أن الدولة إذا تم وصفها

أنها ذات مهارة استماع متدنية فإنه يجب الانتباه إلى المقياس الذي تم اعتماده للوصول إلى هذا الوصف: هل هو مقياس نسبي (إنساني) أم هو مقياس شمولي؟ وكذلك يجب الانتباه إلى مستوى الدقة في هذا المقياس: هل المقياس ذو دقة ومصداقية عالية أم هو ذو مصداقية غير عالية؟.

◄ طريقة قياس الذكاء الجماعي

كما تم الحديث في المقالة السابقة فإن قياس الذكاء الجماعي يتطلب دراسة عميقة للمجتمعات التي يتم اعتبارها ذات ذكاء جماعي مرتفع جدا. ومن هذه الدراسة يمكن الخروج باستبيان يتم من خلاله تحديد مستوى الذكاء الجماعي لأي مجتمع أو دولة أو مؤسسة.

ولا يوجد عند المؤلف في وقت كتابة هذه السطور أي استبيان كافٍ يسمح له بقياس مستوى الذكاء الجماعي. ولكن توجد هناك إشارات وقرائن تسمح بالتخمين الجيد لمستوى الذكاء الجماعي في أي المجتمع:

١- آداب السواقة (قيادة السيارات). فإذا كانت طبيعة الناس أنهم ذوي آداب عالية في السواقة وكان هناك درجة عالية من المراعاة والتسامح فيها فهذا دلالة على قوة الذكاء الجماعي في المجتمع.

٢- تعاملات الشرطة. فإذا كانت العلاقة بين الشرطة والجمهور هي علاقة رعاية وخدمة وتنظيم فهذا دلالة على قوة الذكاء الجماعي في المجتمع. وأما إذا كانت العلاقة هي علاقة تنظيم وتعالي وجباية فهذه دلالة على ضعف الذكاء الجماعي في المجتمع.

٣- تعاملات الموظفين الرسميين (موظفي الإدارات الحكومية والصحة العامة والبلديات والمواصلات الخ). فإذا كانت العلاقة بينهم وبين

الجمهور هي علاقة بشاشة وخدمات وتسهيل فهذا دلالة على قوة الـذكاء الجماعي في المجتمع وأما إذا كانت العلاقة هي جكارة وسـخرية ونرفـزة وتصعيب حياة فهذه دلالة على ضعف الذكاء الجماعي في المجتمع.

٤ـ أمثلة على الذكاء الجماعي

◄ **المثال الأول:**

إن صلاة سنة الفجر والظهر والمغرب والعشاء هي صلاة نفل، أي أنه يثاب فاعلها ولا يعاقب تاركها. والشخص أمير نفسه في صلاة النفل فيجوز صلاتها جلوساً أو قياماً.

الآن، إذا رأيت رجلاً صحيحاً معافى يقوم بصلاة الفرض كما تجب ولكنه يصلي صلاة السنة جالساً ودون عذر:

١) هل تكيل له الانتقاد؟

٢) هل تسخر منه بينك وبين أصدقائك؟

٣) هل تسخر منه في نفسك؟

٤) هل يتسع صدرك لهذا التصرف.

النقطة هنا أن الشخص أمير نفسه في صلاة النفل. وحيث إن الإسلام أعطاه هذا الحق، وهو بقيامه بهذا الحق لا يضر ولا يزعج أحداً، فلهذا فلا يحق لأحد انتقاده أو توبيخه أو السخرية منه.

أما إن شعرت بضيق أو توتر في الصدر أو رغبة للانتقاد أو السخرية فهذا دلالة على ضيق الصدر.

◄ **المثال الثاني:**

في أحكام الوضوء هناك الواجب وهناك النفل. الواجب هو غسل الوجه والساعدين ومسح الرأس وغسل القدمين. أما غير ذلك فمن النفل.

الآن، إذا رأيت صديقاً لك يقوم بالواجب فقط من الوضوء ولا يقوم بأي شيء آخر:

١) هل تكيل له الانتقاد؟

٢) هل تسخر منه؟

٣) هل تقبل به إماماً في الصلاة؟

٤) هل يتسع صدرك لهذا التصرف؟

كما تم نقاشه ، فأنت إن شعرت بضيق أو توتر في الصدر أو رغبة للانتقاد أو السخرية فهذا دلالة على ضيق الصدر.

◄ **المثال الثالث:**

لنفترض أن الخلافة الإسلامية قد قامت. وكما كانت الخلافة الأولى فإن الخلافة الثانية ستجمع بين قبائل وشعوب وأقوام مختلفين. وبالطبع فلا بد من وجود لغة مشتركة تجمع بين جميع هؤلاء الأقوام.

الآن، افترض أنك تستمع إلى لجنة تنصح بأن لا تكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية للخلافة وإنما تكون هناك لغتان رسميتان. اللغة الأولى وهي العربية (ويتم تشجيعها) واللغة الثانية هي لغة سهلة القواعد وسهلة التعلم. وتكون السياسة للمناطق والأقاليم أنه يتم تدريس اللغة المحلية (عربية كانت أو غير عربية) واللغة الثانية. أما اللغة العربية فيتم تشجيع دراستها بالتدريج. والسبب الذي وضعته اللجنة لهذا الاقتراح هو أن اللغة العربية هي من أصعب اللغات، وقواعدها هي من أصعب القواعد، وحروفها هي من أصعب الحروف. ولهذا فالمصلحة عند هذه اللجنة أن يتم اختيار لغة أخرى غير العربية كي تجمع بين أطراف الخلافة.

الآن، ما هو موقفك المباشر لهذه النصيحة؟

١) تقوم وبسرعة بشتيمة هذا الاقتراح.

٢) تقوم وبسرعة بانتقاد هذا الاقتراح وإظهار ما تراه من عيوب.

٣) تستمع لهذا الاقتراح وتتفكر فيه قبل أن تحدد وجهة نظرك.

ضمن فهم المؤلف فإن قيام دولة إسلامية باختيار لغة غير العربية هو أمر ليس منكراً في الإسلام. وعليه فإن الاختيار الأول والثاني هي دلائل على ضيق الصدر وسوء الاستماع وعدم وجود النظرة العملية. يجب التنبيه أن نجاح النظرة العملية يتطلب عدم التأثر بالتقاليد والأعراف الوضعية والمشاعر الآنية.

◄ **المثال الرابع:**

لنفترض وجود مجتمع يهتم ويتسم بالنظافة والترتيب. وفي أحد الحدائق انْتَبَهَ أحدُ الأشخاص (وليكن اسمه زيداً) أن هناك رجلاً (وليكن اسمه جريراً) قد ألقى القمامة على الطريق في هذه الحديقة.

ما هي ردات الفعل المحتملة لزيد؟؟

هنالك الاحتمالات الممكنة التالية لتصرف زيد:

أ) لا يكترث زيد بما فعل جرير.

ب) يذهب زيد إلى جرير غاضبا ساخطا ويضربه ويأمره أن يتصرف بحضارة تساوي حضارة الدولة وأعراف المجتمع ويطلب منه وبحزم التقاط القمامة ووضعها في سلة المهملات.

ت) يذهب زيد إلى جرير غاضبا طالبا منه أن يتصرف بحضارة تساوي حضارة الدولة وأعراف المجتمع ويطلب منه وبحزم التقاط القمامة ووضعها في سلة المهملات.

ث) يذهب زيد إلى جرير ويطلب منه بأدب ودبلوماسية مراعاة شعور الناس ومساعدتهم في الإبقاء على نظافة الحديقة ويطلب منه التقاط القمامة ووضعها في سلة المهملات.

ج) يقوم زيد بشكوى جرير لأول رجل شرطة يجده أو يقوم زيد بالاتصال بالشرطة وتقديم بلاغ بما حدث.

ح) يقوم زيد بالتقاط القمامة بنفسه دون التفاف إلى جرير ويضعها هو بنفسه في سلة المهملات.

خ) يقوم زيد بالتقاط القمامة بنفسه وبنظرة تأنيب باتجاه جرير ثم يضعها وبنفسه في سلة المهملات.

د) يقوم زيد بالتقاط القمامة بنفسه وبإماءة خفيفة (وربما بابتسامة خفيفة) باتجاه جرير، ثم يضعها بنفسه في سلة المهملات.

قبل تحليل الخيارات السابقة فإنه من الضروري النظر بعمق إلى تأثير القوانين في ديناميكية المجتمع:

الناس بطبيعتهم ليست ضد الانضباط والترتيب والنظافة ولكن هناك مجموعة من المجتمع (ويشكلون أقل من ١٠٪ من المجتمع على تخمين المؤلف) عندهم الرغبة للتمرد على عادات الانضباط والترتيب. وهذه الرغبة هي كذلك طبيعية، أي أنه من الطبيعي أن يظهر أشخاص تكون عندهم الرغبة الجارفة للتمرد على الترتيب.

انتبه هنا الآن..... هذه المجموعة المتمردة (والتي هي أقل من ١٠٪) ليست محددة المعالم وإنما هي مجموعة متغيرة متقلبة ومزاجية. بمعنى أن زيد ربما يكون في طبيعته حب الترتيب والمحافظة على نظافة المدينة وأعراف المجتمع لكنه في يوم الأيام قد تظهر عليه (إما بسبب الضيق أو الضغط) الرغبة للتمرد على

هذه العادات. وربما جرير والذي هو بطبيعته متمردا على أعراف المجتمع ولكنه يكون في كثير من الأيام منساقا ومحافظا على الترتيب وأعراف المجتمع. ولهذا فإن المجموعة المتمردة في المجتمع ليست ثابتة ولا هي محددة المعالم ولكن لا تزيد هذه المجموعة في أي يوم من الأيام على ١٠٪ ضمن الظروف الصحيحة والصحية.

الآن..... ما الذي يحدث عندما لا يكون في المجتمع قوانين واضحة وحازمة تحافظ على عادات الانضباط والترتيب؟؟

الذي سيحدث أن المجتمع سيبدأ حياته محافظا على الانضباط والترتيب ولكن ومع الزمن فإن ال ١٠٪ المتمردة من المجتمع ستقوم بعدوى باقي المجتمع ودفعه نحو الفوضى ليصبح المجتمع بعد جيلين (عشرين سنة) ذو عادة فوضوية ويبقى أقل من ١٠٪ من المجتمع يحاولون المحافظة على عادات الانضباط والترتيب (أي بمعنى أن هناك أقل من ١٠٪ من المجتمع يتمردون على عادات الفوضى التي تحكمت في مجتمعهم).

ولهذا السبب فإن أنظمة العقوبات والمخالفات والتعزير جاءت في حقيقة الأمر لردع الـ ١٠٪ المتمردة من المجتمع لعادات الانضباط والترتيب.

وإذا استغرب القارئ من هذه الفكرة فلينتبه أن الناس بطبيعتها لا تقوم بإلقاء القمامة في الأحياء النظيفة ولكن إذا بدأ أحد الناس بإلقاء القمامة هناك وتبعه أشخاص آخرون دون أن يجدوا من يردعهم فإن هذا سيشجع عامة القوم لعدم الاكتراث وإلقاء القمامة في ذلك الشارع ليصبح ذلك الشارع من أبعد الشوارع عن النظافة.

لنرجع إلى المثال السابق:

عندما تكون الدولة ذات قوانين واضحة وحازمة ولكن المجتمع ذو سعة

صدر ضيقة فإن الذي سيحدث هو أن زيداً سينظر إلى تصرف جرير على أنه استهتار بأعراف المجتمع ويبدأ التوهم أنه إذا تم السماح لجرير بالإفلات بهذا الاستهتار فإن هذا سيشجع الآخرين للقيام بتقليده وسيدفع هذا في النهاية إلى تحطيم الأعراف في المجتمع. وبسبب الحساسية والتوهم فإن زيداً سيندفع غاضباً نحو جرير ويطلب منه وبحزم أن يحترم أعراف المجتمع وأن يقوم بالتقاط القمامة ووضعها في سلة المهملات.

ولهذا السبب فإن التصرف «ت» في مجموعة الاحتمالات هو دليل على ضيق الصدر. وبالطبع فإن التصرف «ث» هو تصرف ذا سعة صدر أكبر من «ت».

أما التصرف «ج» فهو تصرف وسط (أي لا يشكل دليل على سعة الصدر أو ضيقه).

أما إذا كانت الدولة ذات قوانين واضحة وحازمة وكان المجتمع ذو سعة صدر عالية فإن الذي يحدث أن الناس لا تنظر إلى المخالفات الفردية بحساسية ووسوسة وإنما تنظر إلى أخطاء الأفراد أن لها عذر (فربما يكون جرير قد نسي حقا أن يرمي القمامة في سلة المهملات، أو ربما يكون جرير غريبا على هذه الدولة ولا يعرف أعرافها بعد، الخ).

ولهذا السبب فإن التصرف «ح» و«خ» و«د» في الواقع هو دليل على سعة صدر عالية.

وبالطبع فإن أقوى التصرفات هو التصرف «د» وذلك لأن الشخص الحر ذو الرفعة والكرامة سيهتز تماما عندما يتم التصرف معه بعفو وسماحة وكرم.

وهناك كتابة باللغة العربية في أحد السيوف العثمانية المعروضة في متحف توبكابي في تركيا تقول: «بسم الله الرحمن الرحيم الظفر شافع للمذنبين الكرماء والعفو يفسد من الخسيس بقدر ما يصلح من الرفيع».

انتبه الآن إلى المنطق التالي:

عندما يرى زيد جريراً يقوم برمي القمامة على الطريق وزيد لا يعرف جرير ولم يره من قبل فإن هناك احتمال ٥٠٪ أن يكون لجرير عذر (كالنسيان أو الجهل) و٥٠٪ أن يكون جرير مستهتراً. ولكن عندما يكون المجتمع مهتما بالنظافة والترتيب فإن ترتيب الاحتمالات يتغير وهو أن هناك احتمال ٩٠٪ أن لجرير عذر و١٠٪ أن يكون جرير مستهتراً (وذلك لوجود ٩٠٪ من المجتمع من هو مهتم وملتزم بالترتيب ووجود ١٠٪ فقط من المجتمع من هو متمرد). ولهذا السبب فإذا قام زيد بالتصرف «د» فهناك احتمال ٩٠٪ أن يتأثر جرير ويهتز لموقف زيد وهناك ١٠٪ أن لا ينظر جرير إلى موقف زيد بأية مشاعر.

وهذه الـ ٩٠٪ جديرة أن يتم اعتمادها أول الأمر.

الآن..... لنفترض جدلاً أن زيداً تصرف مع جرير بالتصرف «د». ولكن في الأسبوع التالي وجد زيد جريراً يقوم بنفس العمل (إلقاء القمامة على الطريق).

هنا فإن نسبة الاحتمالات تختلف الآن فإن هناك احتمال ٥٠٪ أن لجرير عذر و٥٠٪ أن جريراً يستهتر بأعراف المجتمع. وهنا قد يقوم زيد بالتصرف «خ».

ولكن إذا وجد زيد جريراً يقوم بالأمر في المرة الثالثة فإن هناك احتمال ٩٠٪ أن جريراً يستهتر بأعراف المجتمع وعندها فإن غالب الظن أن يقوم زيد بالتصرف «ت» أو «ث» أو «ج». وهنا فإن هذه التصرفات ليست مبنية على ضيق الصدر وإنما مبنية على الجدية في العمل.

وهذه هي النقطة وهي أن سعة الصدر لا تعني القبول بالفوضى وإنما تعني أن النظرة إلى الأخطاء الفردية تبدأ بالعذر قبل الحزم والحسم. أي أن المرة الأولى تكون عذرا و تنبيها ضمنيا، والمرة الثانية تكون تنبيها حازما، والمرة الثالثة فهي الحسم.

الآن..... ما هي دلالات التصرف «أ»؟

إذا كان المجتمع ككل يتصرف بمقتضى التصرف «أ» فهذا معناه أن الذكاء الجماعي لهذا المجتمع منخفضا بسبب ضعف الجدية، وذلك لوجود علاقة متعارضة تماما بين عدم الاكتراث والجدية.

ما هي دلالات التصرف «ب»؟؟

إذا كان غالب أفراد المجتمع يتصرفون بمقتضى التصرف «ب» فهذا معناه أن المجتمع نفسه في طريق الانهيار. إذ إن أي مجتمع متماسك بحاجة لوجود قوانين تحدد السلوك في هذا المجتمع. ومن هذه القوانين يتحدد نظام العقوبات وتتحدد الجهة التي ستقوم بتنفيذ هذه العقوبات.

ولكن إذا كان معظم أفراد المجتمع يتصرفون بمقتضى التصرف «ب» فهذا معناه أنه لا توجد لقوانين المجتمع هيبة وأن الكل هناك يقرر الحق الذي يراه بيديه. وهذا معناه أن المجتمع سيتحول إلى غابة يقرر فيها القوي حقوق الضعفاء. ومجتمع كهذا هو في طريقه نحو الانهيار.

يجب هنا التنبيه أن الذكاء الجماعي ينبني على القيادة المؤسسية. بمعنى أن الذكاء الجماعي عند الدولة ذات القيادة الديكتاتورية هو في غالب أحيان يكون منخفضا. وأما الذكاء الجماعي عند الدولة ذات القيادة المؤسسية فربما يكون مرتفعا أو وسطا أو منخفضا حسب ثقافة وعادات المجتمع. فالذكاء الجماعي في هولندا مرتفع، وفي إيطاليا وسط وعند العدو الإسرائيلي منخفض.

والتصرف «ب» يتعارض تماما مع فلسفات القيادة المؤسسية وذلك لأن أهم ركن من أركان القيادة المؤسسية هو استقلالية وهيبة السلطة القضائية.

ولهذا السبب إذا كان المجتمع يتصرف بمقتضى التصرف «ب» فهذا معناه أن هناك خللا كبيرا في قمة قيادة المجتمع وأن المجتمع نفسه في طريق الانهيار.

لنفترض الآن وجود مجتمع ذو قوانين واضحة وحازمة تجاه الانضباط والترتيب وأن المجتمع كذلك يتصف بذكاء جماعي مرتفع. ولنفترض أن هذا المجتمع بدأ الانتباه أن هناك مجموعة كبيرة من الناس تستهتر بموضوع النظافة في الحدائق وأن هذا الأمر يكاد يتحول إلى عادة. ماذا سيكون ردة فعل المجتمع تجاه هذا الأمر؟؟

الذكاء الجماعي المرتفع يتطلب سعة الصدر تجاه الأخطاء الفردية ولكن عندما ينتبه المجتمع إلى أن هذه الأخطاء تكاد تتحول إلى عادة فإن الجدية في المجتمع ستدفعه نحو الضغط الشديد تجاه القيادة السياسية والتشريعية والقضائية للتصرف الحازم والحاسم تجاه هذه المخالفات. وكذلك سيبدأ المجتمع (وبشكل غريزي) بتكوين التجمعات والتي ستواجه المخالفين وذلك باستخدام التصرف: «ت وث وج».

وهذه نقطة مهمة: سعة الصدر لا تتعارض مع الجدية وإنما تتعارض مع التسرع في الاتهام.

◄ **المثال الخامس:**

لنفترض أن هناك قرية تعودت منذ مئات السنين أن يقوم أفرادها بصلاة التراويح كاملة في رمضان. ولنفترض أن جريراً (وهو أحد أفراد هذه القرية) لم يعد يقوم بصلاة التراويح وإنما يقوم فقط بصلاة العشاء. ولنفترض أن إمام المسجد (زيداً) ساءه أن لا يقوم جرير بصلاة التراويح وذلك لأن جريراً بهذا العمل سيفقد الكثير من الحسنات جراء تركه هذه الصلوات، كما أن زيداً خاف أن يؤدي تصرف جرير إلى تشجيع الآخرين بتقليده.

ما هي الاحتمالات الممكنة لردة فعل زيد؟؟؟

هنالك الاحتمالات الممكنة التالية لتصرف زيد:

أ) أن لا يتأثر زيد بتصرف جرير وإنما يدعو لـه في قلبـه أن يقـوي الله إيمانـه (إيمان جرير).

ب) أن يقوم زيد بين الحين والآخر بتذكير الناس بفضل صـلاة التـراويح دون أن يشير لا من قريب ولا من بعيد إلى جرير.

ت) أن يقوم زيد بنصيحة جرير مرة واحدة فقط أن لصلاة التراويح أجـر كبيـر ويدعوه للالتزام بها.

ث) أن يقوم زيد بتكرار النصيحة في كل مرة يرى فيها جريراً ويدعوه كـل مـرة لضرورة الالتزام بصلاة التراويح.

ج) أن يبدأ زيد باستخدام الهمز واللمز في سبيل إحراج جريـر أمـام الآخـرين وذلك بهدف إقناعه بالالتزام بصلاة التراويح.

ح) أن يبدأ زيد بإثارة الناس ضد جرير وضد تصرفاته ويدعوهم لمقاطعته.

قبل تحليل الاحتمالات السابقة فإنه من المناسب التعمق في مجالات التمـرد على المجتمع:

التمرد على المجتمع يكون بأحد الأشكال التالية:

- القيام بالمنكرات. والمنكرات هي كبائر الإثم والفواحش ضـمن قـوانين المجتمع ومرجعيته الثقافية. وتختلف المنكـرات مـن مجتمـع إلى آخـر، فشرب الخمر هي من المنكرات ضمن الثقافة الإسـلامية ولكنهـا ليـست من المنكرات ضمن الثقافة الأوروبية. وأما القتل فهو ضمن المنكرات في كل من الثقافات الإسلامية والأوروبية.
- القيام بالمخالفات. والمخالفات هـي اللمـم أو الـصغائر ضـمن قـوانين

المجتمع ومرجعيته الثقافية. فرمي القمامة في الشارع هي مخالفة واضحة في معظم الثقافات ولكنها ليست جريمة ولا هي كبيرة.

- مخالفة المستحبات. والمستحبات هي تصرفات تحض على فعلها المرجعية الثقافية ولكن ليس فيها إلزام. فصلاة التراويح هي من المستحبات في الثقافة الإسلامية ولكن ليس فيها إلزام. والذهاب إلى صناديق الاقتراع لانتخاب المسئولين هو أحد المستحبات الواضحة في الثقافة الأوروبية ولكن هذا التصرف ليس فيه إلزام.
- القيام بالمكروهات. والمكروهات هي تصرفات تحض على تركها المرجعية الثقافية ولكن لا يوجد لها عقاب. ومثال على ذلك فإن قيام النقابات بالدعوة إلى الإضراب عن العمل هو أحد الأمور المكروهة ضمن الثقافة الأوروبية ولكنها ليست جريمة عندهم.
- التمرد على العادات. والعادات هي تصرفات اتخذها الآباء قبل عشرات السنين لمصلحة وجدوها ذلك الوقت وقلدهم فيها الأبناء عبر الأجيال التالية. وهذه العادات ليست منصوصة في القوانين أو المرجعية الثقافية للمجتمع وإنما هي عادات موروثة.

الآن..... المستحبات والمكروهات والعادات هي ما يمكن تسميتها بأعراف المجتمع وهذه تنقسم إلى قسمين:

- أعراف اجتماعية. وهي أعراف تتعلق بين الإنسان وآخرين (أي تتعلق بين الإنسان وآخر، أو بين الإنسان وجماعة، أو بين الإنسان والمجتمع، أو بين الإنسان والبيئة، الخ). مثال ذلك هو حسن الرائحة، فلا يوجد قوانين تقوم بإلزام الناس على التعطر ولكن من المستحسن أن يخرج الناس لملاقاة الآخرين وهم في ريحة طيبة.

- أعراف ذات تأثير فردي (أعراف فردية). وهي أعـراف وتـصرفات تتعلـق بين الإنسان وقناعاته فقط (أي تتعلق بين الإنسان ونفسه أو بـين الإنـسان وربه، الخ). مثال ذلك هي صلاة النوافل فهـي تـصرف يتعلـق فقـط بـين الإنسان وربه.

انتبه لما يلي:

شرب الخمر للمسلم هو تصرف يتعلق بين الإنسان ونفسه فقط، ولكـن هـذا العمل ليس ضمن الأعراف الفردية وإنما هو عمل منكر ضمن الثقافـة الإسـلامية ويقوم المجتمع بمعاقبة من يفعلها.

في حين أن صوم الستة أيام من شوال هو ضمن الأعراف الفردية.

الآن..... الأعراف الاجتماعية تنقسم إلى التالي:

- أعراف اجتماعية مانعة (أي مانعة للضرر). وهي الأعراف التي قد يـسبب عدم فعلها أذية للناس. مثال: لنفترض أن هناك قرية صغيرة. ولنفترض أن الطرق في هذه القرية ضيقة وقد تعود الناس منذ عـشرات الـسنين في يـوم الجمعة (وهو يوم التسوق الكبير في تلك القرية) أن يكـون طريـق اليمـين هو الطريق الذي يمشي فيه الناس من القرية إلى ساحة الـسوق وأن يكـون طريق اليسار هو الطريق الذي يمـشي فيـه النـاس مـن سـاحة الـسوق إلى القرية. وهذه العادة مطبقة فقط يوم الجمعة.

  لنفترض الآن أن جريراً قد تمرد عـلى هـذه العـادة. وهـو بهـذا التـصرف سـيثير الارتباك في حركة الناس من القرية إلى السوق. وفي هذا أذية للناس ويحق للناس شكوى جرير إلى القضاء ويحق للقضاء أن يردع جريراً عن هذا التصرف.
- أعراف اجتماعية جالبة (أي جالبة للمصلحة). وهي الأعراف التي إذا تـم الامتناع عنها فإنها قد تسبب تضييق الوصول إلى المصلحة لبعض الناس.

مثال ذلك: لنفترض أن هناك قرية وأن أهل هـذه القريـة قـد تعـودوا منـذ عشرات وعشرات السنين أن يتبرعوا جميعا كل ستة أشهر للقيـام بمناسـبة (حفلة) جامعة للقرية في الساحة الأمامية للمسجد. والحفلة الجامعة هـي مصلحة واضحة فهي مناسبة طيبة لرؤية كثير من النـاس الـذين لا تـراهم عادة، وكذلك فهي فرصة لطي صفحات الخصام الخ.

لنفترض أن جريراً قد قرر عدم الذهاب إلى هذه الحفلات وعدم التبرع لهـا.

انتبه هنـا: عدم الوصول إلى المصلحة لا يجب اعتبـاره أذيـة. والمـصلحة والأذية ليست كلمتين متقابلتين. فمثلا: قيـام زيـد بِعَـرْضِ بـضاعته عـلى جرير واعتذار جرير عن شرائها فإن هذا قد يتسبب بعدم قدرة زيد لتحقيق مصلحته ولكن لا يمكن أن نقول أن جريراً قد تسبب بأذية زيد. ولكـن إذا قام جرير بالاتصال بباقي التجار وطلب منهم عدم شراء هذه البضاعة فإن هذا العمـل هـو أذيـة لزيـد. وهـذه هـي النقطـة هنـا: عـدم الوصـول إلى المصلحة لا يعني بالضرورة الأذية.

ولهذا السبب فإن ما فعله جرير لا يؤذي أهل القرية ولكن بالطبع فـإن مـا فعله قد يؤثر على مصلحة تعـودوا عليهـا. ولكـن هـذه المـصلحة ليـست أساس في قـوانين المجتمـع ولا هـي أسـاس في المرجعيـة الثقافيـة لهـذا المجتمع. ولهذا السبب فـلا يحـق لأحـد أن يفـرض عـلى جريـر التبـرع للحفلة ولا أن يفرض عليه الحضور إلى هـذه الحفلـة. وأمـا إذا أراد أهـل القرية أن يفرضوا على جرير التبرع والحضور فإن الحل الوحيد أمامهم هو وضع موضوع التبـرع للحفلـة ضـمن قـوانين المجتمـع المتبنـاة. وهـذا يتطلب مخاطبة السلطة التشريعية في البلاد ويتطلب من السلطة التـشريعية موازنة الأمور قبل إقرارها هذا القانون، وهذا ليس بالأمر السهل.

) أعراف اجتماعية غير مؤثرة. وهي الأعراف التي لا يسبب فعلها أو عدم فعلها أذية للناس أو مصلحة لهم.

مثال على ذلك لنفترض أن هناك قرية صغيرة وقد تعودت هذه القرية منذ عشرات السنين أن يذهبوا بعد صلاة الجمعة إلى الملعب ويلعبون كرة القدم. الآن... قيام زيد بعدم الالتزام بهذه العادة لا يؤذي أحد ولا يؤثر في مصلحة أحد، بالطبع قد يشعر بعض الناس بخيبة الأمل ولكن تصرف زيد لا يؤثر على أحد.

وكذلك في المثال السابق، فإذا كان طريق اليمين وطريق اليسار واسع وبدأ جرير بمخالفة العادات القديمة للقرية التي تقول أن الذهاب إلى ساحة السوق يوم الجمعة يكون من خلال طريق اليمين وأن الرجوع إلى القرية يكون من خلال طريق اليسار في القرية. فإن مخالفة جرير لهذه العادة لا تسبب أذية لأحد ولا تؤثر على أحد. بالتأكيد سيشعر الكثير بخيبة الأمل نتيجة للمساس بعادة قديمة تعود عليها الناس ولكن هذه العادة ليست أساس في قوانين القرية أو المرجعية الثقافية عندهم.

الآن.....رجوعا إلى مجالات التمرد على المجتمع فإننا نستطيع أن نحددها وبوضوح كالتالي:

١) القيام بالمنكرات.

٢) القيام بالمخالفات.

٣) مخالفة الأعراف الاجتماعية المانعة.

٤) مخالفة الأعراف الاجتماعية الجالبة.

٥) مخالفة الأعراف الاجتماعية غير المؤثرة.

٦) مخالفة الأعراف الفردية.

الآن .....

- ضمن وجهة نظر المؤلف وكامل قناعاته فإن الشخص الذي لا يجد في قلبه المسامحة الكاملة والقبول الكامل للمخالفات المتعلقة بالأعراف الاجتماعية غير المؤثرة والأعراف الفردية فإن هذا الشخص ذو سعة صدر ضيقة ، وعنده نقص كبير في الصبر والحلم ونظرة المراعاة.

وضمن وجهة نظر المؤلف فإن أي شخص يجد في صدره الضيق من عدم قيام زميله بصوم الستة من شوال أو عدم صلاة النوافل فهو شخص ذو سعة صدر ضيقة ، وعنده نقص كبير في الصبر والحلم ونظرة المراعاة.

والسبب فيما سبق أن الأعراف الاجتماعية غير المؤثرة والأعراف الفردية لم يفرضها الله تعالى ولا يعاقب على تركها ولهذا فإنه من الأولى أن لا يقوم أي عبد لله (مهما كانت منزلة هذا العبد) بانتقاد أو معاقبة من يخالفها.

- وكذلك فإن أي شخص تراه ينتقد ويشتم المخالفين للأعراف الاجتماعية الجالبة فإنه شخص ذو سعة صدر ضيقة وعنده نقص في الصبر والحلم ونظرة المراعاة.

لماذا؟؟

لأن الأعراف الاجتماعية الجالبة ليست ضمن بنود قوانين المجتمع ولا هي مفروضة ضمن المرجعية الثقافية للمجتمع (والمرجعية الثقافية للمسلمين هي القرآن والسنة). ولهذا السبب فمن حق أي شخص أن يخالف هذه الأعراف. وبالطبع فإنه من المتوقع قيام الناس بالسعي لمصالحها ولكن هذا لا يعني أن يتم هذا بالشتيمة والإنكار على أولئك الذين لم يقوموا بأي مخالفة قانونية أو شرعية في تصرفاتهم.

- وأما الأعراف الاجتماعية المانعة فمن الضروري النظر إلى مخالفيها ابتداء

بسعة صدر ونظرة الرعاية. فربما يكون المخالف ناسيا أو جاهلا أو أن يكون تمرده لأسباب غير ظاهرة للعيان وتحتاج إلى التحقيق. وبالطبع إذا كانت الأذية من المخالفة ضخمة فإن الحزم سيكون أسرع من سعة الصدر وأما إذا كانت المخالفة ذات أذية خفيفة فإن الأولى أن تسبق سعة الصدر الحزم.

- وأما من يقوم بالمخالفات فكما تم شرحه في المثال الرابع فإن الأولية تكون لسعة الصدر ونظرة الرعاية خصوصا إذا كانت الأذية من المخالفة خفيفة. وأما إذا كانت الأذية ضخمة فمن الطبيعي أن يكون الحزم أسبق من سعة الصدر.
- وأما المنكرات فليس لها تصرف إلا الحزم والحسم ولا يجوز أن يكون لسعة الصدر مكانا في مواجهتها إلا بعد أن تزول هذه المنكرات.

رجوعا الآن إلى الاحتمالات في المثال الخامس:

صلاة التراويح هي ضمن الأعراف الفردية المتعلقة بين الإنسان وربه وهو فعل مستحب ضمن المرجعية الإسلامية ولكنها ليست مفروضة ولا عقاب أو انتقاد لمن تركها. ولهذا السبب فلا يجب أن يشعر الإمام بأي ضيق لقيام جرير لمخالفة هذا العرف.

ولهذا السبب فإن التصرفات «أ» و «ب» و «ت» هي ضمن مجال سعة الصدر.

وأما التصرف «ث» («أن يقوم زيد بتكرار النصيحة في كل مرة يرى فيها جريراً ويدعوه كل مرة لضرورة الالتزام بصلاة التراويح») فهو دليل على ضيق الصدر.

لماذا؟؟؟

عندما يقوم أي شخص بالإلحاح في النصيحة فهذه لم تعد نصيحة وإنما فرض

للأفكار وتعليم إجباري وضغط واستفزاز. ولكن حيث إن صلاة التراويح ليست فرض فإن قيام أي شخص بفرض الفكر على الآخرين في هذا الموضوع إنما هو سوء تصرف لأن هذا سيؤدي إلى الاستفزاز والاستفزاز المضاد دون أن يكون لهذا الاستفزاز أي داع.

أما التصرف «ج» («أن يبدأ زيد باستخدام الهمز واللمز في سبيل إحراج جرير أمام الآخرين وذلك بهدف إقناعه بالالتزام بصلاة التراويح») فهذا ليس فقط سوء تصرف وإنما هو كذلك سوء أخلاق.

ونظرة المؤلف أن الهمز واللمز ليس فقط هو سوء أخلاق وليس فقط أنها متعارضة تماما مع الذكاء الجماعي وإنما وجهة نظر المؤلف كذلك أن ثقافة الهمز واللمز هي لعنة إن أصابت المجتمع فإنما ستؤدي به إلى هلاك محتوم. وهذا الأمر سيتم نقاشه بالتفصيل في الفصل التالي.

الاحتمال «ح»: وهو أن يبدأ زيد بإثارة الناس ضد جرير وضد تصرفاته ويدعوهم لمقاطعته.

وهذا ليس فقط دليل ضيق صدر وإنما كذلك دليل ظلم من زيد لجرير. فإن جريراً لم يقم بمخالفة أحكام الله ولا أحكام القانون، ولهذا السبب فقيام زيد بإثارة الناس على جرير والطلب منهم أن يقاطعوا جريرا هو تصرف ظالم من زيد.

٥ ـ تناقض الذكاء الجماعي مع ثقافة الهمز واللمز

قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (١-الهمزة).

والويل هي صيغة تهديد ووعيد. والهمزة واللمزة هي صيغة مبالغة غير قياسية للهامز واللامز. وصيغة المبالغة تفيد الاستمرارية. وعليه فإن غلبة الظن أن تفسير الآية السابقة هو: الويل لمن طبيعته وعادته الهمز واللمز.

وهناك الكثير من التفاسير والشروحات لمعنى الهمز واللمز، وضمن مطالعات المؤلف وملاحظاته فإن غلبة الظن أن الهمز واللمز يقع ضمن الواقع التالي:

لنفترض أن جريراً غير متآلف تماما مع زيد. ولنفترض أن زيداً دخل مطعما وكان فيه جرير مع مجموعة من أصحابه (أصحاب جرير).

ثقافة الهمز تكون عندما ينتبه جرير لزيد فيغمز جرير لأصحابه ويومئ (من إماءة) برأسه تجاه زيد مع ابتسامة أو ضحكة خفيفة ساخرة. ولتتحول ديناميكية هذه المجموعة إلى استراق النظرات تجاه زيد مع ابتسامات وتعليقات ساخرة.

وهذه المجموعة لا تتعمد تنبيه زيد لهذه التصرفات وإنما استراق للنظر واستخدام زيد وسيلة ترفيه وسخرية.

أما اللمز فهو الهمز مع إضافة:

فاللمز هو نفس الصفات السابقة ولكن المجموعة هنا تتعمد تنبيه زيد لهذه التصرفات. وتبدأ بالتعليق بكلمات ظاهرها بريء وباطنها مؤذي. فمثلا عندما يصل زيد إلى جوارهم فقد ينظر أحدهم إلى صاحبه وبابتسامة سخرية يقول: أنت ذو شخصية قوية .... ويتبع هذا التعليق بعض الضحكات الاستفزازية. وإذا

عاتبهم أحد الناس فإنهم سيقولون إنهم لا يتحدثون عن زيد وإنما الكلام كان موجها إلى أحدهم وليس إلى زيد. وهذا هو المقصود بالقول: التعليق والكلام ذو الظاهر البريء والباطن الآثم.

لنستخدم مثالا حقيقيا قد سمعه المؤلف (والقصة هنا بتصرف ومعنى):

كان هناك تنافس شديد بين الحي الشمالي والحي الجنوبي في إحدى المدن. وفي أحد المواقف فقد سرق أحد رجال الحي الشمالي آلة حاسبة (كالكوليتر – Calculator) من أحد المحلات وكانت قصة محرجة للحي الشمالي. وقام أحد رجال الحي الجنوبي بدخول مطعم مشهور يرتاده أهل هذه المدينة وكان هناك الحوار التالي المسموع بين هذا الرجل ونادل المطعم:

الرجل: ما عندكم؟

النادل: عندنا كذا وكذا

الرجل: تمام. أحضر لي كذا وكذا. ولكن لا تغشني بالحساب وأريدك أن تحسب كل شيء بالكالكوووولييتر. هل تسمعني؟؟

الآن... بالنسبة لغريب يسمع هذا الحوار فالتعليق والحوار كان مزاحا بريئا بين الرجل والنادل وأما بالنسبة لرجل من المدينة فإن هذا التعليق كان غمزا بطرف الحي الشمالي وكان تعليقا مؤذيا أمام الحضور.

وهذا هو اللمز. وهو لعنة حقيقية لأي مجتمع لأنه يجعل قوى المجتمع تتجه نحو بعضها البعض في تصرفات لا تهدف إلا إلى استفزاز الآخر. ومجتمع كهذا ينطبق عليه الوصف: بأسهم بينهم شديد. وأيما مجتمع تستفحل فيه ثقافة الهمز واللمز فهو مجتمع لا يستحق المجد ولا يستحق العلا.

وهنا في هذا الموقف يأتي سؤال: ما الفرق بين المزاح واللمز؟؟؟؟

اللمز فيه نية الأذية أو أن الأذية فيه واضحة لا عذر للنية فيها. في حين أن المزاح لا يحمل فيه نية الأذية.

دعونا نتعمق قليلا في هذا الأمر:

لنفترض أن أصحابا من الحي الشمالي والجنوبي قد دخلوا إلى أحد المحلات وتشاوروا فيما بينهم فيما يريدون أن يشتروه ثم قام أحد رجال الحي الجنوبي بالتعليق وبابتسامة: لا داعي للذهاب إلى قسم الآلات الحاسبة.

الآن.... هل هذا مزاح أم لمز؟؟؟

هذا لمز. فالأذية واضحة. وحتى لو فرضنا حسن النية فإن الأذية واضحة إلى الدرجة أن حسن النية ليست عذرا مقبولا.

الآن.... لنفترض نفس المثال السابق ولكن الذي قام بالتعليق هو أحد رجال الحي الشمالي.

هل هذا مزاح أم لمز؟؟؟

لا يوجد هنا أي أذية وإنما التعليق هو ضمن «السخرية على النفس» (وهو موضوع سيتم تبيانه لاحقا). ولهذا السبب فالتعليق هنا هو مزاح.

دعنا نفترض أن ابن السارق كان ضمن المجموعة وقام أحد رجال الحي الشمالي بالتعليق السابق.

هل هذا مزاح أم لمز؟؟؟

هذا لمز. والملموز هو ابن السارق. أي أن هناك أذية واضحة من بعض رجال الحي الشمالي لابن السارق.

فالأذية أو نية الأذية هي التي تقوم بالتفريق بين المزاح واللمز.

ونستطيع مما سبق أن نضع تعريفا مفيدا للمز وهو السخرية والاستفزاز والأذية بتعابير وصيغ ظاهرها بريء.

وموضوع المـزاح واللمـز هـو موضـوع مهـم لفهـم ديناميكيـة المجتمعـات ويستحق هذا الموضوع التعمق فيه بشكل أكبر:

◄ المزاح واللمز

هناك أشكال كثيرة من المزاح ولكن التالي هو ما وجده المؤلف مثيرا للانتباه:

١- المزاح تجاه الموقف

٢- المزاح تجاه الشخصية.

٣- المزاح تجاه النفس.

دعونا نتعرض لما سبق بالتفصيل:

◘ المزاح تجاه الموقف أو تجاه الشخصية:

المزاح تجاه الموقف يتعارض تماما مع المزاح تجاه الشخصية وضمن وجهة نظر المؤلف فإن المجتمع الذي يغلب عليه المزاح تجاه الموقف هـو مجتمـع في غاية الرقي.

المزاح تجاه الموقـف هـو عنـدما تكـون التعليقـات والنكـات (جمـع نكتـة) والضحكات موجهة نحو موقف معين في حين أن المزاح تجـاه الشخـصية عنـدما تكون التعليقات والنكات والضحكات موجهة نحو شخصية معينة.

لنضرب المثال:

لنفترض وجود نهر صغير قرب مكتب عمل. وكان هناك اجتماع مهم في هـذا المكتب. وجاءت استراحة قصيرة في هذا الاجتماع فخرج زيد يصفي ذهنـه قـرب النهر. ولسبب أو لآخر زلت قدم زيد فسقط في النهر.

هذا الموقف لا يحدث كل يوم ولهذا السبب فإنه موقف يثير الابتسامة والتعليقات.

الآن.... المزاح تجاه الموقف يجعل التعليقات تتوجه نحو هذا الحدث، غرابة الحدث، المواقف التي تشكلت من الحدث، ربما تكون التعليقات موجه لشرح الدهشة على وجه الموظفين في المكتب، وتعليقات أولئك الناس، ربما قال المدير لزيد ضاحكا عندما رآه مبتلا تماما: أنت تشبه رجل يعمل عندنا اسمه زيد.

جميع هذه التعليقات لا تتعلق بشخصية زيد ولا تقوم بتوجيه الضحك على زيد وإنما الابتسامة هي تجاه الموقف والضحك مع زيد.

هنا سؤال مهم: ما الفرق بين الضحك مع زيد والضحك على زيد؟؟؟

هذا توضيحه بسيط وباستخدام مثال ظاهر: انتبه إلى الممثلين الكوميديين في التلفزيون والسينما وستجد هناك نوعين من الممثلين: نوعا تضحك معه ونوعا تضحك عليه. والنوع الذي تضحك معه فإنه يزداد احتراما في عينيك وأما الآخر فإنه يزداد سخافة في عينيك.

أما المزاح تجاه الشخصية فإن التعليقات والنكات والضحكات تكون موجهة إلى شخصية زيد نفسها، فربما يتم سرد تاريخ زلات زيد والضحك عليها، وربما يتم التعليق على زيد نفسه (أمامه أو من وراء ظهره)، الخ.

وكتعريف مفيد للمزاح تجاه الشخصية فهو: المزاح بصيغة السخرية والإحراج، والمزاح بصيغة الشتيمة، والسخرية بصيغة التفخيم والتبجيل.

وبالطبع فإن المزاح تجاه الموقف هو أرقى بكثير من المزاح تجاه الشخصية لأن المزاح تجاه الشخصية فيه شبهة الأذية والاستفزاز.

وضمن ملاحظات المؤلف فإن الإنجليز (وخصوصا الطبقة المتوسطة والارستقراطية) في دردشاتهم العامة يتبعون المزاح الأول (المزاح تجاه الموقف) وبشكل واضح.

انتبه أن الإنجليز لهم محيطان مستقلان: الأول وهو المحيط العام الذي يشمل العلاقات الرسمية، والعلاقات بين المعارف، والعلاقات بين الأصدقاء العاديين. والسلوك في هذا المحيط يتأثر بفلسفات المجتمع. والثاني وهو المحيط الخاص الذي يشمل العلاقات العائلية، والعلاقات بين الأصدقاء المقربين. والسلوك في هذا المحيط يتأثر بالتربية الخاصة للأفراد وأخلاقهم الشخصية.

والنقطة هنا أن فلسفات المجتمع في انجلترا المتعلقة بالسلوك في المحيط العام تجعل المزاح موجها نحو الموقف وليس الشخصية. وضمن غلبة ظن المؤلف فإن هذه الصفة ليست موجودة فقط في انجلترا وإنما في كل مجتمعات الحزام الأوروبي الشمالي (انجلترا، النرويج، فلندا، الدنمارك، هولندا، ألمانيا).

أما ملاحظات المؤلف للمزاح في مجتمعات البحر الأبيض المتوسط (إسبانيا، فرنسا، إيطاليا، اليونان، تركيا، سوريا، لبنان، الأردن، فلسطين، مصر، ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب) فإنها موجه وبشكل أكبر نحو الشخصية. وعلى غلبة ظن المؤلف فإن هذه الصفة قد تم زرعها في هذه المجتمعات عن طريق الحضارة الرومانية.

وهناك صفة أخرى موجودة في مجتمعات البحر الأبيض المتوسط وهي ثقافة الممسكة. ففي مجتمعات البحر الأبيض المتوسط فإن سقوط زيد في النهر ستصبح قصة يتداولها الناس يوما بعد يوم وسيتم تذكير زيد بذلك اليوم العصيب. أما في انجلترا (ومجتمعات الحزام الأوروبي) فإن الناس ستضحك ذلك اليوم على هذا الأمر وفي اليوم التالي انتهى.

وهنا نقطة هامة:

عندما يكون المزاح موجها نحو الشخصية دون أن تكون ثقافة الممسكة

متأصلة في المجتمع فإن هـذا الأمـر يمكـن التعـايش معـه فهنـاك موقـف غريـب وجاءت الابتسامات والتعليقات على صاحب هذا الموقف.

ولكن عندما يكون المزاح موجها نحـو الشخـصية وتكـون ثقافـة الممـسكة متأصلة في المجتمع فإن هذا لم يعد مزاحا وإنما لمزا. وإذا رجعنا إلى تعريف اللمـز فهو الـسخرية والاسـتفزاز والأذيـة بـصيغ وتعـابير ظاهرهـا بـريء. فالتعليقـات المتكررة والموجهة نحو الشخصية هي تعليقات مؤذيـة مهمـا أقـسم معلقيهـا أن نيتهم طيبة وأن قلبهم أبيض. ومهما كانت نيتهم فإن الأذية واضـحة لا عـذر فيهـا ولهذا فإن تعليقاتهم هي لمزا وليست مزاحا. وتعليقـاتهم هـذه هـي لعنـة تـصيب المجتمع كله.

وقد لا يكون من السهل في بعض الأحيان التفريق بين مزاح الموقـف ومـزاح الشخصية ولكن من الممكن التأكد إذا كانت ثقافة الممسكة متأصلة في المجتمـع أو غريبة عنه. وإن أي مجتمع تتأصل فيه ثقافة الممسكة فهو مجتمـع بعيـد تمامـا عن سعة الصدر والذكاء الجماعي، وذلك لأن ثقافة الممسكة سـتؤدي إلى تـراكم الاستفزازات في المجتمع والذي يؤدي في النهاية إلى شقاق المجتمـع عـن بعـضه البعض.

وهناك نقطة أخرى:

لنفترض وجود شخص (وليكن اسمه زيـداً) وكـان زلاتـه كثيـرة إمـا بـسبب النسيان أو بسبب الارتباك الخ. ولنفترض أن شخصية زيد ليست تصادمية وأنه من النوع المسالم. ولنفترض أن زيداً لم يكن ذا سـلطة ولم يكـن أهلـه ذوي سـلطة كـي يحموه من تجاوزات الآخرين.

كيف تتصور حياة زيد ستكون في مجتمع ضيق الصدر وذو مزاح موجـه نحـو الشخصية (أي أن المزاح يتم بصيغة السخرية والإحراج)؟؟؟

كن على ثقة أن حياة زيد ستكون جحيما. وهذا ليس تخيلا وإنما واقع يشهد عليه المؤلف: ففي إحدى الجامعات كان هناك طالبا مبعوثا من بلده (وسنسميه هنا زيداً) وكان يحمل الصفات السابق ذكرها. وكان مستوى زيد الأكاديمي جيد في أول دراسته، ولكن تعليقات الآخرين المتكررة والمتواصلة أدت إلى انهيار مستوى زيد الأكاديمي.

هل هذا مزاح أم لمز، وهل هذه رحمة أم لعنة؟

ومن هو الأشد ظلما وضلالا في هذا الموقف: هل هم أولئك الفئة التي قامت بالتعليق أم أولئك العدد الذين كانوا أصدقاء زيد والمحيطين به والذين لم يدفعوا الظلم عن زيد؟؟؟؟

وما هي وظيفة المجتمع الأساسية؟؟؟

وظيفته الأساسية هي أن يمنع القوي من أكل الضعيف ظلما وبهتانا. وأي مجتمع لا يستطيع أن يمنع القوي من أكل الضعيف ظلما وبهتانا فهو مجتمع لا يستحق المجد.

وبنفس القياس فإن الجماعة التي تسكت عن قيام أحد أعضائها بأكل الآخر ظلما وبهتانا فهي جماعة لا تستحق الثناء.

قال أبو بكر الصديق: «أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه» رواه الترمذي في الفتن.

نهاية هذه النقطة أن المؤلف لا يحبذ أبدا المزاح تجاه الشخصية، وربما يكون هذا المزاح مقبولا إذا كان مرة واحدة في موقف دون أن يتكرر، أو يكون بين أصدقاء قادرين على الأخذ والرد في هذا المزاح دون أن تتأثر مشاعرهم بتبعياته.

ولكن إذا كان المزاح تجاه الشخصية مقترنا بثقافة الممسكة أو كان هناك شخصا ضعيفا أخذته الجماعة مضحكة وتسلية لها فإن هذا المزاح هو لمزا وإثما ولعنة كبرى لا تحيط فقط بالآثم فيها وإنما ستصل كذلك إلى المتفرج لها.

◘ المزاح تجاه النفس:

عندما تتأصل في المجتمع ثقافة المزاح تجاه الموقف وتنعدم تماما ثقافة الممسكة عنده فإن هذا سيسمح للمجتمع بممارسة المزاح تجاه النفس. والمزاح تجاه النفس تأتي عندما يقوم زيد دون خوف أو قلق بالسخرية على نفسه وإثارة ابتسامات الآخرين بتعليقات ونكات عن نفسه.

وهذا النوع من المزاح تجده وبوضوح في انجلترا. والحضور عندما يستمعون إلى هذه التعليقات ويضحكون فهم لا يضحكون على زيد إنما يضحكون مع زيد على هذه التعليقات.

وهنا نقطة مهمة: عندما يسخر زيد على نفسه فهذا لا يعني أبدا أن زيداً سيرضى أن يسخر الآخرون عليه. وعندما تكون ثقافة المزاح في المجتمع موجهة نحو الموقف وتكون ثقافة الممسكة منعدمة فإن زيداً لن يقلق ولن يخاف أن تصير تعليقاته مصدر سخرية للآخرين عليه ولن يخاف ولن يقلق أن تصير تعليقاته ممسكة عليه.

وأما في كثير من مجتمعات البحر الأبيض المتوسط فأنت لا تجد المزاح مع النفس واضحا، وذلك لتأصل ثقافة المزاح تجاه الشخصية وتأصل ثقافة الممسكة فيه. ولهذا السبب فإن قام زيد بالمزاح على نفسه فإنه سيجد تعليقاته قد أصبحت ممسكة عليه وأن الآخرين يستخدمون هذه التعليقات للسخرية. والشخص

الوحيد القادر على المزاح على نفسه هو صاحب السلطة القادر على إيذاء الآخرين إن هم خرجوا عن الحد.

دعوني أضع مثالا يقوم بتوضيح ما سبق:

في إحدى مدن إنجلترا (مانشستر) قام مهرجان احتفالي في مدرسة ابتدائية يجمع الطلاب والطالبات. وفي هذا المهرجان كانت هناك مسابقات وألعاب. وفي إحدى هذه الألعاب جلس ناظر المدرسة على كرسي وعلى مسافة منه كان هناك برميل مليء بالبالونات الصغيرة المملوءة بالماء. واللعبة هي أن يقوم الطلاب والطالبات برمي البالونات على الناظر ومن يستطيع أن يصيبه فله جائزة. وهذه اللعبة كانت من أكثر اللعب التي أثارت ضحكات الطلاب وأولياء الأمور واستمتاعهم.

ما الذي فعله الناظر وكيف سمح لنفسه أن يكون في هذا الموضع؟ ولماذا لم يخف على هيبته كناظر مدرسة؟

هذه أسئلة رجل ترعرع في إحدى مجتمعات البحر الأبيض المتوسط، ولهذا السبب فإن هذا الموقف سيثير استغرابه وبشكل كامل.

في حين أنه ضمن فلسفات المجتمع في إنجلترا فإن الأمر أكثر من عادي. وبالنسبة إلى الناظر فهذا الأمر كان مزاحا مع النفس لأطفال في وقت تسلية وضحك.

انتبه مرة أخرى للجملة السابقة وهي أن ذلك الوقت كان وقت تسلية وضحك. والإنجليز في أوقات التسلية والضحك يسمحون لبعضهم البعض أن يكونوا طفوليين (من أطفال). بل عندهم عبارة مشهورة لهذه الأوقات وهي: "let us make fools of ourselves". ومعناها (بشكل غير حرفي): دعونا نكون طفوليين.

وهذا ما حدث مع الناظر فما فعله كان مزاحا مع النفس لأطفال في وقت

تسلية وضحك (وليس في وقت جد وعمل). ولهذا السبب فإن أولياء الأمور والطلاب لم ينظروا بسخرية لما فعله الناظر، ولم تسقط هيبته عندهم وإنما الضحك كان مع الناظر على الموقف.

مثال آخر:

في أوقات الصيف في انجلترا تجد الكثير من العائلات والأصدقاء يذهبون إلى الحدائق في أيام العطلات. وفي كثير من الأحيان يقومون باللعب مع بعضهم البعض من الشخص العجوز إلى الطفل الصغير. وضمن ما شاهده المؤلف فقد كانت إحدى اللعب هي معركة الماء وهي معركة بين فريقين باستخدام مسدسات الماء.

مثال آخر:

ضمن ملاحظات المؤلف في انجلترا في برامج تطوير المهارات فإن المشاركين في هذه البرامج صريحين جدا عندما يشرحون ويعرضون مشاكلهم للحاضرين. وهذا أمر قد يثير الاستغراب ولكن تفسيره بسيط:

عندما لا يكون عندك الخوف والقلق من أن يقوم أحد باستغلال ما تقوله ضدك، وعندما لا يكون عندك الخوف والقلق من أن يتم السخرية عليك نتيجة لما تقوله، وعندما لا يكون عندك الخوف والقلق من تصير أقوالك ممسكة عليك فإنك في هذه الحالة تكون صريحا جدا مع الآخرين في شرح مشاكلك والتعبير عن أفكارك.

وهذا ما تقدمه ثقافة مزاح الموقف للمجتمع، وهذا ما يقدمه المجتمع للناس عندما تنعدم ثقافة الممسكة فيه.

ولكن عندما تتأصل ثقافة مزاح الشخصية وتتأصل ثقافة الممسكة في

المجتمع فإن الناس لا تستطيع أن تكون صريحة ولا تستطيع أن تتعلم بحرية ولا تستطيع التعبير بحرية ولا تستطيع أن تمارس المزاح مع النفس بحرية ولا تستطيع أن تستمع بحرية في أوقات التسلية والضحك.

ومن المناسب هنا التعرض والتعمق لمفهوم «فلسفات المجتمع»:

دعونا نذكر قصة قرأها المؤلف قديما في أحد المقالات الإدارية:

يقال إن تجربة تم تنفيذها لمجموعة من القرود. وفي هذه التجربة تم إحضار خمسة قرود في غرفة. وفي وسط الغرفة تم وضع سلم. وفي أعلى السلم تم وضع كمية من الموز. ولكن كانت الغرفة مجهزة برشاشات مياه في غاية البرودة.

وعندما دخل القرود إلى الغرفة كان من الطبيعي أن يذهبوا باتجاه السلم وبمجرد أن لمسوا السلم فإن رشاشات المياه قد انطلقت. وهذا أصاب القرود بالذعر الشديد وانكفئوا إلى طرف الغرفة وعندها هدأت الرشاشات. وبعدها بقليل تجرأ أحد القرود لمحاولة أخذ الموز ولكن بمجرد أن لمس السلم انطلقت الرشاشات على جميع القرود مما منع القرد الجريء من تسلق السلم. وبعد أكثر من محاولة أصبح أي قرد يحاول أن يقترب من السلم فإن جميع القرود تقوم بضربه.

وبعد أن استقرت الأمور قام العلماء بإخراج أحد القرود وإدخال قرد جديد. وبالطبع استغرب القرد عدم اهتمام الآخرين للموز الموجود أعلاهم وذهب يحاول أخذها ولكن ما أن اقترب من السلم حتى تفاجأ بجميع القرود تضربه. وبعد محاولة وأخري قنع القرد بالاستسلام لهذا الواقع الغريب. وبعد أن استقرت الأمور قام العلماء بإخراج أحد القرود القدامى وإدخال قرد جديد آخر. وما أن حاول هذا القرد الجديد أن يقترب من الموز حتى وجد الآخرين (بما فيهم القرد الجديد الآخر) يقومون بضربه.

واستمر الحال حتى تم إخراج جميع القردة الذين خبروا المشكلة وأصبح جميع الموجودين في الغرفة هم من القردة الجديدين الذين لا يعرفوا بأمر رشاشات المياه. ولكن جميع هذه القرود قد ترسخت فيهم فلسفة واضحة تماما وهي أن محاولة الوصول إلى الموز هو جريمة يعاقب فاعلها بالضرب دون أن يعلموا بالضرورة لماذا هي جريمة.

وقد تكون هذه القصة من محض الخيال ولكن المنطقية فيها في غاية التأثير. وهذا بالضبط ما يحدث في المجتمعات الإنسانية، إذ يقوم الأجداد بتبني فلسفات وعادات لمصلحة وجدوها لتجد بعد أجيال أن هذه العادات أصبحت مقدسة في أعماق الوجدان دون أن يكون هناك علم أو وعي عن الأسباب التي أدت لخلق هذه العادات أول مرة.

وهذه هي قوة الفلسفات في المجتمع. وهذه القوة قد تكون خيرا إذا كانت الفلسفات مناسبة، وقد تكون شرا إذا كانت الفلسفات قد عفا عليها الزمن.

لنرجع إلى الأمثلة الإنجليزية السابق ذكرها:

ذكرنا أن الإنجليز عندهم محيطان شبه مستقلان: الأول وهو المحيط الرسمي الذي يشمل العمل والمعارف والأصدقاء العاديين. والمحيط الشخصي وهو الذي يشمل العائلة والأصدقاء المقربين. وذكرنا أن المحيط الرسمي يتأثر بفلسفات المجتمع في حين أن المحيط الشخصي يتأثر بشكل كبير على تربية الشخص وأخلاقه.

لنفترض أن هناك شخص (وليكن اسمه جورج) قد بدأ بالمزاح تجاه الشخصية وبشكل مؤذي في موقف رسمي (كعمل أو دردشة بين معارف وزملاء). ما الذي ستلاحظه في المجموعة المحيطة فيه؟؟؟

الذي ستلاحظه هو أن الكثير من هؤلاء سيعترض على تصرف جورج بمن

فيهم أشخاص قد يكونون أسوأ بكثير من جورج في محيطهم الشخصي.

لماذا؟

لأن فلسفات المجتمع قد ترسخت في الكثير من أفراد المجتمع على مدى أجيال، ولهذا السبب فليست أخلاق هؤلاء الأشخاص هي التي تعترض على تصرف جورج وإنما فلسفات المجتمع المترسخة فيهم في مجال المحيط الرسمي هي التي تعترض على تصرفات جورج، بالضبط كما حدث مع القرود الجدد في القصة السابقة.

ما الذي قدمته هذه الفلسفات لإنجلترا؟؟

هذه الفلسفات قامت بالضبط بعمل المغناطيس في سيخ الحديد:

الجزيئات في سيخ الحديد تكون مبعثرة وغير منتظمة وذلك لأن أقطابها الشمالية والجنوبية متجهة في جميع الاتجاهات. ولكن عندما تأتي بمغناطيس وتقوم بحكه بشكل متكرر وباتجاه واحد فإن الجزيئات تترتب بحيث يكون قطبها في أحد طرفي السيخ والقطب الآخر باتجاه الطرف الآخر وعندها يمتلك السيخ الصفات المغناطيسية.

وكذلك فلسفات المجتمع في انجلترا فهي تقوم بترتيب الناس بحيث تكون صفاتهم الحسنة باتجاه المحيط الرسمي والصفات السيئة (إن كانت موجودة) باتجاه المحيط الشخصي.

وهذا هو السبب الذي قد ترى أشخاص في محيط العمل في انجلترا بكل الأدب والتهذيب وربما تتفاجأ إن أنت تعمقت في علاقاتك معهم في المحيط الشخصي.

وبالطبع فإن الفلسفة المتكاملة للمجتمع لا تقوم فقط بحماية المحيط الرسمي من المحيط الشخصي وإنما تبدأ بالتأثير على المحيط الشخصي باتجاه

الأفضل كي لا يكون هناك تناقض ضخم بين سلوكيات المحيط الرسمي وسلوكيات المحيط الشخصي.

وهذه الآن هي مشكلة حقيقية في انجلترا، إذ إن فلسفات المجتمع لم تعد مؤثرة في المحيط الشخصي عند الإنجليز ومنذ فترة بعيدة. وما زالت فلسفات المجتمع في انجلترا مؤثرة في المحيط الرسمي ولكن سيأتي اليوم الذي لا تستطيع فيه فلسفات المجتمع في انجلترا من حماية المحيط الرسمي من الفوضوية والإسراف والإهمال المتجذرة الآن في الأجيال الجديدة من الشعب الإنجليزي.

هذه نقطة انتباه..... المجتمع مترابط وبشكل كبير جدا ولا يمكن حقيقة تشريح ديناميكيته. ومع أن الإنجليز قد استطاعوا وبشكل حقيقي من فصل مشاكل المحيط الشخصي عن المحيط الرسمي، ومع أن سلوكيات الناس في المحيط الشخصي قد تكون متناقضة مع سلوكيات الناس في المحيط الرسمي، وهذا في الحقيقة كان نقطة قوة للانجليز في وقت من الأوقات، إلا أن تربية الأجيال لا تتم في المحيط الرسمي وإنما في المحيط الشخصي. والأطفال اليوم هم قادة المحيط الرسمي غدا. وإذا تشبع المحيط الرسمي بمجموعة كبيرة من الأجيال التي ترسخت فيها ثقافة الإهمال والإسراف والفوضى (كما هو حاصل الآن) فإن قوة فلسفات المجتمع ستبدأ بالضعف وسيحل محلها فلسفات جديدة. وهذا ما يحصل الآن في انجلترا.

ولهذا وجب التنويه لما يلي: هناك صفات جيدة للإنجليز وهناك صفات غير جيدة. ولكن الصفات الجيدة للإنجليز هي التي مكنتهم من التربع على قمة العالم في فترة من الزمن. والصفات التي ذكرها المؤلف عنهم سابقا ليس تغزلا بهم ولا مدحا لهم وإنما هو تحليل لواقع بهدف معرفة أسرار النهضة. ومن الضروري لمعرفة أسرار النهضة القيام بتحليل صادق وعميق للأمم التي استطاعت أن تصل

إلى قمم النهضة، والقيام بتحليل عميق للأمم التي سقطت من قمم النهضة بعد وصولها، وتحليل عميق للأمم التي تحاول الوصول دون نجاح إلى قمم النهضة. ومن المقارنة بين التحليلات المختلفة نستطيع أن نضع الأصبع على الأسرار الحقيقية للنهضة.

وهنا نأتي إلى النقطة الأساسية في هذه المقالة:

المجتمعات لا تصل إلى المجد بقوة العضلات فقط وإنما هناك فلسفات يزرعها المجتمع في وجدان الناس تسمح لهم أن يكونوا منسجمين مع بعضهم البعض (قدر الإمكان) وتسمح بتخفيف حدة الشقاق بين بعضهم البعض وتسمح أن لا يتصف المجتمع بوصف: «بأسهم بينهم شديد».

وضمن وجهة نظر المؤلف فإن أسرار النهضة الحقيقية ليست في العضلات ولا في نوعية السلاح ولا في التطور العلمي ولا في الطموح ولا في الشجاعة. فكل ما سبق هو نتاج النهضة وليس سر وجودها. وأما أسرار النهضة الحقيقية فهي في فلسفات المجتمع التي تجعل أفراد هذا المجتمع يتصفون بالانسجام والرحمة بين بعضهم البعض.

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾(٥٣ - الأنفال).

وقال تعالى: ﴿...إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾(١١ - الرعد).

وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ (٢٩ - الحجرات).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٥٤ - المائدة).

ومن المناسب هنا التعرض إلى ظاهرتين تحدث في المجتمع الذي تتأصل فيه ثقافة مزاح الشخصية وثقافة الممسكة. وللتسهيل فسنقوم بتسمية المجتمع الـذي تتأصل فيه ثقافة مزاح الشخـصية وثقافـة الممـسكة بـالمجتمع «ألفـا» وسنـسمي المجتمع الذي تتأصل فيه ثقافة مزاح الموقف بالمجتمع «بيتا»:

الظاهرة الأولى:

لنفترض أن جريراً يمزح مع زيد بشكل مؤذٍ.

التصرف الطبيعي في مجتمع راقٍ أن يقـوم زيـد بالطلـب مـن جريـر وبـشكل مؤدب ودبلوماسي بأن يكف لسانه (لسان جريـر) عنـه (عـن زيـد). وإذا تمـادى جرير بعدها فإن المجتمع نفسه (ولـيس زيـد) هـو الـذي سـيقف في وجـه جريـر ويلزمه الحد.

ولكن في مجتمع ألفا فإن زيداً قد يحذر ويتردد من القيام بهذا الطلب!! وذلك لأن جريراً والناس قد يرون في هذا الطلب دليل ضعف من زيد.

لماذا؟؟

لأنه في مجتمع يستمتع بتناوش الشخصيات مع بعضها (وهذا نتيجـة لتأصـل ثقافة المزاح تجاه الشخصية) فإن القوة تكون عندما يقوم زيد بفـرض الأمـر عـلى جرير فرضا. ولكن عندما يطلب زيد وبأدب من جرير هذا الأمر فإنـه يظهـر كمـن يترجى ويتوسل وهذا (ضمن النظرة غير الواعية في مجتمع ألفا) هو دليل ضعف.

ماذا يحدث بالعادة للشخصيات التي ظهر أنها ضعيفة في مجتمع ألفا؟؟

حيث إن متعة المجتمع هي التسلية والمزاح تجاه الشخصية فمن الطبيعـي أن تكون شخصية الضعفاء مادة تسلية وضـحك (وبنيـة طيبـة وبـشكل غيـر واعٍ) في مجالس الناس الخاصة أو العامة.

لنرجع إلى الفرضية السابقة: «جرير يمزح مع زيد بشكل مؤذٍ»:

ما هي الاحتمالات الممكنة لتصرف زيد مع جرير في مجتمع ألفا؟؟

هناك الاحتمالات التالية:

أولا: يقوم زيد وبعصبية وشدة غضب بالصراخ على جرير مهددا ومتوعدا له إن هو كرر مزاحه ليفعلن ويفعلن. وهذه هي ثقافة العين الحمراء وهي أنك في بعض الأحيان لا تستطيع أن تأخذ حقك أو أن تبعد عنك الظلم إلا بإظهار شدة الغضب وربما بالدخول إلى العراك.. وإذا انتبه القارئ فإن ثقافة مزاح الشخصية وثقافة العين الحمراء متلازمتان، أي أن المجتمع الذي تتأصل فيه ثقافة مزاح الشخصية فإن ثقافة العين الحمراء كذلك متأصلة فيه.

ثانيا: إن كان زيد ندا لجرير في المزاح فإن زيداً سيقوم بكيل الصاع صاعين لجرير بهدف إفهام جرير أنه قد وصل الحد. وإذا لم يتراجع جرير فربما يتصاعد بينهما المزاح إلى درجة الشقاق والعراك والخصام.

ثالثا: ربما يقوم زيد بأخذ موقف من جرير (مثلا عدم التحدث معه). وربما يفهمها جرير ويعلم أنه قد وصل إلى الحد. ولكن في كثير من الأحيان فإن جريراً ربما لا يعلم حقيقة سبب التغير في تصرفات زيد تجاهه، ليقوم جرير بأخذ موقف مضاد، وهذا قد يؤدي إلى تصاعد المواقف بينهم إلى درجة الخصام.

رابعا: أن يضطر زيد إلى تحمل جرير وتحمل مزاح جرير.

الظاهرة الثانية:

لنفترض أن زيدا قد أخطأ في حق جرير. التصرف الطبيعي في مجتمع راقٍ هو أن يقوم زيد بالاعتذار من جرير دون حرج أو تردد. ولكن في مجتمع ألفا فإن زيد قد يتردد (وبشكل غير واعٍ) من القيام بالاعتذار بشكل واضح وصريح من زيد

وإنما قد يقوم بأعمال وتصرفات يظهر فيها الاعتذار ولكن ليس الاعتذار الصريح.

لماذا؟؟

لذات السبب الذي تم تبيانه في الظاهرة الأولى. ففي مجتمع يعشق تناوشات الشخصية (كمجتمع ألفا) فإن قيام زيد بالاعتذار من جرير هو دلالة ضعف.

كلمة أخيرة هنا في موضوع الهمز واللمز والمزاح تجاه الشخصية وثقافة الممسكة في العالم الإسلامي والعربي:

ضمن ملاحظات المؤلف ووجهة نظره فإن مجتمعات الشرق الأوسط قد كانت مصابة بآفة الهمز واللمز، وثقافة الممسكة، والمزاح تجاه الشخصية، والسخرية بصيغ المديح والتبجيل والتفخيم وحتى أواخر الثمانين من القرن العشرين. ولكن تغير الأمر وبشكل دراماتيكي في بدايات التسعين من القرن نفسه. والظاهر أن هذه الصفات في طور الاختفاء الآن عند الأجيال الناشئة على الأقل.

وأما الأسباب فهي أن العالم الإسلامي منذ بداية التسعين من القرن العشرين وحتى الآن (٢٠١١) وهو يتعرض لخضات عنيفة قد أبعدت عنه الرغبة في الدخول في مناكفات شخصية وأدخلته في مجال نهضة إسلامية وروحانية متصاعدة. فالانتفاضة التي حدثت في فلسطين، والمجازر التي حدثت للإسلاميين في الجزائر، وحرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ والتي كانت أول حدث في العصر الحديث جعل الناس من المحيط إلى المحيط ينظرون إلى أنفسهم أنهم مسلمين وأن مصيبة أولهم هي مصيبة لآخرهم، وصعود التيار الإسلامي في تركيا، وإنجازات حزب الله في لبنان، وكانت حرب الخليج الثالثة (٢٠٠٣) هي الفيصل بين ثقافة انتهت للعالم الإسلامي وثقافة جديدة له. وما حدث في موقعة الجمل في

ميدان التحرير في القاهرة في ٢٠١١ هو أفضل دليل أن الـذكاء الجمـاعي في العـالم الإسلامي قد بدأ ينمو ويتجذر في وجدان وفلسفات المسلمين.

٦ـ الأعمدة الثلاثة للنجاح

هناك ثلاثة أعمدة يراها المؤلف ضرورية للنهضة والنجاح الحقيقي لأي دولة:

١) نظام قيادة مؤسسية.

٢) ذكاء جماعي مرتفع.

٣) مهارات إدارية عالية.

يجب التنبيه أن هناك طبائع أخرى كثيرة وضرورية للنهضة والنجاح كالطموح والشجاعة وغيرها. ولكن الطموح والشجاعة هي صفات طبيعية وموجودة في معظم المجتمعات ويمكن شحذها وتقويتها بإرادة وتصميم من قادة الأمة. وأما الذكاء الجماعي فهي صفة غير طبيعية في المجتمع ونادرة في الحدوث ولا يمكن شراؤها، وإنما هي بذرة تُوضع وتُنمى ويُحافظ عليها. ولهذا تم خصها بالذكر والتنبيه.

وضمن وجهة نظر المؤلف فإن صفات الذكاء الجماعي هي الصفات الاساسية لنهضة أية أمة. وإذا كان عند القارئ شك في هذا الإدعاء فليقم القارئ باستعراض الدول والمجتمعات في الوقت الحاضر، وليقم القارئ بتقييم هذه المجتمعات من حيث سعة الصدر (طول البال) وحسن الاستماع والجدية. وسيجد القارئ أن جميع المجتمعات التي تمتلك قيمة مرتفعة في الصفات السابقة (مقارنة بجيرانها والعالم) فإن لها ثقل وقوة ورفعة وإسم عال. وأما المجتمعات التي تمتلك اثنتين من الصفات السابقة فإن رفعتها تعتمد على الظروف حولها.

وأما المجتمعات التي تمتلك صفة واحدة فقط أو لا تملك شيئا من هذه الصفات فسيجد القارئ أن الحياة في تلك المجتمعات لا تطاق.

وأما المهارات الإدارية فإنها ستأتي عاجلاً مع الذكاء الجماعي. إن المهارات الإدارية ليست صعبة، ويمكن شرائها وإحضارها ودراستها، ولكن وجود الذكاء الجماعي يجعل هذه المهارات تترسخ في الأجهزة الإدارية ، حيث إن حسن الاستماع وسعة الصدر والالتزام سوف يقدم بيئة آمنة ومريحة، لا لوم فيها ولا تجريح، تسمح بالتساؤل والنقاش والتدريب.

والمؤلف على اقتناع أن بذرة الذكاء الجماعي قد زرعها الإسلام فينا، فالعبادات والأخلاق الحميدة هي صفات تسمح بخلق الألفة والانسجام عند المسلمين. والتحدي الآن هو: كيف يمكن أن نوقظ تلك البذرة ونرعاها في صدورنا؟.

من المناسب الانتباه إلى الآيات الكريمة والأحاديث النبوية التالية:

قال الله تعالى:

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (٤٦) الأنفال.

﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(١٨) الزمر.

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (٣٥) فصلت.

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾(١٢٥) النحل.

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (١٥٩) آل عمران.

﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (١٨٦) آل عمران.

﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (١٧) لقمان.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ الشورى.

وقال رسول الله ﷺ:

قال نبي الله ﷺ لأشج عبد القيس إن فيك لخصلتين يحبهما الله الحلم والأناة. رواه مسلم في الإيمان.

عن عبد الله بن عمرو قال لم يكن رسول الله ﷺ فاحشا ولا متفحشا وإنه كان يقول إن خياركم أحاسنكم أخلاقا. رواه البخاري في الأدب.

أن رسول الله ﷺ قال ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب. رواه مالك في الموطأ .

٧ـ كيفية تقوية الذكاء الجماعي

هناك أسلوبان رئيسيان لتقوية الذكاء الجماعي:

١) تمارين وتدريبات الاسترخاء.

٢) التحكم في البرامج العقلية الإجبارية غير المرغوبة.

◄ تمارين وتدريبات الاسترخاء:

هناك نمط شبه ثابت لما يحدث لضيقي الصدر: فإذا أخطأ زيد في حق جرير فإن جريراً سيشعر وبشكل آلي دون انتباه بالتوتر، وغالباً ما يبدأ هذا الشعور بسخونة وضيق في الصدر. وتتضافر وتتسارع هذه الأحاسيس لتتحول لاحقاً إلى النفور والغضب أو الانتقاد والسخرية.

تمارين وتدريبات الاسترخاء تساعد على التحكم في هذه الأحاسيس وبالتالي إيقاف النمط قبل تسارعه.

الملاحظ أن الصلاة إذا أقيمت بحقها فإنها تساعد على الاسترخاء والهدوء. ولكن لا ضرر أبداً من معرفة الأساليب الأخرى للاسترخاء كالتأمل والتنويم الذاتي. وهذه التمارين منتشرة في كثير من الكتب كما يتم شرحها في الكثير من المراكز التدريبية.

◄ التحكم في البرامج العقلية الإجبارية غير المرغوبة:

البرامج العقلية هي جزء من فلسفة العقل الباطن. البرامج العقلية هي المشاعر التي تظهر عندك والسلوكيات التي تحدث منك وبشكل آلي ودون انتباه

أو قصد. مثال على ذلك هو قيادة السيارة فكثير من الناس من يقود سيارته وهو مستغرق تماماً في التفكير، ويقوم أثناء استغراقه في التفكير بالتوقف والتحرك والاتجاه يميناً أو يساراً وكل هذه الأمور قد قام بها وبشكل آلي. ولذا فيمكن القول إن لذلك الشخص برنامج عقلي متعلق بقيادة السيارة.

ميزة البرامج العقلية هي أنها تسمح للإنسان القيام بأعمال ذكية دون انتباه أو وعي، فضمن ملاحظات «البرمجة اللغوية العصبية» فإن وعي الإنسان لا يستطيع أن ينتبه لأكثر من سبعة أمور في آن معاً. في حين أن العقل الباطن يستطيع أن يستحث الكثير من البرامج العقلية في آن واحد.

تنقسم البرامج العقلية إلى قسمين: برامج إجبارية وبرامج اختيارية، وكلاهما ينقسمان إلى قسمين: مرغوبة وغير مرغوبة.

البرامج العقلية الإجبارية هي برامج من الصعب إيقافها أو التحكم في مسارها.

أما البرامج الاختيارية فهي البرامج التي يمكن إيقافها والتحكم في مسارها وتبديلها.

مثال للبرامج العقلية الإجبارية المرغوب فيها هي سرعة البديهة والتصرف عند الإحساس بالخطر. فعندما يشعر الإنسان بالخطر فإن الجسم وبشكل آلي يدفع بهرمونات التحفيز إلى جميع عضلات الجسم ويكون جاهزاً للتصرف.

أما الوسواس فهو مثال للبرامج العقلية الإجبارية غير المرغوب فيها. والوسواس هو أزمة سلوكية يقوم المرء فيها بتكرار عمل فوق حد اللزوم. مثال لهذه الأزمة: عد النقود، فالرجل ذو وسواس العد يقوم بِعَدِّ نقوده مرة ثم يشعر بالشك فيقوم بِعَدِّها مرة أخرى ثم أخرى ثم أخرى. هذا الشخص لا يستطيع أن يتوقف عن العد، وهو إن حاول مقاومة نفسه فإنه سيشعر بضيق شديد في الصدر

إلى الدرجة التي ستدفعه في النهاية إلى عد نقوده مرة أخرى. هذه الأزمة هي برنامج عقلي إجباري وغير مرغوب فيه. وهذا يشبه تماماً الرجل الذي يشتعل غضباً من خطأ صغير أو يكتئب من أي صد أو رفض بسيط.

والسؤال هنا هو كيف يمكن تحديد البرامج العقلية الإجبارية المرغوبة من البرامج العقلية غير المرغوبة فيها؟

عندما يشتعل الرجل غضباً من خطأ صغير ثم يندم على ذلك ثم يشتعل غضباً من خطأ صغير آخر ثم يندم على ذلك ثم يشتعل غضباً من خطأ آخر ثم يندم على ذلك، فغالب الظن أن هذا السلوك هو برنامج عقلي إجباري وغير مرغوب فيه. فالتكرار يدل على الجبرية والندم يدل على عدم الرغبة.

وهنا نأتي إلى سعة الصدر وحسن الاستماع، فإذا كنت تندم بعد ضيق الصدر، ولاحظت أن قوة الإرادة ليست كافية كي تحيط بهذه الصفة فهذا يدل أن الصفة عندك هو برامج عقلي إجباري، وأن ندمك يدل أنك توصلت إلى نتيجة واضحة وهي أن هذه الصفة غير مرغوبة فيها.

وبالطبع فإنه سيكون من المفيد جداً إن تم التوصل إلى طريقة تسمح بإلغاء البرامج الإجبارية غير المرغوب فيها أو تعديلها إلى برامج اختيارية.

والطريقة لإلغاء البرامج الإجبارية أو تحويلها إلى برامج اختيارية هي باستخدام تكنيكات البرمجة اللغوية العصبية. والبرمجة العصبية فيها الكثير من الفلسفات والتكنيكات بعضها ناجح والبعض الآخر مشكوك فيه ولكنها أثبتت في كثير من الحالات نجاحاً باهراً في إلغاء أو تعديل البرامج العقلية الإجبارية غير المرغوب فيها. هذه التكنيكات أصبحت متوفرة في كثير من الكتب وأصبح لها معاهد كثيرة في الوطن العربي ومن المفيد الإلمام بفلسفتها.

يجب التنبيه أن البرمجة العصبية أثبتت قدرتها على حل الكثير من المشاكل

ولكن هذا لا يعني أنها تستطيع حل كل مشكلة لكل شخص. ولكن تجربة البرمجة العصبية مفيدة فهي إن لم تنفع، لا تضر.

في الملحق الثالث التابع لهذه الكتاب يوجد مقدمة مختصرة عن البرمجة اللغوية العصبية.

٨ـ المهارات الإدارية وسعة الإدراك

ضمن فهم المؤلف فإن هناك ثلاثة أعمدة أساسية لنجاح الأمة أو المؤسسة، وهي قيادة مؤسسية، وذكاء جماعي، ومهارات إدارية.

وكما ذكر في الفصول السابقة فإن كان هناك نظام قيادة مؤسسية وذكاء جماعي مرتفع فإن المهارات الإدارية تصبح تحصيل حاصل عاجلاً أو آجلاً، إذ يمكن شراء هذه المهارات ودراستها وتعلمها وبالتالي ترسخها في المؤسسة. على أية حال فإن هذا الفصل يتحدث عن بعض نماذج التحليل والتي تساعد في توسعة الإدراك وبالتالي تقوية المهارات الإدارية وخصوصاً في البحث والتخطيط. النماذج التي سيتم نقاشها هنا هي: مواقع الإدراك الثلاثة، وعجلة الإدراك، والطبائع البشرية، ومناهج البحث والتحليل. والأخيرة سيكون لها فصل مستقل لأهميتها.

◄ مواقع الإدراك الثلاثة :

مواقع الإدراك الثلاثة هي إحدى النماذج الأساسية في البرمجة العصبية. في هذا النموذج تنقسم النظرة لموضوع البحث إلى ثلاث زوايا: نظرتك الشخصية، ونظرة الخصم، والنظرة الواقعية المجردة.

النظرة الأولى واضحة ولا تحتاج إلى شرح. أما في النظرة الثانية فالمطلوب هو أن تتقمص* الخصم وتحاول استشعار عواطفه واستحضار أفكاره، والهدف من

---

* هناك دلائل تفيد أن أسلوب التقمص كانت تستخدمه بعض المخابرات الأوروبية قديما للتنبؤ. فقد كان أحدهم يحاول تقمص قيادة الخصم وبكل ما عنده من معلومات عن هذه=

هذه الزاوية هو محاولة إدراك نظرة الخصم كما لو أننا هم وفي مكانهم. وأما الزاوية الثالثة فهي النظرة المجردة من عواطفك أو عواطف الخصم وكأنك في هذه الزاوية تأخذ مكان الذي يراقبك ويراقب خصمك. وميزة هذه الزاوية أنها تنبهك إلى أمور قد تكون غافلاً عنها.

إن أحد أسباب ضيق الصدر هو التوهم الخاطئ لنية ودوافع الآخرين. فإذا أخطأ زيد في حق جرير وبدأ جرير بالتوهم والتسرع في دوافع زيد فإنه من الطبيعي أن يصل جرير إلى حالة الضيق، ولهذا فإنه توجد علاقة واضحة بين ضعف الإدراك وضيق الصدر. إن هذا النموذج هو أحد النماذج الجيدة لتوسعة الإدراك.

تطبيق هذا النموذج ليس سهلاً في البداية ولكنه مثمر وفعال، وتكنيكات البرمجة اللغوية العصبية توفر أدوات جيدة تسهل ممارسة هذا النموذج.

◄ عجلة الإدراك:

ما من ديانة ظهرت على هذه الأرض إلا وتشققت إلى أطراف وأخذ كل طرف يشتم الآخر. ولم ينجو الإسلام من هذه الظاهرة، فكثير من الكتل الإسلامية تنادي بأن الإسلام هو الحل، ولكن كل كتلة تفهم الإسلام على طريقتها وتشتم الكتل الأخرى.

ولكن المؤلف يعلم أن الإسلام ليس كباقي الديانات وعليه فإن المؤلف على اقتناع أن الإسلام قد وضع خطوطاً تُساعد على الاجتماع وتُبعد شبح الشقاق. وأهم هذه الخطوط هو أن الإسلام وبكل وضوح قد أجاز الاختلاف في فهم الأحكام الشرعية، أو بمعنى أصح فإن الإسلام قد أجاز الاختلاف في الأمور

=القيادة. وكانت الفكرة أنه إذا استطاع أحدهم تقمص الثاني إلى الدرجة الكاملة فإنه قادر على التنبؤ بتفكيره وقراراته.

الظنية من الأحكام الإسلامية، يشهد على هـذا قـصة صـلاة الظهـر في غـزوة بنـي قريظة:

«قال عبد الله بن عمر: نادى فينا رسول الله ﷺ يوم انصرف عـن الأحـزاب أن لا يصلين أحد الظهر إلا في بني قريظة فتخوف ناس فوت الوقت فصلوا دون بنـي قريظة، وقال آخرون: لا نصلي إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ وإن فاتنا الوقـت فمـا عنف واحدا من الفريقين» رواه مسلم في الجهاد.

في المقابل فإن هناك أحكام لا تنفع النية الحسنة في الخطأ فيها:

«بعث النبي ﷺ سرية وأمر عليهم رجلا مـن الأنـصار وأمـرهم أن يطيعـوه فغضب عليهم وقال أليس قد أمر النبي ﷺ أن تطيعوني قالوا بلى قـال قـد عزمـت عليكم لما جمعتم حطبا وأوقدتم نارا ثم دخلتم فيها فجمعـوا حطبـا فأوقـدوا نـارا فلما هموا بالدخول فقام ينظر بعضهم إلى بعض قال بعضهم إنمـا تبعنـا النبـي ﷺ فرارا من النار أفندخلها فبينما هم كذلك إذ خمدت النار وسكن غضبه فذكر للنبي ﷺ فقال لو دخلوها ما خرجوا منها أبدا إنما الطاعة في المعـروف» رواه البخـاري في الأحكام.

وهناك في الإسلام أحكام بينـة ثابتـة مـستخرجة مـن أدلـة صـريحة (محكـم الأحكام) وهناك أحكام ظنية مستخرجة من أدلة ظنية، والوضع المثالي هو أن يتفق المسلمون على محكم الأحكام ويكون عندهم سعة الصدر الكافية كي يتفقوا عـلى الاختلاف في الأحكام الظنية حيث إن الاختلاف فيها جائز.

وهذا معناه: الاتفاق على الأساسيات والاتحـاد في الطريـق وسـعة الـصدر في الفرعيات.

أما واقع الاختلاف بين المسلمين، فأسبابه التالية:

١) كتلة ترى أن الأدلة الظنية التي بحوزتها هي أدلة صريحة ولذا فهي ترى أن رأيها هو من محكم الأحكام وبالتالي فتقوم بتأثيم الكتل الأخرى.
٢) كتلة ترى الأدلة الصريحة فتعتبرها ظنية وبالتالى يقوم الآخرون بتأثيمها.
٣) كتلتين يرى كلاهما أن أدلتهما ظنية ولكن ضيق الصدر وسوء الاستماع يمنعهما من التسامح بينهما واحترام كل منهما لرأي الآخر.
٤) كتلة تقوم بإلصاق الرأي بالأدلة الشرعية بعد هندسة هذه الأدلة وترتيبها وتشكيلها ليتفق رأيها مع المصلحة أو العرف أو العاطفة.

النوع الأول هو الغالب في الجماعات السلفية والنوع الأخير هو الغالب عند العلماء الواقفين على أبواب السلطان، والنوع الثالث هو النوع الغالب على باقي الأمة.

بالطبع فإن انتشار سعة الصدر وحسن الاستماع والجدية في الأمة فإن علماء الأمة سيتمكنون يوماً (إما رغبة أو حرجاً) من الجلوس معاً ويتناقشون خلافاتهم بأعصاب هادئة وبقواعد نقاش واضحة. وعلى الأغلب فإنهم سيتفقون على البينات الواضحات والتي ليس منها مهرب. ويؤدي هذا إلى بداية الوحدة الأساسية بين المسلمين وهي «اتحاد في الطريق وتعدد في النظرات الظنية».

كمحاولة لتسريع هذه الوحدة فإن النموذج التالي (عجلة الإدراك) قد يكون مناسباً لردم الخلاف، كما أنه وسيلة جيدة كذلك لاستدراك الأخطاء في الاجتهاد. هذا النموذج هو تطوير لنموذج «مواقع الإدراك الثلاثة» السابق ذكرها. وتنقسم هذه العجلة إلى خمسة زوايا وهي:

١) الرأي المتبنى، ٢) نظرة المشاعر، ٣) الإحاطة والتأصيل، ٤) نظرة الخصم، ٥) والنظرة العقلية المجردة.

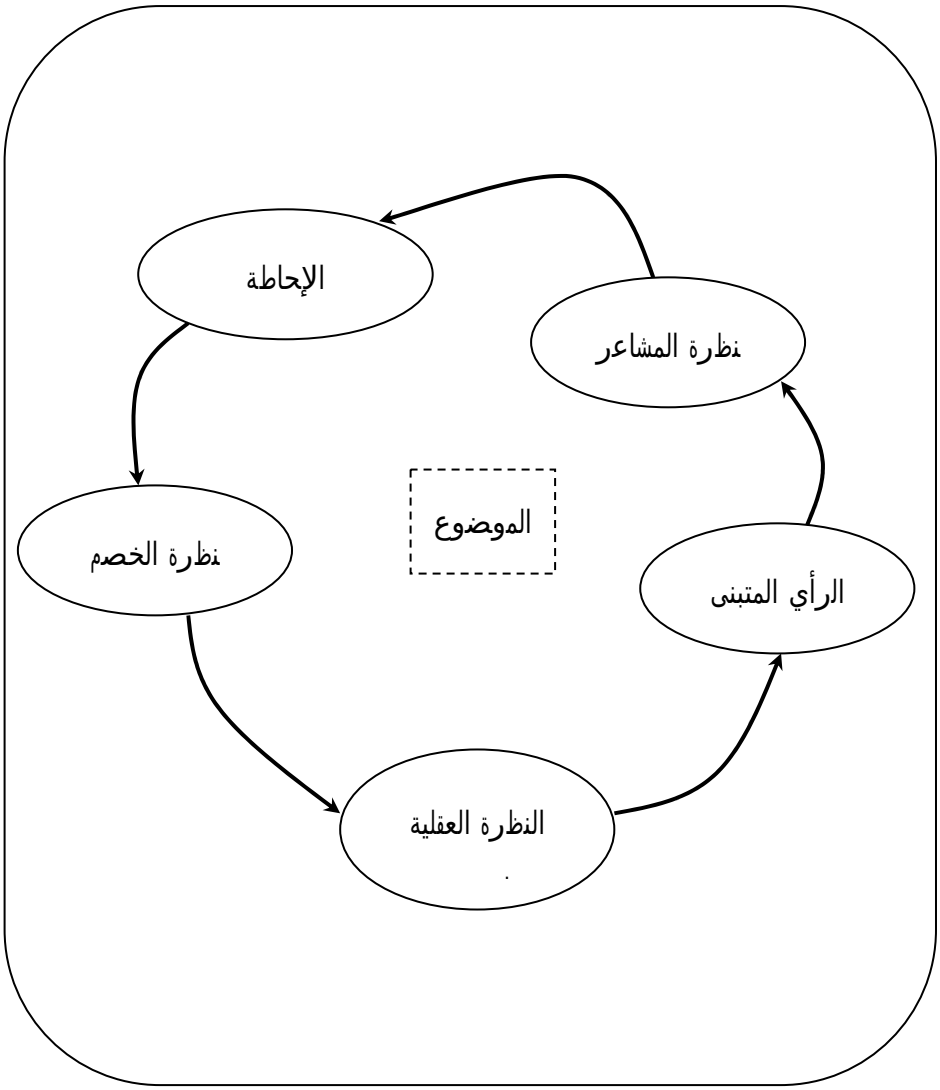
الإحاطة
نظرة المشاعر
الموضوع
نظرة الخصم
الرأي المتبنى
النظرة العقلية

الرأي المتبنى:

وهو الرأي الذي تحمله الآن عن حكم الإسلام في هذا الموضوع المطروح. وهذا الرأي قد يكون اجتهادا أو اتباعاً أو تقليداً. النقطة هنا أنه حتى وإن لم تكن مصدر هذا الرأي وأنك فقط قمت بالاتباع أو التقليد، فلأنك قد اقتنعت به فإنه أصبح كذلك رأيك.

نظرة المشاعر:

هذه الزاوية هي المشاعر التي يحملها صدرك تجاه الموضوع المطروح. وعند المبتدئين في هذا المجال فإن المشاعر تكون مختلطة ومتحدة بالرأي. نقطة الاحتراف تبدأ عندما تستطيع أن تفصل بين الرأي والمشاعر. مثال لذلك: افرض أن هناك رأي مستخرج بشكل صحيح من الأدلة الشرعية الظنية. الآن صحة الاستخراج لا تعني أبداً أن هذا الرأي صحيح وذلك لأن صحة الرأي تتطلب الفهم الصحيح للأدلة الشرعية، ولكن حيث إن الأدلة ظنية فإن الاختلاف فيها جائز. وحيث إن هذا الرأي هو الرأي الغالب في المجتمع فأنت بالطبع ملتزم به، ولكن ربما يكون صدرك غير مرتاح له لسبب أو لآخر. عدم الراحة في الصدر ستعطيك الطاقة لسهر الليالي والتهام الكتب لمعرفة فيما إذا كان الفهم للأدلة الشرعية السابقة صحيحاً أو خاطئاً.

قال رسول الله ﷺ: «يا واصبة، استفت قلبك واستفت نفسك، البر ما اطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك» رواه أحمد عن واصبة بن معبد.

النقطة الفصل هنا أن المشاعر لا تُعطي أبداً دليلاً على الصحة أو البطلان، وإنما تعطيك الطاقة الدافعة للبحث والتنقيب.

أحد الأمثلة التي يمكن وضعها هنا هو موضوع نظام إعادة الانتخاب لمنصب الخلافة، أي أن تكون بيعة الخليفة لأجل ثم يتم إعادة انتخاب الخليفة من الأمة أو ممثليها. فمنذ الخلافة الراشدة الأولى والأعراف المتبعة هو أن الخليفة يحكم حتى الموت، فكانت هذه النظرة هي الغالبة حتى الآن. ولم يكن صدر المؤلف مرتاحاً لهذه النظرة ولكنه لم يقم بالتخلي عنها حتى وجد الأدلة الشرعية والتي تؤكد أن البيعة للخليفة عقد تنطبق عليه أحكام العقود وأنه لا يوجد أي دليل واضح يحرم البيعة لأجل وإعادة الانتخاب (راجع كتاب «فلسفات الحكم والدستور» للمؤلف).

الأمر الآخر هنا أن الفراسة تحدث عندما تنفصل المشاعر عن العقل وتتعاضد قوتهما معاً. فعندما يحب الرجل الهاوي شيئاً فإن مشاعره ستمنع عقله من رؤية الأمور السيئة في ذلك الشيء، وإن كره شيئاً فإن مشاعره ستمنعه من رؤية محاسن ذلك الشيء. وعندما تنفصل نظرة المشاعر عن العقل فإن الذي سيحدث هو أن انتباه العقل سيكون في جهة وأن انتباه المشاعر ستكون في جهة أخرى وسيكون تعاضدهما مصدراً في قوة الإدراك.

الإحاطة والتأصيل:

الإحاطة والتأصيل هي أهم خطوات الاجتهاد.

الإحاطة هي معرفة آراء السابقين وأدلتهم في هذا الموضوع. وأهمية الإحاطة أنها الدليل الوحيد لعلم المجتهد بغض النظر إذا كان المجتهد مشهوراً أو مجهولاً. أي أن الإحاطة هي دليل على أن الرجل عالم بهذه المسألة على الأقل. وبغير الإحاطة فلا يوجد أي دليل على علم الرجل، فربما كان الرجل مشهوراً بالعلم ولكنه في هذه المسألة جاهل، وربما الرجل يكون مجهولاً ولكنه شديد العلم في هذه المسألة.

الإحاطة لا تعني أبداً وضع الآراء المشابهة لرأيك. الإحاطة هنا تعني معرفة مجمل الآراء المتشابهة والمختلفة والمتعارضة، وهنا تكون قد استطعت أن تحيط بكامل زوايا الموضوع.

كذلك فإن الإحاطة تعطيك ثلاثة أمور أخرى: أولها أنك لا تبدأ من الصفر وإنما تبدأ حيث انتهى الآخرون، وثانيها أن تلاطم الأفكار وتعارضها والتي تحصل عليها من الإحاطة ستعطيك مصدراً للانتباه والإبداع، وثالثها أنك حتى وإن لم تكن كقدرة ومهارة وعلم السابقين فإنك إما ستكون بمستواهم أو بمستوى أفضل منهم في الموضوع المطروح، وذلك لأن الرجل الذي يجلس على كتف العملاق فإنه إما سينظر بنفس مستوى نظر العملاق أو سينظر بمستوى أفضل منه.

أما التأصيل فهو إرجاع الرأي والأدلة إلى الأصول الشرعية. أي أن التأصيل يبحث فيما إذا كان الرأي قد تم استخراجه من الأدلة الشرعية باستخدام الأصول الشرعية الصحيحة، أم أن هذه الأدلة الشرعية قد تم ترتيبها وجبرها وهندستها ثم إلصاق الرأي عليها.

يجب التنبيه أن كثير من الخلافات الشرعية ناتجة عن اختلاف العلماء في القواعد الأصولية. ولإعطاء المثل فإن العلماء اختلفوا في النصوص الآمرة للفعل، فأحد المدارس الفقهية تقول أن الأصل في الأمر أنه للوجوب ما لم ترد قرينة تدل على حرفه إلى الاستحباب. أما المدرسة الثانية فتقول أن الأصل في الأمر هو للاستحباب ما لم ترد قرينة تدل على حرفه إلى الوجوب. مثال على ذلك هو قول رسول الله ﷺ «أحفوا الشوارب وأعفوا اللحى» (رواه مسلم في الطهارة)، فضمن المدرسة الأولى فإن اللحية واجبة وحلقها حرام، وفي المدرسة الثانية فإن اللحية مستحبة وحلقها غير حرام.

وعليه فعندما تقوم بعملية الإحاطة والتأصيل في الموضوع المطروح فأنت

على الأغلب في موضع ستُدرك فيه أسباب الخلافات وتُميز بواسطته بين الأحكام البينة الصريحة وبين الأحكام الظنية.

النظرة العقلية المجردة:

هناك ثلاثة أمور قد تكون متضافرة أو متنافرة في النظرة، وهم الحكم الشرعي والمشاعر والنظرة العقلية المجردة. أما إذا كانت متضافرة فيكون هناك انشراح في الصدر لفهم الحكم الشرعي وإن كان هناك تنافر فتكون المشاعر الدافع للبحث ويكون العقل مصدراً للانتباه. يجب الانتباه أن الحكم الشرعي هو الغالب في هذه الأمور وذلك لأن حق الله فوق مشاعر ونظرة الآخرين.

الحكم الشرعي هو خطاب الشارع المتعلق بأفعال العباد بالاقتضاء والتخيير والوضع. وتصنف الأحكام (مع أخذ الاعتبار لأحكام الوضع) إلى خمسة: الواجب والمستحب والمباح والمكروه والحرام.

والأحكام الشرعية بمجملها هي هدى ورحمة للناس لقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢ - الأعراف). ولكن الحكم الشرعي قد يحوى مشقة آنية ومنفعة آجلة كقوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢١٦-البقرة)، وقد تكون عقاباً كقول رسول الله ﷺ «إن أعظم المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته» (رواه البخاري في الاعتصام) وقد يمنع مصلحة فردية لتحقيق منفعة جماعية كقول رسول الله ﷺ «المسلمون شركاء في ثلاث الكلإ والماء والنار» (رواه أبو داود في البيوع). وهذه القدقدة (أي قد يكون كذا وقد يكون كذا) قد تستمر دون أن نحيط بجميعها.

النقطة هنا أنه دون وجود نص واضح يشرح الحكمة من الحكم فإن الحكم قد يكون لتحقيق منفعة آنية أو منفعة آجلة، أو يكون لمنع ضرر آني أو لمنع ضرر آجل، أو يكون لمنفعة فردية أو منفعة جماعية، أو يكون لمنفعة مادية أو منفعة معنوية، أو يكون عقاباً أو امتحانا، الخ.

وعليه فإن ربط المنفعة والضرر بحكم شرعي معين هو أمر غير ممكن، أي أنك لا تستطيع أن تجزم أن هذا الحكم الشرعي سيجلب المنفعة، أو سيمنع الضرر، أو أن المنفعة آنية، أو أن المنفعة آجلة، الخ.

لهذا السبب فإن الأحكام الشرعية بمجملها هي هدًى ورحمة للعالمين لقوله تعالى السابق ذكره، وأن الحكم الشرعي بمفرده هو تعبير عن إرادة الله لقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ (١) المائدة. وأنه لا يوجد هناك علاقة مباشرة بين حكم معين وبين المنفعة والمضرة إلاّ إذا ذكرها النص صراحة.

ضمن ما سبق فإن مجال العقل لا يتداخل أبداً مع مجال الحكم الشرعي، فإذا كانت نظرة العقل أن هذا الحكم فيه المضرة أو فيه المصلحة فإن هذه النظرة لا تتداخل مع الحكم الشرعي. فالحكم الشرعي يتعلق بالحلال والحرام بغض النظر إذا ظهر أن هذا الشيء مضر أو مفيد. بمعنى أنه إذا ظهر للعقل أن هذا الشيء مفيد وكان حكم الله له أنه حرام، فإن على المسلمين الاستسلام لإرادة الله، ونظرة العقل هنا لا تتداخل مع حكم الله ولا تؤثر في هذا الحكم.

مثال على ذلك فإنه الآن توجد أبحاث كثيرة تؤكد فائدة خمر العنب لصحة الإنسان وأن نصيحة هذه الأبحاث أنه من الجيد والصحي أخذ كوب من خمر العنب كل يوم.

ما هو شعورك لهذه الأبحاث؟ هل تشعر بالغضب وتريد القفز شاتماً هؤلاء

واصفاً إياهم بالسذاجة والغباء.

ولماذا ؟؟؟؟؟

إن حرمة الخمر ليست مرتبطة بالمنفعة أو المضرة وإنما هي حكم الله تعالى فيها. وإنه لو استطاعت النظريات العلمية أن تثبت ضرورة الخمر للإنسان فإن هذا لن يغير شيئاً وهو ضرورة الاستسلام لإرادة الله بتحريم الخمر. فالموضوع هنا في النهاية أن الله يحكم ما يريد.

هناك أمر آخر هنا: إن مسئولية المسلم في الأحكام الشرعية هي فهمها والالتزام بها ونشرها. ولكن لا توجد أي مسئولية لتبرير هذه الأحكام. والحكمة من هذه الأحكام هو أمر لله ويمكن أن تظهر بعضها ويمكن أن لا تظهر أبداً. وأما محاولة هندسة الواقع وجبر دلالاته لتكون تبريراً لأحكام الشرع، فليس هذا تصرف فيه تحري الصدق والدقة. فأن تحاول كل الجهد أن تثبت أن لحم الخنزير فيه كل الضرر هو أمر ليس فيه التحري للصدق، فأولاً إن الله قد حرمه ووصفه بالرجس ولكن لم يقل أن فيه المضرة، وثانياً فإن الأبحاث العلمية قد أثبتت بعض أضراره ولكنها أوضحت كذلك بعض فوائده، وإذا قمت بملاحظة الأنعام والحيوانات التي يؤكل لحمها فستجد لبعضها الكثير من الأضرار والفوائد. النقطة هنا أن الله قد حرم لحم الخنزير بالنص الصريح دون أن يذكر الحكمة، وعليه فبغض النظر إذا ثبت أن لحم الخنزير مضر أو مفيد فإن نظرة المسلم للحم الخنزير أنها حرام استسلاماً لإرادة الله. وعليه فإن قيام أبحاث علمية بإثبات مضار أو منافع لحم الخنزير لا يتعارض مع حكم الله ولا يتعارض مع الاستسلام لإرادته.

وضمن ما سبق فإن الأحكام الشرعية تتعلق بمعرفة حكم الله في أمر معين بقدر سعة فهمنا للأدلة الشرعية، وأن النظرة العقلية تتعلق بمعرفة المنفعة

والمضرة لهذا الأمر بسعة إدراكنا لأسرار الكون. وأن مجال النظرة العقلية لا يتداخل أبدا مع مجال الأحكام الشرعية.

إن الذي يحدث حقيقة أن نظرة العقل بوجود المضرة تدفع المشاعر لعدم الارتياح وهذا ليس تعارض حقيقي بين العقل والحكم الشرعي وإنما تعارض مجازي وذلك لتأثير العقل على المشاعر، أما في حقيقة الأمر فإن مجال العقل لا يتداخل أبدا مع مجال الأحكام الشرعية.

ولكن هناك أمر آخر يجب الانتباه له: إن الأحكام الشرعية ذات الأدلة الظنية يمكن أن يخطئ فيها الاجتهاد. ومن اجتهد فأخطأ فله أجر ومن اجتهد وأصاب فله أجران. ولكن الاجتهاد الخاطئ قد يجلب المضرة للمجتمع، وذلك لأن هذا الحكم ليس من وحي الله بل من صنع البشر.

قال عمر بن الخطاب لزياد بن حدير «هل تعرف ما يهدم الإسلام قال قلت لا قال يهدمه زلة العالم وجدال المنافق بالكتاب وحكم الأئمة المضلين». رواه الدارمي في المقدمة.

وهنا نأتي إلى بيت القصيد، فإذا كانت نظرة العقل أن هذا الحكم الشرعي فيه مضرة فإن هذا يكون تنبيهاً لنا أنه ربما كان فهمنا للأدلة الشرعية غير صحيح، وتكون النظرة العقلية والمشاعر المنبه لنا والدافع لدراسة الأدلة الشرعية بتفصيل أكبر.

وهذا معناه أن النظرة العقلية لا تضع حلالاً ولا تضع حراماً وإنما تقوم بالتنبيه وتدفع لدراسة الأدلة الشرعية. ومن هذه الدراسة فإما أن يظهر لنا أن فهمنا كان خاطئاً ونستدرك الخطأ أو أن فهمنا كان صحيحاً ونستسلم لإرادة الله تعالى.

وضمن ما سبق فإن خط الأحكام الشرعية وخط النظرة العقلية يمكنهما أن يسيرا بالتوازي. فكل منهما ينبه الآخر في ويدفعه للبحث والدراسة كل في مجاله.

وفي أي نظام ديناميكي متشابك فإنه يجب يحوي نظاماً داخلياً يسمح بتدارك الأخطاء، إذ بغير هذا النظام الداخلي فإن النظام العام سوف ينهار بتراكم الأخطاء عليه (راجع المنهج الديناميكي). وكان النظام الداخلي لتدارك الأخطاء عند بني إسرائيل هم الأنبياء، فلا يموت نبي إلا وظهر لهم نبي آخر. ولكن ما هو النظام الداخلي الخاص لتدارك أخطاء الاجتهاد عند المسلمين؟

ضمن فهم المؤلف فإن النظام الداخلي هو أن يتحرك خط الأحكام الشرعية بالتوازي مع خط النظرة العقلية دون تداخل بينهما، ويكون خط النظرة العقلية تنبيها لعلماء المسلمين وإثارة لمشاعرهم وأحاسيسهم لدراسة الأحكام الإسلامية مجدداً، ويكون خط الأحكام الشرعية تعبيراً لإرادة الله. قال رسول الله ﷺ «يا واصبة، استفت قلبك واستفت نفسك، البر ما اطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك» رواه أحمد عن واصبة ابن معبد.

نظرة الخصم:

نظرة الخصم هي نفسها المشروحة في نموذج «مواقع الإدراك». والمطلوب في هذه الزاوية هو معرفة الأسباب والمشاعر الحقيقية لنظرة الخصم، والهدف هو أن نظرة الخصم قد تنبهنا لأمور لم نكن ننتبه لها، كما أنها تعطينا إدراكاً لواقع وتفكير الخصم.

إن هذه العجلة ستعطي لك سعة الإدراك للموضوع المطروح. أما النتيجة من هذه العجلة هو أمر يعود إليك، فهل النتيجة تستحق البحث والسهر والدراسة أم أن هذا الجهد لا حاجة له. أياً كان اختيارك فيجب أن تنتبه تماماً أن حكم الله فوق

نظرات العقل أو الآخرين، أي أنك إذا بدأت تشعر بعدم الاطمئنان لحكم شرعي، فإن هذا الشعور ليس عذراً أبداً لقيامك بالخروج عنه. وإنما هذا الشعور يكون الدافع لك للسؤال والبحث والدراسة لاستوضاحه.

في هذه العجلة فأنت تستطيع أن تبدأ من أية زاوية ولكن الأفضل أن تقوم بعمل دورة كاملة والإحاطة بكل هذه الزوايا.

لنضرب المثل عن الزنا. وللاختصار فسوف يتم التركيز على نظرة الخصم والنظرة المجردة والرأي المتبنى، وذلك لأن حكم الزنا في الإسلام هو الحرمة الصريحة.

نظرة الخصم:

لنأخذ شخصاً غربياً وغير مسلم:

كثير من نظراتهم، رجالاً ونساءً، أنه إذا لم يكونوا قادرين على إشباع غريزتهم من أزواجهم فإنهم أمام أمرين: إما الطلاق، وهذا مكلف ومحطم للعائلة، وإما إقامة علاقات سرية. وبالتالي فهم ينظرون إلى العلاقات السرية أنها أخف الضررين. (هذه نظرة مختصرة وليست كاملة لنظرة الغرب للزنا).

النظرة العقلية:

إن هذه النظرة قد تكون دافعاً للنظر في ديناميكيات المجتمع الغربي. وباختصار فإن المجتمع الغربي ومنذ العهد الروماني يمنعون التعدد. وإن الغريزة الجنسية لهي أقوى الغرائز الدافعة عند البشر والقليل منهم من يستطيع التحكم بهيجانها، وأما الباقي فلا يستطيع إلا الغرق في طوفانها. فإذا حدثت المشاكل بين الأزواج فإن إشباع الغريزة سيتأثر. وإذا استمر هذا الحال فإنه سيؤدي إلى الكبت ثم الانفجار، إذ

لن يتوانى الناس ضعيفي المبادئ من النظر شراهةً إلى غير أزواجهم.

الطريقة التي استطاعت فيها ديناميكية المجتمع الغربي (ومنذ العهد الروماني) من عمل التوازن بين مبادئ الأمة وكبت الأفراد هو النظرة إلى الزنا والنظرة إلى الرذيلة. فنظرة المجتمع الغربي إلى الزنا والعلاقات السرية أنها مقبولة ما دامت سراً مصوناً، أما إذا انكشفت فهي عيب وضعف (وليست جريمة). وأما الرذيلة فهي مترسخة في ثقافة المجتمع الغربي ومنذ القدم، ومع أن قوانين المجتمع الغربي تمنع أعمال الرذيلة (إلا هولندا)، غير أنها موجودة تحت بصر الأنظمة الغربية وإرادتها، وهدف هذه الأنظمة أن لا تتسع دائرة الرذيلة خارج السيطرة. إن الرذيلة هي إحدى صمامات الأمان عند المجتمع الغربي لامتصاص الكبت في المجتمع، وبغيره فإنه سيؤدي بالمجتمع إلى الانفجار. طبعاً هناك أضرار ضخمة من انتشار الزنا والرذيلة في المجتمع الغربي، ولكن نظرة المجتمع الغربي هو أن منع الانفجار يأخذ الأولوية من منع تلك الأضرار.

يجب التنبيه أن المؤلف لا يدعي أبداً أن أفراد المجتمع الغربي كلهم أو معظمهم يقيمون علاقات سرية أو أنهم يمارسون الرذيلة. إن هذا الإدعاء لا يصح إلا بعد أدلة واضحة، والظاهر أنه غير صحيح. إن المؤلف لا يدعي ذلك، وإنما يقول إن هناك نسبة تمارس الرذيلة ونسبة أخرى تقيم علاقات سرية.

وعندما ننظر إلى ديناميكية المجتمع فإن اتزانها لا يتعلق بالمعظم من المجتمع بل يتعلق بالأجزاء المؤثرة فيه. أفضل مثال على ذلك هو الجريمة، فإذا فرضنا جدلاً أن هناك مدينة فيها عشرة آلاف نسمة وأن المعظم الغالب منهم متصفين بالصدق والأمانة، فإن مئة مجرم محترف قادرون أن يثيروا الرعب والهلع في قلوب هذه المدينة، ويؤدي هذا لاحقاً إلى الشك والنفور ثم الشقاق. وديناميكية المجتمع في حل هذه المشكلة هي إقامة مراكز للشرطة والذي قد يحتاج إلى ٣٠٠

رجل وظيفتهم أن ينشروا الأمان في مدينة قد لا يزيد مجرميها عن مئة رجل.

ضمن الإدراك السابق فلننظر إلى المجتمع الإسلامي الآن، فقد تلاحظ ما يلي:

١) نظرة المجتمع للزواج الآن هي نظرة أحادية، أي زوجة واحدة للرجل. ومع أن التعدد قد أحله الله بنص واضح إلا أن المجتمع الآن ينتقد التعدد وبحدة.

٢) حيث إن النظرة هي زوجة واحدة فقط في الحياة، فإنه من الطبيعي أن يبحث الرجال عن البكر من النساء. وهذا أدى في النهاية إلى انتقاد المجتمع (صراحة أو ضمناً) من التزوج من المطلقة أو الأرملة.

٣) هناك نظرة إلى الزواج أنها نظرة تملك أو نظرة استحواذ:

نظرة التملك هي نظرة الرجال إلى الزواج أنها أقرب إلى التملك منه إلى الصحبة. ويتم تبرير هذه النظرة من أن للرجال على النساء درجة. والسؤال هنا: هل هذه الدرجة أقرب إلى درجة السيد للعبد أم أنها أقرب إلى درجة الأخ الكبير للأخ الصغير، وهناك فرق كبير بين الدرجتين.

أما نظرة الاستحواذ فهي نظرة المرأة للزواج، فإن هناك بعض النساء من أخذت من تكاليف الطلاق وتبعاته ضماناً لها أن زوجها لن يتركها، فاستغلت هذا الظرف لمصلحتها وأصبحت تأخذ ما تريد بالضغط والنكد.

ولا يقول المؤلف إن غالب الزواج في المجتمع الآن هو نظرة تملك أو نظرة استحواذ، ولكن هناك نسبة كبيرة تأخذ هذه النظرة. وكما ذُكر سابقا فإن أي نسبة صغيرة في المجتمع تصل إلى حد التأثير فإنها إذا اضطربت فإنها تؤدي إلى اضطراب المجتمع بأسره.

٤) ارتفاع تكاليف الزواج إلى حد كبير لا معنى له. ولهذا الارتفاع أسباب منها رغبة التقليد وحب الظهور، ومنها رغبة الأهل لضمان مستقبل ابنتهم إن تجرأ الزوج في المستقبل على طلاقها.

الرأي المتبنى:

إن نظرة الإسلام للزنا والرذيلة هي الحرمة الصريحة وعقوبتها هي الجلد أو الموت رجماً. ولكن المؤلف على اقتناع أن الإسلام قد وضع نظاماً يسمح باستقرار المجتمع من هيجان الكبت الغريزي. وضمن ما أدركه المؤلف من النظرة العقلية المجردة فإنه قد انتبه أن الإسلام قد وضع ثلاثة أعمدة رئيسية تضمن استقرار المجتمع، وللأسف فإن هذه الأعمدة كلها منتقدة الآن في المجتمع:

١) تحليل الإسلام للتعدد دون انتقاد أو تنقيص.

٢) تحليل الطلاق دون انتقاد أو تنقيص.

٣) حق الخلع دون إعاقة أو انتقاد أو تنقيص.

التعدد:

هناك نظرة في الفقه وهي أن الأصل في الزواج هو التعدد وأن الاستثناء هو الواحدة، وذلك لقول الله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴾ (٣-النساء). وكثير من الناس من يدعي أن الإنسان لا يمكنه أن يعدل، ولكن الاستثناء هنا لم يعتمد على نظرة الناس للفرد، وإنما اعتمد على نظرة ذلك الفرد لنفسه، ويوجد كثير من الرجال من لا يخاف أن لا يعدل، ولكنه يخاف الناس.

إن التعدد هو الوسيلة الشرعية المباشرة والوحيدة (بعد أن تم إلغاء الرق) والتي يمكن فيها للمجتمع من امتصاص الكبت الغريزي للرجال. كما أنه الوسيلة الشرعية الوحيدة غير المباشرة والتي يمكن فيها للمجتمع من امتصاص الكبت الغريزي للنساء.

أما الرجال فهو أمر واضح لا يحتاج لتبيان. أما النساء فإنه إذا خلعت المرأة زوجها أو تم طلاقها أو مات عنها زوجها، وكانت هناك نظرة متسامحة من المجتمع للتعدد، فإن طلب الرجال للنساء سيزيد، للجميلات منهن والأقل حظاً. وهذا سيعيدنا إلى العصور الأولى عندما كانت المرأة تخلع زوجها أو يتم طلاقها أو مات عنها زوجها فإن الرجال كانوا ينتظرون انتهاء عدتها لطلبها. ومن يقرأ قصص العرب يجد الكثير من الطرائف لتنافس الرجال على طلب النساء.

الطلاق:

إن سهولة الطلاق والخلع هما الضمانتان الوحيدتان لجعل العلاقة الزوجية هي علاقة صحبة وليست علاقة تملك أو علاقة استحواذ. وهما الوحيدتان اللتان تجعلا المشقة في الزواج تحملاً وصبراً وليس جبراً وكرهاً. وإن أضيق الظروف على الإنسان عندما يجد نفسه في طريق هو مرغم عليه كرهاً وجبراً، ولربما إذا اختار لأخذ نفس الطريق، فالظرف الأول هو الجبر والإكراه، والظرف الثاني هو الصبر والتحمل.

يقول الكثير إن الطلاق ظلم للمرأة وظلم للأولاد، ولو كان ظلماً ما أحله الله في كتابه. وقد حدث طلاق بين الصحابة والصحابيات وقد حدث خلع بين الصحابيات والصحابة ولم يأت أحد لهم وقال إن هذا ظلم وأن ذلك ظلم. أما ما يحدث الآن في المجتمع الآن فإن نظرة الناس إلى وحدانية الزواج جعلت الكثير يبحث عن البكر من النساء خوفاً من شماتة الناس، فأصبحت المطلقات كبضاعة لا سوق لها. ويَهْمِزُ ويَلْمِزُ المجتمع من الزواج منهن وكأنهم يقولون: لم يجد بضاعة غير هذه. لم يكن الطلاق ظلماً ولكن الناس ظلموا، وكانوا بهمزهم ولمزهم وسخريتهم لعنة للجميع. أتريد خيراً جليلاً وعملاً عظيماً؟ هي أن تصد

بحزم وشدة الهامزين اللامزين الساخرين في وجوههم علناً أمام الملأ. وبغير هـذا فسيبقى الهمز واللمز والسخرية حاجزاً لعيناً يمنع المجتمع من العلا.

الخلع:

إن حق الخلع للنساء موجود في كتب الفقه ومـشروح فيهـا وبكـل التفـصيل. ولكنه لم تكن هناك حاجة لعمل آلية لهذا الحق حيث إن حـق الخلـع للنـساء كـان معمولاً به قبل الإسلام وبعده. وكان يكفي في العصر الأول أن تُبدي المرأة الرغبة بالخلع فيقر القضاء هذه الرغبة مقابل أن ترد المرأة مهرها للـزوج. وربمـا يكـون هناك جدال في ما يجب على المرأة أن ترده فيكون الفيصل هنا هـو القـضاء. أي أن القضاء لا يحكم في حق المرأة في الخلع وإنما يقر هذا الخلع، ويكـون الحكـم في المال الذي يجب على المرأة أن ترده.

ولكن مع الزمن فقد أصبح الخلع بيد القضاء. أي تحول حق الخلـع مـن يـد المرأة إلى يد القضاء، فإذا شاء القضاء أقر الخلع وإلا فإنه يرفض الخلع.

كما ذكرنا سابقاً، فإن الطلاق والخلع هما الضمانتان الوحيدتان لجعل العلاقة الزوجية علاقة صحبة. وحيث إن الإسلام أعطى حكم الخلـع للنـساء فيجـب أن يرجع هذا الحق إليهن. ويبدو في نظر المؤلف أنه من الأفـضل عمـل آليـة في عقـد الزواج تسمح بالخلع دون الرجوع للقضاء. ويكون القـضاء في المـال الـذي عـلى المرأة إرجاعه للرجل.

كاقتراح لهذه الآلية هو أنه عندما تُصرح المرأة بالرغبة في خلـع زوجهـا فإنهـا تذهب لبيت أهلها لمدة أربعين يوماً. وأثناء هذه المدة يقوم رجل من أهلها ورجل من أهله بمحاولة الإصلاح بينهما. فإذا انقضت مدة الأربعين يوماً وكانـت مـصرة على الخلع فعندها يكون لها حق تطليق نفسها دون رجعـة إلا بإذنهـا. والـسبب في

اختيار مدة الأربعين يوماً في هذا الاقتراح هو أن عدة المرأة عند موت زوجها هي أربعة أشهر وعشرة أيام، وعدة المرأة عند الطلاق هي ثلاثة أشهر بالتقريب، والفرق بينهما هو الأربعون يوماً. ويكون حكم القضاء في المال الذي يجب على المرأة أن ترجعه لزوجها. وتوضع هذه الآلية شرطاً في عقد الزواج فيكون عندها ملزماً دون الرجوع للقضاء.

وهناك أمر آخر جدير بالانتباه:

هناك نظرة عامة تقول أن الأصل في الزواج هو تكوين العائلة. ولا يعلم المؤلف أية عقوبة يضعها الإسلام لمن يؤخر إنجاب الأطفال، ولكنه يعلم يقيناً أن حكم الإسلام في إشباع الغريزة بالزنا هي الجلد أو الموت رجماً.

لقد صرح الإسلام بطريقتين شرعيتين لإشباع الغريزة وهي امتلاك الإماء والزواج. فأما الإماء فقد وصلت البشرية، والحمد لله، إلى اتفاق شامل على منع الرق، وبالتالي فإن الطريقة الإسلامية الوحيدة والمتوفرة لإشباع الغريزة هي الزواج. ولهذا السبب فإن غلبة الظن عند المؤلف أن الأصل في الزواج هو إشباع الغريزة.

بالطبع فإن تكوين العائلة لا يكون بغير الزواج وهو أمر مهم، ولكن هذا الأمر يأتي في المرتبة الثانية والثانوية بالنسبة للمرتبة الأولى، وذلك لأن عدم إنجاب الأطفال ليس جريمة ولكن إشباع الغريزة بالزنا هي الجريمة.

وقد يظن البعض أن الفرق ضئيل بين الاثنين ولكن الحق غير هذا، فإن من ينظر في وجدانه أن الأصل في الزواج هو تكوين العائلة فإنه سينظر إلى زواج المسيار نظرة الكراهية والاحتقار دون التأكد من حلها أو حرمتها. أما من ينظر في وجدانه إلى أن الأصل في الزواج هو إشباع الغريزة فإنه سينظر إلى زواج المسيار على أنه أمر جدير بالدراسة والتمحيص.

وكذلك فإن الأصل الأول هو أحد أسباب ارتفاع تكاليف الزواج حيث إن البيت وضرورياته يجب أن تكون متوفرة كلها قبل ليلة الزفاف، إذ إن هذه هي ضروريات تكوين العائلة. في حين أن الأصل الثاني لا ينظر إلى هذا الموضوع بنفس الحساسية.

إن استمرار النظر في أن الأصل في الزواج هو إشباع الغريزة سيفتح أبواباً وسيضع أفكاراً تتحطم فيها الكثير من الأعراف والتقاليد الوضعية في المجتمع. وأعلم أن الكثير سينزعج من هذه الأفكار، ولكن طريقة تفكير المؤلف هي في غاية الوضوح، فهو يرى ضرورة الالتزام بالفرض والانتهاء من الحرام أما ما بينهما فهو من الجائز الذي يقع تحت بحث الإمكانية والفائدة والعواقب. وأما الأعراف والتقاليد الوضعية فهي لم تنبثق عن الإسلام وإنما وضعها آباؤنا لمصلحة وجدوها، فإن كان هناك مصلحة لاستبدال هذه الأعراف فليس لهذه الأعراف أية قدسية، وهذا هو بالضبط المقصود بالنظرة العملية. فإذا كانت هذه الأفكار الجديدة جائزة في الإسلام فإن النظرة تنتقل هنا إلى عالم الإمكانية والفوائد والعواقب، وهنا يتم البحث عن الفوائد التي يمكن أن يجنيها المجتمع بالمقارنة مع المشاكل التي يمكن أن يتعرض لها. فإذا أظهر البحث أن الفوائد تفوق في قيمتها المشاكل، كان هذا بداية لبحث الموضوع وبصورة أكثر جدية. أما إذا ظهر أن المشاكل تفوق الفوائد، فإن هذه الفكرة يتم إهمالها.

إن الأعمدة السابق ذكرها (التعدد والطلاق والخلع) لم يتم استخراجها من النظرة العقلية وإنما تم استخراجها من الإسلام. ولكن النظرة العقلية هي التي قامت بالتنبيه ودفعت للدراسة. فلهذا السبب فإن للأعمدة الثلاثة مصدران للقوة أولهما وأهمهما هو أنها أحكام شرعية أساسية، وحيث إنها مهملة فيجب إحياؤها، والمصدر الثاني هو انتباه العقل لضرورتها لاتزان المجتمع.

الآن لنضرب المثل في التعارض المجازي بين العقل والحكم الـشرعي. فـإذا جاء أحد الغربيين وسأل: لماذا يـسمح الإسـلام بالتعـدد للرجـال ولا يـسمح بـه للنساء.

وقد يظهر للغـربيين عامـة ولـبعض المـسلمين الجـدد مـنهم أن هـذا الأمـر يتعارض مع النظرات العقليـة، ولكـن هـذا الأمـر في غايـة الوضـوح في الأحكـام الشرعية، فالإسلام وبنصوص واضحة قـد سـمح للرجـال بالتعـدد ومنعهـا عـن النساء، ولهذا فعند التعارض المجازي بين العقل والحكم الـشرعي فـإن حـق الله فوق نظرة الجميع.

وقد يستطيع البعض أن يقدم بعض الحكمة عن هذا الحكم الـشرعي، ولكـن المؤلف يدرك تماماً أن الخصم قادر على دحض هذه الحكمات لأنها عقليـة، فـإن أخبره الرجل كيف أن الأسد له بضعة إناث وليس العكس، فإن الخصم قادر عـلى الإتيان بكثير من الأمثلة من مملكة الحيوان والتي يكون فيها تعدد الذكور.

وفي آخر المطاف فليست مسئولية المسلمين أن يبرروا الحكم الشرعي، وإنما مسئوليتهم أن يفهموا الحكم الشرعي ويلتزموا به وينشروه. أما التبرير فهو أمـر لله يظهره متى شاء، وقد نستطيع أن نـدرك شـيئاً مـن الحكمـة ولكـن بالتأكيـد لـيس الحكمة كلها.

وكما أن التبرير ليس من مسئولية البشر فإنه كذلك لـيس مـن صـفات تحـري الصدق والدقة. فقيام البعض بهندسة الوقائع وترتيبها وجبرها كي يستطيعون تبرير الحكم الشرعي ليس صدقاً ولا دقة.

إن الطريقة المثلى للرد على ذلك الـسؤال وأشـباهه هـو أن نظـرة الخـصم قـد تكون نظرة عقلية واضحة وقد تكون هذه النظرة متفهمة، ولكن هذا الأمر له حكم

واضح في الإسلام، ولهذا السبب فعلى المسلم الاستسلام لحكم الله . فإذا استمر الآخر في الجدل فإن الأفضل هو نقل النقاش إلى إثبات وجود الله وإثبات صحة الرسالة المحمدية، وذلك لأن استسلام المسلم لحكم الله كان بسبب ثبات وجود الله وثبات صحة الرسالة عند المسلم.

هذه هي النقطة في هذا الموضوع. إن حكم الله فوق نظرة الجميع، ولكن يجب على النظرة العقلية أن تسير بالتوازي مع خط الأحكام لأنها النظام الوحيد الذي قد ينبهنا إلى الخطأ في الاجتهاد.

◄ الطبائع البشرية:

اختلاف وجهات النظر بين الناس مردها الرئيسي هو اختلاف الطبائع بينهم. ففي الموضوع الذي يتطلب المخاطرة فإن نظرة الشخص الحذر تكون سلبية، أما الشخص المتهور فتكون نظرته إيجابية. وكل منهما سيقدم التبريرات والأفكار التي تثبت وجهة نظره، وليست هذه التبريرات والأفكار السبب في اختلاف وجهات النظر، وإنما السبب هو اختلاف الطبائع، فلكل واحد طبيعته التي حرفت تفكيره لاتجاهها.

إن اختلاف الطبائع قوة للفريق، وهذا إذا استطاع كل منهم أن يدرك طبائعه وطبائع الآخرين، وذلك لأن اختلاف الطبائع في الفريق معناه أن لكل واحد منهم زاوية مختلفة في النظر إلى الموضوع، وفي هذه الحالة فيمكن للفريق ككل أن ينظر نظرة محيطة وكاملة للموضوع. المشكلة في اختلاف الطبائع أنه إذا لم ينتبه أفراد الفريق لاختلاف طبائعهم فإن الشقاق سيظهر عليهم ويسقط الفريق.

بالإضافة لما سبق فإن معرفة الشخص لحقيقة طبائعه تجعله قادراً على الانتباه لنقاط قوته ونقاط ضعفه، مما يساعده على تطوير مهاراته. كذلك فإن إدراك

الإدارة للطبائع البشرية المختلفة تجعلها قادرة على معرفة الطبائع والمهارات اللازمة توفرها في الوظائف المختلفة، فالشخص المتردد لا يصلح أن يكون قائداً، والشخص اللين لا يصلح لإدارة الأزمات، والشخص الصلب الشديد لا يصلح لتحقيق الألفة بين المتنازعين، إلخ.

كل ما سبق يدلل على الأهمية الكبيرة لمعرفة وإدراك الطبائع البشرية المختلفة.

وهناك الكثير من النماذج التي تقوم بشرح ودراسة الطبائع البشرية بشكل عام أهمها:

١) Myers-Briggs Personality Type Indicator

٢) Meta Programs in NLP

٣) Disk Profiling

وهناك الكثير من النماذج السلوكية الخاصة والتي تتعلق بجزئية من السلوكيات الإدارية (كالتصرف تحت ضغط التوتر، والتصرف ضمن إطار الجماعة، إلخ) وكثير منها متوفر في الكتب وصفحات الانترنت.

وليس من السهولة اختصار العلوم المتعلقة بالطبائع البشرية في سطور قليلة ولهذا فإن المؤلف اختار شرح طبيعة واحدة عند الإنسان (وهي أساليب التفكير) وذلك لعلاقتها بموضوع هذا الكتاب. وإذا أردت المزيد في هذا الموضوع فعليك بالكتب أو الانترنت (ضع في مولدات البحث النماذج السابق ذكرها)، أو أن تقوم بأخذ دورة تدريبية فيها.

◘ أساليب التفكير:

هناك ثلاثة أساليب في التفكير (أو إذا شئت ثلاثة أساليب في اتخاذ القرار):

١) الأسلوب الرقمي (ترجمة غير حرفية لـEither/Or Thinking):

وهو الاختيار بين أمرين، فهو إما هذا وإما ذاك. وهذا هو أسلوب الحزم والقطع فهو إما الأبيض وإما الأسود، إما يميناً وإما يساراً، إما واحداً وإما صفراً. وهذا هو سبب تسمية هذا الأسلوب بالأسلوب الرقمي، وهذا الأسلوب هو الغالب عند الأشخاص ذوي الطبيعة الجدلية.

٢) أسلوب التوازن (ترجمة غير حرفية لـMore/Less Thinking):

وهذا الأسلوب يعمل على التوازن بين الاختيارات، فهو يختار بعض من هذا وبعض من ذاك. وهذا الأسلوب هو الغالب عند استخدام المنهج العلمي في البحث والتحليل.

٣) أسلوب التوازي (ترجمة غير حرفية لـBoth /And Thinking):

وهذا الأسلوب هو البحث عن طريقة مبتكرة لأخذ حسنات الاختيار الأول دون سيئاته وحسنات الثاني دون سيئاته، وبالتالي يسير الأمرين المتناقضين بالتوازي. وهذا هو الأسلوب الغالب عند استخدام المنهج الاستراتيجي في التحليل. وهو الأسلوب الذي تم شرحه في موضوع التفكير ذو الخطوط المتوازية.

(المرجع: Phil Hanford، ١٩٩٥).

❁❁❁

٩ـ المناهج في البحث والتحليل

مناهج التحليل هي القواعد والخطوات التي تقوم بها عند قيامك بالبحث والتحليل. وهناك أربعة مناهج رئيسية للبحث والتحليل: المنهج الفلسفي، والمنهج العلمي، والمنهج الديناميكي، والمنهج الاستراتيجي. وكل هذه المناهج تعتمد على قاعدة أساسية وهي الفطرة الطبيعية عند الإنسان للربط والاستنتاج (الذكاء البديهي).

◄ الذكاء البديهي:

هناك أمران يستطيع الإنسان القيام بهما ببديهة وذكاء:

١) الانتباه للحدث والقدرة على استنتاج أسبابه واتخاذ القرار السريع والبديهي بخصوصه.

٢) الانتباه للعمل والقدرة على استنتاج نتائجه واتخاذ القرار السريع والبديهي بخصوصه.

والمقصود هنا باتخاذ القرار السريع والبديهي أنه لم يكن هناك جهد في التفكير والتحليل وإنما تم القرار لحظياً. وهذه المهارة هي التي تمكن الإنسان من قيادة السيارة ببديهة دون انتباه وتمكن من القيام بخطوات وعمليات ذكية وبديهية أثناء اللعب (كلعبة التنس).

والسؤال الآن هو الكيفية التي يقوم بها الإنسان بعملية الاستنتاج؟

ويمكن بحث هذا الموضوع من أكثر من فلسفة ولكن هذا سيفتح باب النقاشات والخلافات لأن جميع هذه الفلسفات نظرية ولم تصل العلوم العصبية إلى الدرجة الكافية لتحديد الكيفية الحقيقية التي يقوم فيها الإنسان بالاستنتاج.

ومن أجل الاختصار فإن المؤلف لن يتعمق بالتعاريف الفلسفية المختلفة وإنما سيقوم بالدخول رأساً إلى الافتراض. وهذا الافتراض يعتمد على الملاحظات وليس له أدلة علمية:

«يعتمد الذكاء البديهي عند الإنسان على قوة انتباهه، ووفرة بديهياته، وقوة استرجاعه لهذه البديهيات».

هذه الفرضية هي تعديل لفلسفة تقي الدين النبهاني عن التفكير وسرعة البديهة. فالعقل والتفكير عنده هو: نقل الواقع إلى الدماغ مع معلومات سابقة تفسر هذا الواقع، وسرعة البديهة عنده هي قوة الانتباه وقوة الربط.

والبديهيات هي افتراضات أخذها الإنسان مأخذ التصديق. والمصدر الأول للبديهيات هو ملاحظة النمط السائد في مجموعة من الأحداث السابقة فيقوم الإنسان بتعميم النمط وتحويله إلى بديهة. مثال ذلك هو ملاحظة أن الكوب يسقط على الأرض إذا تُركت، والكرة تسقط على الأرض إذا تُركت، فكانت البديهة هي أن الأشياء تسقط إذا تُركت. ومثال آخر فعندما يتعرف شخص على رجل من دولة فلانية ويراه سيئاً، ثم يتعرف على آخر ويراه سيئاً فإنه قد تظهر له بديهية وهي أن الفلانيين سيئون.

وقوة الانتباه في الفرضية السابقة لا تعني الانتباه إلى الأحداث، وإنما تعني الانتباه إلى الأنماط السائدة في مجموعة من الأحداث، وهذا الانتباه هو الذي يزيد من وفرة البديهيات في العقل.

النقطة هنا أن الذكاء البديهي لا يعتمد كثيراً على استرجاع الأحداث السابقة وإنما على البديهيات التي نشأت عنده من هذه الأحداث السابقة. فربط الحدث الحالي بالأحداث السابقة لا يخلق استنتاجاً وإنما يسترجع أحاسيس. ولكن الاستنتاج يحتاج إلى ربط الحدث الحالي بالبديهيات المتوفرة.

وعملية استخراج البديهيات من الأحداث هي كذلك عملية بديهية لا وعي فيها، أي أن هذه العملية ليس فيها تفكير. وإذا استخدمنا فلسفة العقل الواعي والعقل الباطن فإن استخراج البديهية من الأحداث تكون في العقل الباطن، وإنما انتباه الرجل يكون على الأحداث. أما إذا انتبه الرجل إلى عملية استخراج البديهيات فنكون قد خرجنا من الذكاء البديهي ودخلنا إلى المنهج الفلسفي.

لنضرب المثال:

يتعلم اثنان لعبة تنس الطاولة (أو أية لعبة أخرى) ويتقنها أحدهم بسرعة ولا يتقنها الآخر، وإذا قمت بسؤال الأول كيف استطاع إتقان اللعبة بهذه السرعة فربما لا يستطيع أن يجيبك. الغالب أن الأول قد استطاع أن يستخرج البديهيات المتعلقة بهذه اللعبة وبسرعة ودون وعي.

أما شدة الانتباه فتعتمد على أمرين: انتباه العقل الواعي للأحداث، والمهارات التي يمتلكها الشخص.

والمهارات بدورها تنقسم إلى قسمين:

١) المهارات الأساسية والتي ولد بها الشخص.

وتعتمد هذه المهارات على التوزيع الكيميائي والجيني عند المولود. وعندما يولد الشخص فقد تجده مرحاً أو نكداً، نشيطاً أو كسولاً، الخ. وهذه الاختلافات ترتبط بالتوزيع الكيميائي والجيني للمولود. والشخص الذي يولد بمهارات يدوية قوية فإنه سيكون أكثر قدرة على الانتباه على الأحداث والأنماط التي تتعلق باليدويات، وأما الشخص الذي يولد بمهارات قوية في اللغة والكلام فإنه سيكون أكثر قدرة من غيره على الانتباه إلى اللغة والأنماط فيها.

٢) المهارات المكتسبة والتي استطاع الشخص تعلمها بالملاحظة والتفكير والتدريب والمتابعة والمراس.

بمعنى آخر فإن الذكاء البديهي عند الإنسان هي عملية تعاظمية، فيولد الإنسان بمهارات مختلفة بعضها قوي، وبعضها وسط، وبعضها ضعيف. ثم يبدأ بالانتباه إلى الأحداث والأنماط واستخراج البديهيات، ثم تزداد مهاراته، فيزداد انتباهه إلى الأحداث فتزداد بديهياته فتزداد مهاراته وهكذا. وتزداد هذه العملية

تعاظماً عندما يستعمل الإنسان التفكير في استخراج البديهيات وتطوير المهارات.

إن القوة في الذكاء البديهي هو القدرة على اتخاذ القرار والتصرف السريع دون الحاجة إلى التفكير، ولكن المشكلة أنه لا يوجد ضمان أن البديهيات المعتمدة صحيحة، وهنا كانت الحاجة لاستخدام مناهج في البحث والتحليل لمراجعة هذه البديهيات وتعديلها. بمعنى آخر فإن الذكاء البديهي يتحرك بالتوازي مع مناهج البحث والتحليل، فبالخط الأول يتم الانتباه ويتم سرعة اتخاذ القرار لاستغلال فرصة سانحة، ويكون الخط الثاني ضماناً لاستدراك خطأ البديهيات وتصحيحها.

◄ المنهج الفلسفي في البحث والتحليل:

المنهج الفلسفي هو أول مناهج التفكير. والتفكير هو عملية عقلية ينتج عنها فكر جديد. بمعنى آخر أنها العملية التي يتم فيها ربط فكر مع فكر آخر لإنتاج فكر جديد. والربط في هذه الحالة هو ربط لغوي وليس بديهي، أي أنه يتم التعبير عن الأحداث والبديهيات بتعابير لغوية ثم يتم ربط هذه التعابير والأفكار بعضها ببعض باستخدام المعاني والألفاظ. ولهذا قال الأولون عن التفكير إنه حديث النفس للنفس. وقد ترى بعض الأشخاص عندما يفكرون بمشاكلهم وكأنهم يسألون السؤال ويجاوبونه، وهذا يُسمى: التفكير بصوت مرتفع.

ما الفرق بين البديهية والفكر؟

البديهية قد يستنتجها الإنسان دون وعي، أما الفكر فلا بد أن تخرج بعبارات واضحة. فالبديهية إذا تم التعبير عنها أصبحت فكراً. أفضل مثال على ذلك هي المهارات. فمهارة الشطرنج ومهارة لعبة التنس تتطلب بديهيات كثيرة، ولكن إذا سئلت الشخص عن هذه البديهيات فإنه بالكاد يستطيع أن يعرف بعضها. ولكن عندما يقوم المحترف بلعبة الشطرنج بتأليف كتاب عن مهارات هذه اللعبة فإنه يقوم بالتعبير عن بديهياته. وبالتالي فهو يقوم بتحويل بديهياته إلى أفكار. وعندما يقرؤها المبتدأ ويتمرن على هذه الأفكار فإنه يقوم بتحويلها إلى بديهيات عنده. أي أنه يقوم بالمراس بتحويل الأفكار إلى بديهيات.

الآن..... العمليات العقلية في الاستنتاج تقوم بخلط التفكير والذكاء البديهي بعضه ببعض، بمعنى أن الأفكار قد يتم استنتاجها من أفكار أخرى وبديهيات. والمشكلة في هذا الأمر أن الأفكار إذا تم إيضاحها فيمكن البت فيها إذا كانت معقولة أم لا، أما البديهية فمن الصعب أبداً البت فيها إذا بقيت خفية. كمثال على ذلك القول إن زيداً من الدولة الفلانية، وحيث إن الشعب الفلاني بخيل، إذاً زيد

بخيل. هذا الاستنتاج (زيد بخيل) هو فكر تم بناؤه على حدث (زيد من الدولة الفلانية) وفكر (الشعب الفلاني بخيل). وهذا الفكر (الشعب الفلاني بخيل) بنيت على بديهة مخفية.

ولحل هذه المشكلة بدأ الإغريق بوضع أساسات للتفكير سموها الفلسفة. وضمن هذه الأساسات فإن المنهج الفلسفي يتضمن ما يلي:

١) الملاحظة الدقيقة.

٢) وضع الفرضية.

٣) التقييم.

وهدف التقييم هو التأكد من صحة الأفكار وصحة الربط وإظهار أي بديهيات قد تكون مخفية وقد تكون أثرت على عمليات الربط، فإذا ظهرت هناك بديهيات مخفية فلا بد من التحقق من صحتها. وضمن التقييم للمثال السابق فإن السؤال سيكون: كيف حكمت أنت أن الشعب الفلاني بخيل. وعليه فإن المنهج الفلسفي أسلوب جيد لمتابعة وتعديل البديهيات التي يفترضها الإنسان ويأخذها مأخذ الصدق.

القوة الحقيقية الثانية للفلسفة أنها لا تبحث بالضرورة عن ماهية الأحداث وإنما عن علاقة الأحداث بمحيطها. مثال ذلك هو العقل الواعي والعقل الباطن. فالنظرة إلى سلوك الإنسان أظهرت أن الإنسان له تصرفات واعية وله كذلك سلوكيات آلية وغير واعية كقيادة السيارة والذهن منشغل بأمر معين. فكان أن وضعوا مصطلح العقل الواعي والعقل الباطن. هذا المصطلح لا يعبر بالضرورة عن الحقيقة وإنما يعبر عن علاقة معينة بين الإنسان ومحيطه. هذه الفلسفة نجحت بالتنبؤ بكثير من سلوكيات الإنسان كما ساعدت على ابتكار تكنيكات كان لها الأثر الجيد في حل بعضاً من المشاكل السلوكية.

مثال آخر هو الإبر الصينية، فالصينيون يقولون بمسارات الطاقة في الإنسان. ولكن هل هذا حقيقي؟

على الأغلب أنه ليس كذلك، ولكن هذه الفلسفة نجحت بجمع النقاط المتشابهة والتنبؤ ببعض النقاط الأخرى واستطاعت تقديم تكنيكات مفيدة ساعدت على علاج الكثير من الأوجاع. فمسارات الطاقة ليست بالضرورة صحيحة ولكنها مفيدة.

ومثال آخر وهو في حل المسألة التالية: إذا كان هناك قطاران أحدهما يسير بسرعة ٨٠ كم/ الساعة والآخر يواجهه ويسير بسرعة ١٠٠ كم/ الساعة. وكان بينهما ٩٠ كم. كم من الوقت يلزم لكي يتقابل القطاران.

لتسهيل المسألة السابقة فإن الحل الكلاسيكي يقول بتثبيت أحد القطارين ووضع سرعته في القطار الثاني، فنقول أن القطار الأول ثابت والقطار الثاني يسير بسرعة ١٨٠ كم/ الساعة. ثم يكون الحل هو أن القطارين سيتقابلان بعد نصف ساعة. إن هذا النموذج (وهو تثبيت أحد القطارات وإضافة سرعته للقطار الثاني) هو نموذج ليس صحيحاً ولا يعبر عن الواقع، وإنما هو نموذج مكافئ للواقع، ولسهولته فهو نموذج مفيد. ومن يدرس الفيزياء فسيجد الكثير من النماذج الرياضية غير الحقيقية، كالأعداد المركبة وتحويلات لابلاس، ولكنها نماذج مكافئة ومفيدة.

ضمن ما سبق فالفلسفة ليست بالضرورة صحيحة ولا خاطئة، إنما هي بحث مفيد إذا ساعد على التنبؤ والتحكم بالأحداث.

على أية حال فإن للفلسفة ثلاثة جوانب ضعف:

١) من الصعب على الألفاظ والعبارات أن تصف الأحداث بمنتهى الكمال

والدقة، مثال ذلك قولك أن هذه الطاولة من خشب، والخشب يحترق، ولهذا فإن هذه الطاولة قابلة للاحتراق. هذه عبارة واضحة ولكنها قد تكون خاطئة تماماً إذا ظهر أن الطاولة تمت معالجتها كيميائياً لتقاوم الاحتراق.

٢) قد لا يكون الربط بين الأفكار ربطاً حقيقياً (أي ربط للمعنى واللفظ معاً) وإنما عمليات لصق. وبهذه الحالة فإنه يتم لصق عبارة بعبارة أخرى للخروج بعبارة جديدة. مثال ذلك قولك أن اليهود هم أكثر الناس تقديساً لأسلافهم، إذاً الحركة السلفية أصلها يهودي. أو أن فلان قد عاش في أمريكا، إذاً فلان عميل للمخابرات الأمريكية. أو أن فلان لا يصلي سنة الظهر، إذاً فلان يخالف سنة الرسول ﷺ. وكل هذه العبارات خاطئة والربط فيها غير حقيقي وإنما هي عمليات إلصاق.

٣) ليس بالضرورة أن يكون الربط قطعياً، بل هو ظني وقد يكون خاطئاً. مثال ذلك هو أن زيداً أخو جرير، وجريراً أخو سعيد، إذاً زيد أخو سعيد. الربط هنا قد يكون خاطئاً إذا كان زيد أخا جرير لأبيه، وجرير أخو سعيد لأمه. ومثال آخر: إذا زنى المحصن فرجمه واجب، فإذا لم يزني فرجمه غير واجب. طبعاً هذه الربط خاطئ تماماً.

وحيث إن الخطأ ممكن في الفلسفة فإن استنتاجات الفلسفة يجب أن تقع ضمن الاحتمالات وغلبة الظن. وهنا يكمن الخطر الأكبر في المنهج الفلسفي:

إن أكبر أعداء الفلسفة هو الجدل وصناعة الكلام. إن الأسلوب الطبيعي في الاستدلال هو ربط الأفكار ربطاً مباشراً وبسيطاً وواضحاً، وفي هذه الحالة فإنه إذا كان هناك خطأ في الاستدلال فسيتم الانتباه له بسرعة. أما إذا تم استخدام فنون الكلام فإن لفنون الكلام القدرة على خداع الشخص والمستمع على حد سواء.

المشكلة في الطبيعة الجدلية أنها تقوم بتحويل الفلسفة من نعمة إلى ضرر، وذلك لأن الطبيعة الجدلية لا تؤمن بالاحتمالات ولا تعترف باللون الرمادي ولا ترضى بأقل من الإفحام، فهو إما هذا وإما ذلك، إما صحيح وإما خطأ، إما أسود وإما أبيض. والذي حدث عند الإغريق أن المنهج الفلسفي قد ارتبط بالطبيعة الجدلية، فنتج عن ذلك الأسلوب المنطقي في البرهان (علم الكلام وفنونه). ولم يكن الأسلوب المنطقي أسلوباً في الاستدلال، وإنما أسلوباً في البرهان. والمشكلة أنك لا تستطيع أن تبرهن الأفكار المتعلقة بأحداث المجتمع لأن هذه الأحداث في غاية التعقيد ولا يمكن الإحاطة بها تماماً في عبارات لغوية، وبالتالي لم يكن ممكناً القيام بربط قطعي في الأفكار المتعلقة بالإنسان والمجتمع. والموضوع الوحيد الذي نجح فيه الأسلوب المنطقي هو الرياضيات وذلك لأن الرياضيات تعتمد على أفكار بديهية قليلة، وبالتالي كان الربط فيها واضحاً ومباشراً اعتمادا على تلك الأفكار البديهية.

◘ المنهج الشرعي في استخراج الأحكام الشرعية:

من المناسب هنا التنبيه للتشابه بين المنهج الفلسفي والمنهج الشرعي. فالمنهج الشرعي يتعلق بمعرفة حكم الإسلام في حدث أو واقعة معينة. وضمن المنهج الشرعي فهناك أحكام وقواعد أصولية صريحة نتجت عن أدلة واضحة صريحة، وهناك أحكام وقواعد أصولية ظنية نتجت عن أدلة ظنية مختلف في تفسيرها.

والطريقة التي يتم بها استخراج الحكم الشرعي هو فهم الواقعة من جميع جوانبها ثم استخراج الحكم الشرعي من الأدلة المتعلقة بهذه الواقعة باستخدام

القواعد الأصولية. والقواعد الأصولية للأدلة الشرعية تشبه تماماً القواعد النحوية للغة العربية. فالأصول الشرعية هي القواعد التي يمكن فيها فهم النصوص كما يمكن فيها التوفيق بين النصوص التي قد تبدو متعارضة.

ولكن هناك صفة في الإسلام عظيمة الفائدة من جهة ولكنها مزعجة من جهة أخرى، وهي أن الإسلام سهل ممتنع. أما أنه سهل فإنه إذا جاء العالِمُ ووضع اجتهاده الشرعي في واقعة وذكر أدلته فإنه من السهل للمستمعين أن يتابعوه وأن يفهموه، ومن السهل لهم أيضاً أن يميزوا إذا كان هذا الاجتهاد جاداً أم أنه تملقاً للسلطان. أما أنه ممتنع فهو أن جمع الأدلة واستخراج الحكم منها ليس بالعمل السهل.

الفائدة العظيمة من هذه الصفة هي صعوبة علماء السلطان من التحكم في أفهام الناس (قد يستطيعون لوقت بسيط، ولكن إذا جاء علماء الحق إلى الناس فمن السهل على الناس التمييز). أما الصفة المزعجة والتي دامت منذ أواخر القرن الأول إلى الآن وهي أن كل من أراد أن يدلي بدلوه في الاجتهاد، عالماً أو جاهلاً، حضر. وكان الجدل في الأحكام الشرعية ومنذ ذلك العصر إلى الآن رياضة عقلية ومصارعة كلامية. وفي هذه المصارعة فإن النصر فيها ليس بالضرورة للأعلم، وإنما للمتحدث الماهر في فنون البلاغة. وقد اشتهر قول ينسب للشافعي (ما معناه): ما جادلت عالماً إلا أفحمته ولا جاهلاً إلا أفحمني.

يجب التنبيه أن النقاش في الأحكام الشرعية مفيد وذلك لأنه أسلوب عملي في نشر العلم بين الأكثر علماً إلى الأقل علماً. المشكلة هي عندما يتحول النقاش إلى مصارعة جدلية.

لقد ساعد ابتكار المنهج العلمي على التخفيف من حدة الجدل في العلوم الطبيعية، ولكن هذا المنهج يقوم على عمل الاختبارات، وهذا غير متحقق في

الاجتهادات الشرعية. ولكن من الاستئناس بالمنهج العلمي والمنهج الفلسفي يمكن الخروج بخطوات واضحة للمنهج الشرعي في البحث تساعد على الحد من المصارعة الجدلية:

١) ملاحظة الواقعة من جميع جوانبها.

٢) الإحاطة والتأصيل.

٣) وضع الاجتهاد.

٤) التقييم.

النقطة الرئيسية والتي ستساعد على الحد من المصارعة الجدلية هي الإحاطة والتأصيل. والإحاطة هي معرفة اجتهادات السابقين في المسألة المطروحة وأدلتهم. وليس المقصود هو الآراء المشابهة لرأي الشخص، وإنما لمجمل الآراء وعلى الأخص الآراء المخالفة. وأما التأصيل فهو إدراك للقواعد الأصولية والتي استخدمها أولئك السابقون لفهم الأدلة الشرعية.

أهمية الإحاطة أنها دليل العلم في المسألة المطروحة، وبالتالي فلا يهم إذا كان الشخص معروفاً أو مغموراً ما دامت عنده الإحاطة بهذه المسألة وبأصولها. وبالتالي فبمجرد إحاطة الرجل بهذه المسألة فإنه على الأقل يكون عالماً فيها.

إن هذا لن يمنع المصارعة وإنما إذا حدثت المصارعة فإنها ستكون بين عالم وعالم وليس بين جاهل وعالم وليس بين جاهل وجاهل.

أما التقييم فهو تقديم الأسباب والأدلة والتي تجعل الاجتهاد الجديد أفضل من السابق وتوضيح الطريقة التي قام بها المجتهد بالتوفيق بين الأدلة.

يجب الانتباه أن عدم وجود الإحاطة والتأصيل لا يمنع النقاش، وإنما سيمنع فرض الفكر والمصارعة. فمثلاً إذا تناقش زيد مع جرير وبدأ جرير بمحاولة فرض فكره فإن زيداً قادر أن يكون حازماً مع جرير بأنه إما أن يقوم بالإحاطة والتأصيل

للمسألة وإما أن يقوم بعرض أفكاره دون فرضها. أما المصارعة دون الإحاطة فهذا مرفوض.

◘ السيطرة على الجدل:

كما تم بحثه فإن بذرة الانهيار للمنهج الفلسفي هو الجدل، إذ إن المنهج الفلسفي يعتمد على الاحتمالات وغلبة الظنون والقدرة على استدراك أخطاء الاستدلال عند ظهورها. أما الطبيعة الجدلية فهي لا تؤمن بالاحتمالات فهو إما كذا أو كذا، إما أبيض أو أسود، إما صحيح أو خطأ.

إن نظرة المؤلف أنه يجب أن تكون هناك مرونة في الأفكار وحزماً في الطريق، بمعنى أنه إذا غلب على الظن أن هذا هو الطريق الصحيح فإن الحزم هو إتباعه، ولكنك لا تمنع الناس من النظر في غيره. وهذه هي الفكرة: نظرات مختلفة للأمور ولكن إتحاد في الطريق. وبالطبع فلكي تنجح هذه الفكرة فلا بد للمجتمع من التحلي بذكاء جماعي مرتفع.

ومرونة الأفكار تتطلب الابتعاد عن الجدل. وتعريف الجدل عند المؤلف هو: محاولة إفحام الآخرين بالآراء الظنية. وبالطبع فلا يمكن الإفحام في الآراء الظنية إلاّ باستخدام البلاغة وعلم الكلام.

من المناسب الإلمام بدوافع الجدل وأسباب اشتعاله.

هناك دافعين للجدل: فرض الفكر، والدفاع عن الفكر. بمعنى أنه عندما يتناقش زيد مع جرير وبدأ جرير بفرض فكرته على زيد كأن يقول: إن من يفعل هذا الشيء فهو آثم، أو أن يقول إن من الغباء الاقتناع بهذه الفكرة، فإن عزة النفس تدفع زيداً وبشكل لا إرادي للتوتر والدفاع عن آرائه، وحيث إن السكوت قد يتم النظر إليه أنه هزيمة فالنتيجة في النهاية هي جدال في جدال وتكون الغلبة هنا للذي

يفوق الآخر في البلاغة وصناعة الكلام.

إن التاريخ يثبت أن الإنسان يبدي مقاومة عنيفة جداً عندما يحاول الآخرون فرض أفكارهم عليه، ويبدي نفس الإنسان مقاومة أقل عندما يحاول الآخرون أن يفرضوا أنظمتهم. بمعنى آخر أن فرض الأنظمة على الناس أسهل بكثير من فرض الأفكار عليهم. وهذه النقطة التي وضعها الإسلام للمسلمين عند غزوهم، وهي أن لا يفرضوا الإسلام على الآخرين، وكان هذا أحد الأسباب التي سهلت دخول المسلمين لأطراف الأرض. وهذه النقطة قد انتبه لها الإنجليز، فلم يتدخلوا أبداً في موضوع الديانة أو اللغة أو التراث في مستعمراتهم، وإنما كانت لعبتهم بالأنظمة. فلم يحاولوا أبداً إلغاء المساجد في مستعمراتهم ولم يحاولوا أبداً منع الصلاة، ولكنهم كانوا يسمحون بالمساجد والصلاة ويضعون في الجهة الأخرى من المدينة الخمارات، ويشجعون الناس بسياساتهم الابتعاد عن العبادات. ولكن لم يحدث أن وقعت هناك مواجهة متعلقة بفرض الفكر أو منع الفكر، على النقيض تماماً من الفرنسيين. ومن يقرأ التاريخ يجد أن الفرنسيين قد خرجوا من مستعمراتهم بالرصاص، وأن الإنجليز خرجوا من مستعمراتهم بهدوء بعد أن تركوا فيها نفوذا لهم.

النقطة المهمة هنا أن الإنسان، لغريزة في نفسه، لا يمكنه الوقوف جامداً أمام من يفرض عليه فكراً. والمقصود هنا بفرض الفكر هو الانتقاد والتشنيع لمن يحمل أو لا يحمل هذا الفكر. فكلام جرير أن من الغباء الاقتناع بهذه الفكرة، فإن النتيجة هي أن جريراً، وبشكل غير مباشر، وربما غير مقصود، يتهم زيداً بالغباء. وهنا تأتي عزة النفس ويأتي الدفاع عن الفكر.

دوافع فرض الفكر ثلاثة: أولها أن يكون الشخص ذاتي النظرة، وهي عندما

يظن جرير (وبشكل غير واعٍ) أنه مركز العالم. وعليه فعندما يقتنع جرير بأمر فإن هذا الأمر بالنسبة لجرير ليس متعلقاً بجرير وحده وإنما بالعالم. بمعنى آخر، أن ما يقتنع به جرير (وبشكل غير واعٍ) إنما هي قناعات العالم. وعليه فعندما يرى جرير شخصاً لا يحمل نفس القناعات فإن التوتر يبدأ عند جرير ويبدأ التحفز لإقناع الآخر.

وثاني الدوافع لفرض الفكر هو المصلحة، وذلك عندما يريد الشخص دفع الآخرين لمصلحة له أو لمصلحة لهم. فبدلاً من أن يسألهم المسير في ذلك الاتجاه، فإنه يقوم بمحاولة إقناعهم أن المسير في هذا الاتجاه هو الحق والواجب وهو العمل الذكي وغيره هو العمل الغبي. فيكون فرض الفكر هنا ليس بالضرورة لقناعة بها وإنما لجلب مصلحة أو دفع مضرة.

وثالث الدوافع هو أن يقوم الشخص بالجدل لهواً وتسلية، إذ تشبه ساحة الجدال بساحات المبارزة. ولهذا فالجدال عند بعض الناس رياضة عقلية تدفعها المتعة.

الطريقة الممكنة للسيطرة على الجدل هي استخدام العبارات والألفاظ التي تبعد شبهة فرض الأفكار. هذه الألفاظ والعبارات هي التي يمكن أن يتم بواسطتها شرح ومناقشة الأفكار وإظهار الاختلاف والتعارض بعيداً عن شبهة فرض الفكر.

وتتحدد هذه الألفاظ والعبارات بالأعمدة الثلاثة التالية: المسئولية، والاحتمالات، وتحري الصدق.

المسئولية:

وهو أن تحدد المسئولية في الحديث. فقولك أن حكم الإسلام في كذا هو كذا، فإن هذا يعطي شبهة فرض الرأي، ولهذا فقد تحث هذه العبارة الجدل،

حيث إنها قد توحي أن من يخالف هذا الحكم فهو خارج عن الإسلام. والأولى أن تحدد المسئولية بهذه العبارة فتقول: فهمي عن حكم الإسلام في كذا هو كذا. أو ضمن وجهة نظر فلان فإن حكم الإسلام في كذا هو كذا.

إن تحديد المسئولية في الحديث قد تطيل العبارة كلمة أو كلمتين ولكنها قد تبعد الجدل أميال كثيرة.

الاحتمالات:

إن الربط الفلسفي في أغلب الأحيان هو ربط ظني، كما أن التعبير عن الأحداث قد لا يكون مطابقاً تماماً (راجع المنهج الفلسفي)، وعليه فإن استنتاجات المنهج الفلسفي يغلب علها غلبة الظن، والأفضل أن تظهر هذه الغلبة في العبارة، فقولك:

الخشب يحترق إذا تعرض للشرار، وهذا اللوح من خشب، فإذاً اللوح يحترق إذا تعرض للشرار. هي تعبير لا تظهر فيه غلبة الظن، وقد يكون هذا اللوح معالج بطريقة تجعله مقاوم للاحتراق. الأفضل أن تقول:

الخشب يحترق إذا تعرض للشرار، وهذا اللوح من خشب، فأغلب الظن أن اللوح يحترق إذا تعرض للشرار.

تحري الصدق:

إن قولك: «جميع الناس يقولون في كذا إنه كذا» هي العبارة تفتقر إلى الصدق، فهل حقاً جميع الناس قالوا كذا، وهل استطعت أن تتأكد من جميع الناس قبل أن تستشهد منهم. إن هذا الأسلوب هو أكثر الأساليب مدعاة للجدل والصراع، وذلك لأنه عندما لا يستطيع الشخص أن يقدم الدليل فإنه يقوم بتقوية موقفه بقوله

أن كل الناس يشهدون معـه. والأولى والأصـدق والأدق أن يكـون هنـاك تحـري للدقة خصوصاً عندما يكون الأمر متعلق بالنقاش وليس متعلقاً بالدردشة.

مثال آخر: العلماء قالوا عن هذا الحكم إنه كذا. هل حقاً قال كل العلماء هذا، هل استطعت أن تسأل جميع العلماء الحاضرين وتتأكد من العلماء الأسـبقين أنهـم كلهم قالوا كذا.

إن الأعمدة الثلاثة: المسئولية والاحتمالات وتحري الصدق لن تمنع الجدل ولكنها ستخفف منه إلى حد كبير.

◄ المنهج العلمي في البحث والتحليل:

المنهج العلمي قد تم وضعه بجهود متضافرة من جاليليو (Galileo Galilei) وديكارت (Rene Descartes) في أوائل القرن السابع عشر. وكان الهدف من هذا المنهج هو إيجاد طريقة تسمح بالتحقق من الفرضية بعيداً عن البلاغة وصناعة الكلام وزخرف الألفاظ وبعيداً عن العاطفة والتوهم والخيال. فكان المنهج العلمي في حقيقته منهجاً فلسفياً زائداً اختبار.

والاختبار هنا هو أي اختبار موضوعي ذو مقاييس واضحة تسمح بالتحقق من الفرضية المطروحة بعيداً عن البلاغة وصناعة الكلام والعاطفة.

خطوات المنهج العلمي:

١) الملاحظة والإحاطة.

٢) وضع الفرضية.

٣) الاختبار.

٤) التقييم.

الإحاطة هنا هي بالضبط كما تم ذكره في الموضوع السابق وإنما لأهداف إضافية. فالإحاطة هي معرفة آراء السابقين في الموضوع المطروح. والإحاطة هنا هي دليل العلم في هذا الموضوع المطروح، فقد يكون الشخص عالماً مشهوراً ولكنه في هذا الموضوع جاهل، وقد يكون الشخص مغموراً ولكن في هذا الموضوع عليم. وبالتالي فإن الإحاطة تُخرج البحث من الإطار الشخصي للباحث، وتصبح هي ذاتها دليل علم الشخص في الموضوع المطروح. النقطة الإضافية أن الإحاطة ستضمن أن الشخص سيبدأ من حيث انتهى الآخرون، لأنه إن لم يفعل هذا فلربما يكرر ما سبقه به الآخرون.

يجب التنبيه أن الإحاطة ليست خطوة في التعريف العام للمنهج العلمي،

ولكن الإحاطة خطوة رئيسية وأساسية في الأعراف العلمية. فلا يمكن قبول أي دراسة علمية أو ورقة أكاديمية في جامعة أو مجلة علمية إن لم يكن فيها فصل عن الأدب السابق (literature review). ولأهمية الإحاطة ولأساسيتها في الأعراف العلمية فقد فضل المؤلف وضعها هنا كخطوة أساسية في المنهج العلمي.

كما تم ذكره فإن الهدف من المنهج العلمي هو إضفاء الموضوعية في الأبحاث العلمية. ولكن يجب الانتباه أن المنهج العلمي لا يضمن الموضوعية وإنما سيزيد نسبة الموضوعية في الأبحاث العلمية بشكل كبير. إن هذا شبيه بوجود الشرطة في المدينة، فوجودهم لا يضمن عدم حدوث الجريمة، وإنما وجودهم يزيد نسبة الشعور بالأمان ويُنقص نسبة الجرائم بشكل كبير. وكذلك المنهج العلمي فهو يزيد نسبة الموضوعية في الأبحاث.

انتبه هنا ..... كما أن المنهج العلمي لا يضمن الموضوعية في الأبحاث العلمية وإنما يقوم على زيادة نسبتها، فإن المنهج العلمي كذلك لا يضمن على الإطلاق صحة النتيجة العلمية. بمعنى أنه ربما يكون هناك بحثا قد استوفى جميع متطلبات المنهج العلمي ولكن نكتشف في النهاية أن نتيجة البحث كانت خاطئة تماما. وكذلك ربما يكون هناك بحث قد استوفى جميع متطلبات المنهج العلمي ولكن نتيجة هذا البحث تتعارض مع أبحاث علمية معتبرة أخرى.

والمنهج العلمي في الحقيقة هو طريقة عرض بالدرجة الأولى ثم طريقة تحليل بمعنى أن الرجل قد ينتبه إلى نظرية جاءت إليه في الأحلام (على سبيل المثال). ويبدأ الرجل وبهمة عالية التحقق والتأكد لما انتبه له. وعندما يتمكن من وضع القرائن الكافية المؤيدة لهذه النظرية فإنه يقوم بعرضها على المجتمع العلمي. وهذه هي النقطة هنا: بغض النظر عن الطريقة التي انتبه فيها الرجل لهذه النظرية أول مرة فإنه ملزم بالقيام بعرض أبحاثه على المجتمع العلمي باستخدام المنهج العلمي. وفي هذا

المنهج فإن الرجل ملتزم بتوضيح نظريته، وآراء السابقين المتعلقة في موضوع هذه النظرية، وكذلك هو ملزم بتوضيح الكيفية التي جمع فيها المعلومات والمعطيات المتعلقة بالنظرية، ونسبة الصحة والخطأ في هذه المعطيات، وملزم بتوضيح التجارب التي قام بها لتأييد نظريته ونسبة الصحة والخطأ فيها.

ولهذا السبب فإن المنهج العلمي هو منهج يحاول قدر الإمكان رفع نسبة الموضوعية في طريقة جمع المعلومات وفي طريقة عمل الاختبارات ووضع مصداقية عالية لصاحب النظرية، أي وضع مصداقية عالية أن صاحب النظرية هو ذو اطلاع عميق على أبحاث وآراء السابقين في موضوع النظرية.

وأما النتيجة العلمية فهي بشكل خاص متعلقة بصحة المعلومات وكفايتها وصحة الاختبارات وشمولها. ولهذا السبب فمن الممكن أن تكون هناك نظرية علمية قد استوفت كافة متطلبات المنهج العلمي ولكن المعلومات الأولية لم تكن صحيحة تماما أو أن الاختبارات لم تكن شاملة تماما، وعليه فإن النتيجة العلمية قد لا تكون صحيحة تماما.

وهذا هو السبب في القول إن المنهج العلمي في الأساس هو طريقة عرض وتعبير. ولكن مع التمرس في هذا المنهج فإن العلماء وبشكل غريزي سيبدئون باستخدام المنهج العلمي كطريقة في التحليل كذلك.

عودة إلى البداية ... فإن الفرق الأساسي بين المنهج الفلسفي والمنهج العلمي هو في الاختبارات. بمعنى أن طريقة عرض النظرية مهما كانت ذات فصاحة وبلاغة ومنطق عقلي إلا أنه لا قيمة لهذه النظرية من غير وجود اختبارات موضوعية تقوم بإثبات أو تفضيل هذه النظرية على نظرية أخرى. وهذا الذي قدمته الاختبارات للمعرفة الإنسانية، إذ إن موضوعية الاختبارات أصبحت هي الفاصل في قبول أو رفض النظرية وليس كما هو الحال في فرضيات المنهج الفلسفي حيث

إن البلاغة والفصاحة والمنطق العقلي هي في الحقيقة الفاصل في قبول أو رفض الفرضية.

وهناك ثلاثة أنواع رئيسية في الاختبارات العلمية: تجارب مخبرية، واختبارات إحصائية، والتنبؤ الكامل.

وتجارب الكيمياء هي أحد الأمثلة على التجارب المخبرية.

والاستطلاعات السلوكية والتسويقية هي أحد الأمثلة على الاختبارات الإحصائية.

والتحليل السياسي هي أحد الأمثلة على التنبؤ الكامل.

والتنبؤ الكامل هو عمل الفرضية ثم ملاحظة جميع الأحداث السابقة والحالية والتالية، والنظر إذا كانت هذه الأحداث تتطابق مع الفرضية. فإذا كانت تنطبق بشكل كامل فهذا دلالة على صحة الفرضية، أما إذا لم تنطبق بشكل كامل فهذا دلالة على أن الفرضية ليست دقيقة ولا كاملة.

لنضرب المثال في موضوع الاختبارات الإحصائية:

عندما يكون هناك بضاعتين وتريد الشركة اختيار أحدهما. فما هو الأسلوب الأنجح في عملية اختيار البضاعة الأفضل للتسويق؟

يمكنك استخدام المنهج الفلسفي للوصول إلى استنتاج أن البضاعة الأولى أفضل من الثانية. ولكن إذا كان الأمر يتعلق بالكثير من الأموال التي سيتم صرفها في حملات التسويق فهل يكفي هذا الاستنتاج؟

الأنجح هو عمل اختبار، ويكون بتسويق البضاعتين في عينة موضوعية تمثل السوق.

يجب الانتباه أن هذا النوع من الاختبارات يعتمد على علم الاحتمالات، ولذا فالنتيجة ليست قطعية، ولكنها تزيد من مستوى الثقة في الفرضيات المتبناة.

مثال آخر: إذا قامت جامعة بدراسة مستفيضة عن أسلوب جديد في التعليم تقول عنه أنه ثوري في قدراته، ثم قامت بعرض هذه الدراسة على وزارة التعليم. الآن...هل تقوم الوزارة فوراً بتغيير مناهجها وأساليبها المعتمدة إلى الأسلوب الجديد، أم عليها أن تتحقق من الأسلوب الجديد باختبار؟

إن التغيير ليس بالشيء السهل، وإذا كان لا بد من التغيير فعلى الأقل أن يكون على ثقة بدلاً من منطقية الدراسة.

وكما تم تبيانه فإن البحث العلمي يعتمد على البحث الفلسفي كما يعتمد البحث الفلسفي على البحث العلمي: فالبحث الفلسفي يبدأ بوضع الخطوط العريضة ويبدأ بوضع الفرضيات عن الأحداث وعن علاقة الأحداث بمحيطها، فيقوم البحث العلمي بالتحقق من هذه الفرضيات لتكوين النظريات العلمية، هذه النظريات يعتمد عليها البحث الفلسفي لوضع فرضيات أخرى جديدة، وهكذا.

وكما كان للفلسفة عدو وهو الجدل فإن للمنهج العلمي عدو وهو المادية.

والمادية تعني رفض أية فكرة لا تكون محسوسة أو لا تكون مبنية على البحث العلمي. وخطورتها أنها تقوم برفض المنهج الفلسفي، والمنهج الفلسفي له ضرورة حقيقية وهي أنها تقوم بخلق الكثير من النماذج المفيدة.

وكذلك فإن الفكرة الفلسفية هي نقطة الانطلاق للبحث العلمي. وإلغاء هذه الدائرة هو تجميد حقيقي للبحث العلمي والتطور.

إن هناك الكثير من الفلسفات، ويخرج منها القليل من النماذج المفيدة، ويخرج من هذه النماذج القليل من الحقائق والنظريات العلمية. ولهذا فإن حجم النظريات العلمية أقل من الفلسفات المفيدة، والتي هي أقل بكثير من الفلسفات بشكل عام.

وقد يقول البعض إن الجهد في الكثير من الفلسفات هو عبث ومضيعة

للوقت، وهذا غير صحيح إذ إن الذي يبحث عن الذهب يقوم بالتقاط القبضة من الحجارة ثم يقوم بفلترتها حتى يصل إلى دقيقات الذهب. وهذا هو البحث الفلسفي والعلمي: فأنت كي تصل إلى دقيقات النماذج المفيدة والنظريات العلمية عليك بالاستخراج والتمحيص للكثير من الفلسفات.

وهذا هو تاريخ البحث الفلسفي والبحث العلمي. والقاعدة الأولى في هذا التاريخ واضحة: **يجب أن تخطو إلى الخطأ كي تصل إلى الصحيح**.

فمعظم الأبحاث الفلسفية والعلمية قد بدأت بنماذج أولية لم تكن كاملة الصحة، ثم انتبه آخرون وصححوا بعض الخطأ، ثم انتبه آخرون وصححوا بعض الخطأ، وهكذا حتى وصلنا إلى الصحيح. وما كان يمكن الوصول إلى هذا الصحيح لولا الدفعة الأولى من الخطأ الأول.

القاعدة الثانية في هذا التاريخ: أنه لا يهم أبداً من أين تبدأ البحث، ولا يهم أبداً إذا بدأت من النقطة الخاطئة ما دمت تملك الرغبة في المعرفة والمنهج الصحيح في البحث. إذ إن الرغبة في المعرفة والمنهج الصحيح في البحث سيدفعانك لاستدراك الأخطاء لاحقاً.

◘ دوائر التعلم الأساسية:

ضمن ما سبق فإنه من الممكن الانتباه إلى ثلاث دوائر رئيسية متضافرة ومتكاملة للتعلم والتطور:

الدائرة الأولى هي الذكاء البديهي وهو الانتباه إلى النمط السائد في مجموعة من الأحداث واستنتاج البديهة منها. وميزة هذه الدائرة هي في القدرة على التصرف السريع عند الحاجة.

الدائرة الثانية هي المنهج الفلسفي، وهي تقوم باستدراك الأخطاء في

البديهيات وتصحيحها وتكوين بديهيات أخرى. كما تقوم بربط الأفكار معاً لعمل نماذج مفيدة وأفكار ابتدائية تكون مركز انطلاق للبحث العلمي. أي أن الدائرة الثانية تقوم بتقوية الذكاء البديهي وتكون مركز انطلاق للبحث العلمي.

الدائرة الثالثة وهي المنهج العلمي، وهي تقوم باستدراك الأخطاء في الأفكار الفلسفية ووضع الحقائق والنظريات العلمية التي تكون قواعد ومركز انطلاق للمنهج الفلسفي.

ويمكن تشبيه هذه الدوائر بثلاث خطوط متوازية ومتضافرة للتعلم المتسارع:

الخط الأول وهو الذكاء البديهي والذي يسمح بسرعة التصرف.

الخط الثاني والذي يتدارك أخطاء الذكاء البديهي ويقوم بوضع النماذج المفيدة.

الخط الثالث والذي يتدارك أخطاء المنهج الفلسفي ويقوم بمحاولة الكشف عن الحقائق المجردة.

وكما كان للمنهج الفلسفي عدو وهو الجدل، وكما كان للمنهج العلمي عدو وهو المادية، فإن للتعلم عدو حقيقي وخطير وهو التصديق الأعمى.

إن الحقائق العلمية هي أفضل ما استطاع الإنسان الحصول عليه بموضوعية بعيداً عن العواطف والبلاغة وصناعة الزخرف من الكلام. وهذا ما سيرثه الجيل التالي. وطبعاً سيقوم الجيل التالي باستدراك الأخطاء فيما كنا نراه حقائق ونظريات ثم سيضيفون إليه ثم سيورثوه إلى الجيل التالي وهكذا.

والمشكلة الكبرى تحدث عندما تختلط الحقائق العلمية مع الفلسفات. وإذا حدث هذا عند رجل أو شعب فإن بذرة التوهم ستنزرع في قلب المنهج العلمي، وستنمو من غير أن ينتبه لها أحد، وسيصل الرجل أو الشعب إلى المرحلة والتي ستتحول فيها الفلسفات المفيدة (ولكنها غير الصحيحة) في الذهن إلى حقائق. إن

هذا الرجل وهذا الشعب سيكون كسفينة خرجت إلى عمق المحيط بلا بوصلة ولا مهارة في قراءة النجوم.

كما سيتم بحثه في الموضوع التالي (المنهج الديناميكي)، فإنه ما من نظام مفيد للإنسان وإلا به بذور الانهيار. فالفلسفة مفيدة جداً وبذور انهيارها هي الجدل. والمنهج العلمي مفيد جداً وبذور انهياره هو المادية، والتعلم يحتاج إلى اشتراك الفلسفة والمنهج العلمي معاً، وبذور الانهيار للتعلم هو التصديق الأعمي، وهو خلط الفلسفة والمنهج العلمي في التصديق.

والطريقة الوحيدة لمنع بذور الانهيار من النمو هو الإحاطة بهذه البذور بنظام واضح. وهذا يتطلب مهارة التفكير ذو الخطوط المتوازية (التفكير المتوازي).

والاقتراح هو أن تعمل في عقلك أربعة أرشيفات. أرشيف يتعلق بالحقائق والنظريات العلمية، وأرشيف يتعلق بالفلسفات بشكل عام، وأرشيف يتعلق بالفلسفات التي ظهرت فائدتها (وإن كانت غير صحيحة)، وأرشيف يتعلق بالظواهر التي ليس لها تفسير علمي. وبالطبع فإن كل أرشيف يؤثر في انتباه الآخر، ولكن يجب أن تكون حازماً في عدم خلط هذه الأرشيفات ببعضها. وهذه هي الطريقة الوحيدة ضمن وجهة نظر المؤلف والتي يمكن فيها التطور والتعلم بقفزات طويلة دون تجرع سموم الجدل والمادية والتصديق الأعمى.

وهنا نأتي لموضوع آخر في غاية الأهمية وهو:

◘ العرب والبحث العلمي:

المعلومات التي بدأ منها الغرب في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر كانت متوفرة ومنذ قرون في الشرق الأوسط. ولكن تسارع العلوم في

أوروبا كان أعلى بكثير من تسارع العلوم في الشرق الأوسط. لماذا؟

كانت إحدى الأجوبة تتعلق بأن الغرب قد توصل وبسرعة إلى المنهج العلمي والذي استطاع فصل البحث العلمي عن صناعة زخارف الكلام، ولكن يبدو أن هذا السبب، مع أهميته الكبيرة، ليس هو السبب الرئيسي.

ما لاحظه المؤلف أن أوروبا والإغريق كان لهم شغف حقيقي لمعرفة أسرار الكون والطبيعة. هذا الشغف لم يكن متعلقاً بأفراد وإنما كان متعلقاً بالمجتمع والدولة. أما باقي الشعوب كالمسلمين والرومان والهنود فكان تركيزهم هو في حل المشاكل الموجودة في عصرهم. بالطبع فقد كان هناك شغف لعلماء مسلمين كثيرين لمعرفة أسرار الكون كالحسن بن الهيثم، ولكن هذه الرغبة كانت خاصة لذلك العالم ولم تكن هذه الرغبة عامة في المجتمع أو الدولة، ولم تقم مؤسسات المجتمع بتمويل هذا النوع من الأبحاث. ولهذا السبب ففي موضوع أسرار الكون والطبيعة فلم هناك تواصل في البحث حيث انتهى الآخرون، ولهذا لم يقم أحد بالاستمرار بأبحاث الحسن بن الهيثم، كما لم يقم أحد بالاستمرار بأبحاث عباس ابن فرناس.

الوضع كان مختلفاً عند الإغريق وعند أوروبا في العصور الوسطى، فقد كانت هناك شغف حقيقي لمعرفة أسرار الكون والطبيعة، وقد كانت الدولة ومؤسسات المجتمع والأغنياء يقومون بتمويل هذه الأبحاث، وكان هناك ميول واضحة للتواصل والاستمرار حيث انتهى الآخرون، وكانت النتيجة هي سرعة تقدم أوروبا في الرياضيات والفيزياء والعلوم الأخرى.

لا يدري المؤلف بالضبط السر وراء هذا الشغف للإغريق والأوروبيين لمعرفة أسرار الكون، ولكنه يعلم أن هذا هو السر الحقيقي لتسارع علومهم. إن العلم هدف بذاته، وأما الفائدة فتأتي لاحقاً، عاجلاً أو آجلاً. ويقال إن ماكسويل قد

سئل عن الفائدة التي يمكن أن يجنيها الإنسان من معادلاته الأربعة الشهيرة في الموجات، فأجابه إنك لا تدري ما الفائدة التي ستجنيها من طفل صغير. إن جميع الأجهزة المتعلقة بالموجات الكهرومغناطيسية إنما تعتمد على هذه المعادلات.

إن للبحث العلمي ثلاثة اتجاهات متضافرة ومتكاملة: أولها هو معرفة أسرار الكون والطبيعة، وثانيها هو حل المشاكل التي يواجهها الإنسان، وثالثها هو إيجاد تطبيقات مفيدة للفلسفات والنظريات العلمية. فالعلوم المتعلقة بالفلك ما زالت ضمن اتجاه معرفة أسرار الكون والطبيعة. أما تكنولوجيا المعلومات فهي ضمن حل مشاكل الإنسان، أما العلوم الإدارية والسلوكية فمعظمها جاء كتطبيقات لأفكار فلسفية ونظريات علمية. وقد اهتم العرب بالاتجاه الثاني وبعضاً من الاتجاه الثالث وأهملوا، كدولة ومؤسسات، الاتجاه الأول. ولكن الاتجاه الأول هو الضمان لاستمرارية باقي الاتجاهات، وهذه هي النقطة هنا: العلم غاية بحد ذاته والفائدة تأتي لاحقاً، عاجلاً أو آجلاً.

وهناك نقطة أخرى في هذا الفصل بحاجة للتوقف عندها وهو:

◘ الفرق بين العلم والساينس:

المنهج العلمي هو مصطلح جديد له تعريف واضح مأخوذ من المصطلح الأجنبي Scientific Method وهو:

"The principles and empirical processes of discovery and demonstration considered characteristic of or necessary for scientific investigation, generally involving the observation of phenomena, the formulation of a hypothesis concerning the phenomena, experimentation to demonstrate the truth or falseness of the hypothesis, and a conclusion that validate or modifies the hypothesis". (Ref: www.dictionary.com and others).

والذي تم ترجمته بالخطوات المذكورة في أول هذا الفصل.

ومن هذا المصطلح جاءت كلمة ساينس (Science) لتعبر عن المعرفة التي تنبثق عن المنهج العلمي في التحليل. وأما العلم فهي كلمة عربية تعني المعرفة. وعليه فيمكن أن يكون هناك علوم (ضمن التعريف العربي) لا تعتمد على المنهج العلمي. مثال ذلك الرياضيات فهو علم ولكنه مبني على المنهج الفلسفي، والكيمياء وهو علم مبني بشكل رئيسي على المنهج العلمي، والعلوم الإدارية والسلوكية وهي علوم مبنية على المنهجين معاً.

ولهذا السبب فكلمة «العلم» العربية هي ترجمة غير دقيقة لكلمة ساينس (Science). ولهذا السبب فإن عبارة: «علم الرياضيات» هي عبارة صحيحة في اللغة العربية ولكن عبارة: ساينس الرياضيات (The Science of Mathematics) هي عبارة غير صحيحة. وأما علم الكيمياء وساينس الكيمياء فكلاهما عباراتان صحيحتان.

على أية حال فإنه ليس من مشكلة أبدا استعمال كلمة علم بدلا من ساينس (Science) إذا كان هناك وضوحا في الذهن للفرق بين العلم والمقصود به المعرفة والعلم والمقصود به الساينس.

◘ تعريفات مفيدة:

قد يكون من المفيد وضع تعريفات بسيطة للفلسفة والعلم تقوم بالتفريق الواضح بينهما . انتبه هنا أن التعريفات التالية ليست جامعة ولا مانعة للفلسفة والعلم ولكنها تعريفات مفيدة تسمح بتوضيح المفهوم العام للفلسفة والعلم.

من الممكن تقسيم الفلسفة إلى نوعين اثنين واضحين:

١- الفَلْسَفَةُ العَمَلِيَّة: وهي التعبير عن الواقع كما نراه وبأفيَد صورة ممكنة.

٢- الفَلْسَفَةُ العِلْمِيَّة: وهي الفرضيات العلمية والتي لم يتم إثباتها أو نفيها بعد. مثال ذلك هو نظرية الأوتار (String Theory) والتي تتعلق بمكونات الكون وكذلك النظريات العلمية الأخرى المتعلقة بنشوء الكون، فكلها نظريات لا إثبات لها ولا نفي حتى الآن. ولهذا السبب فهي ما زالت تقع ضمن مجال الفلسفة وليس ضمن مجال المنهج العلمي حتى تأتي الاختبارات لها.

وهذا هو السبب في وجود منطقة رمادية بين الفلسفة والعلم. حيث إن الفلسفة العلمية في الحقيقة هي أحد مقدمات المنهج العلمي.

وكذلك فإن المنهج العلمي يقوم بشكل متواصل بالنظر إلى الفلسفات العملية لمحاولة تفسيرها بشكل علمي، وكذلك الفلسفة العملية فهي تحاول النظر إلى النظريات العلمية والتعبير عنها بشكل مفيد للعموم. وهذا يفسر الترابط الوثيق بين الفلسفة والعلم.

على أية حال فإن الفلسفة العلمية هي جزء صغير من عالم الفلسفة. وعليه فمن الممكن اعتبار الفلسفة إذا ذكرت مجردة أنها الفلسفة العملية. وعليه فمن الممكن الخروج بالتعاريف المفيدة التالية:

- الفلسفة: هي تعبير عميق عن الواقع وبأفيَد صورة ممكنة. أي أن الفلسفة لا تبحث عن الصحة أو الخطأ بالقدر التي تبحث فيه عن الفائدة.
- المنهج الفلسفي: وهو المنهج الذي يقوم بتحليل الواقع بشكل عميق والتعبير عنه بأفيَد صورة ممكنة.
- الفلسفة العلمية: وهو جزء خاص من الفلسفة وهو تعبير عميق عن الواقع

وبأدق صورة ممكنة ولكن هذا التعبير ليس مؤيدا بعد بالاختبارات الموضوعية. ولهذا السبب فالفلسفة العلمية هي أحد مقدمات المنهج العلمي.

- العلم (Science): هو تعبير عميق للواقع وبأدق صورة ممكنة ومؤيدا باختبارات موضوعية.
- المنهج العلمي: هو المنهج الذي يهدف إلى تحليل الواقع بشكل عميق والتعبير عنه بأدق صورة ممكنة. ويقوم هذا المنهج على المراحل التالية: الملاحظة، والإحاطة، والافتراض، والاختبار، والتقييم.

في الملحق التابع لهذا الكتاب توجد الموضوعات التالية: استخدام المنهج العلمي لإثبات وجود الله والرسالة المحمدية، والتعارضات الممكنة بين الغيبيات القرآنية والنظريات العلمية. وقد فضل المؤلف وضع هذه المواضيع في الملحق حتى يتم المحافظة، قدر الإمكان، على تسلسل الأفكار في الكتاب.

◄ المنهج الديناميكي في البحث والتحليل:

المنهج الديناميكي هو ترجمة غير حرفية لـ (System Thinking) وهـو جـزء من العلوم الإدارية المتعلقة بنظريـة الأنظمـة (System Theory). وهـو علـم في غاية الأهمية في الأدبيات الإدارية .

وأول ما بدأت هذه النظرية بالظهور كان في علم الفيزياء في موضوع ديناميكية الحرارة (Thermodynamics) في القرن التاسـع عـشر. فنظريـة الأنظمـة جـاءت لتشرح انتشار الحرارة في السوائل وللعلاقة بين الحرارة والضغط والحجـم. غيـر أن العلماء بتخصصاتهم قد انتبهوا أن نظرية الأنظمة لا تتعلق فقـط بعلـم الحـرارة وإنما يمكن تطبيقها على أي شيء يمكن وصفه بأنه نظـام، بمـا فيهـا المؤسـسات والمجتمعات والـدول والأمـم. وإذا كنـت ممـن درس الهندسـة الميكانيكيـة أو الكهربائية فستلاحظ أن أنظمة التحكم التي درستها تشبه كثيـراً نظريـة الأنظمـة في العلوم الإدارية.

سنبدأ بشرح الأنظمة بشكل عـام ثـم الـدخول إلى نظريـة الأنظمـة في العلـوم الإدارية .

النظـام (System) هـو أي شـيء مـادي (كالمكنـسة الكهربائيـة) أو معنـوي (كمجلس الإدارة) والتـي لهـا حـدود واضـحة وتتفاعـل مـع محيطهـا (تعريـف مختصر).

فالمكنسة الكهربائية هو شيء له حدود واضحة وكـذلك فـإن هـذه المكنـسة تستخدم للتنظيف، وهي بهذا تتفاعل مع محيطها. ومجلـس الإدارة هـو شـيء لـه حدود ويقوم باتخاذ القرارات الرئيسية للشركة، وبالتالي فهو يتفاعل مـع المحـيط حوله.

وهناك نوعان من الأنظمة: الأنظمة الخطية والأنظمة الديناميكية.

الأنظمة الخطية هي الأنظمة التي لا يوجد فيها تحكم داخلي لتنظيم المدخلات بالنسبة للمخرجات. مثال على ذلك هو خط الإنتاج في المصنع. فإذا كان المصنع يقوم بتحويل صفائح الحديد إلى براميل، ولم يكن هناك أية أنظمة تتحقق من جودة هذه البراميل، فإن الذي يحدث هو أن خط الإنتاج سيستمر في التصنيع بغض النظر إذا كان إنتاجه صحيح أو عبث.

الأنظمة الديناميكية هي الأنظمة التي يوجد فيها نظام تحكم داخلي يسمح بتنظيم المدخلات بالنسبة للمخرجات. مثال ذلك هو نفس خط الإنتاج. فإذا كان هناك أشخاص في نهاية كل مرحلة من مراحل الإنتاج يتحققون من الجودة، وحدث هناك خطأ في جودة الإنتاج فإنهم يقومون بوقف خط الإنتاج والتحقق من سبب الخطأ وبعدها يعاد فتح خط الإنتاج من جديد.

المؤسسات والمجتمعات وكل ما يتعلق بالإنسان يقع ضمن الأنظمة الديناميكية.

بالطبع فإن الأنظمة الخطية أسرع بكثير من الأنظمة الديناميكية، ولكن الأنظمة الديناميكية أكثر أماناً من الأنظمة الخطية. والذكاء أن تجد نظاماً هجيناً بين الاثنين يسمح بأخذ فوائد النظامين دون سيئاتهما. وهذا هو أحد التحديات التي تواجه العلوم الإدارية المتعلقة بإدارة الموارد البشرية والجودة الكاملة.

الشكلان التاليان يبينان الفرق بين الأنظمة الخطية والأنظمة الديناميكية.

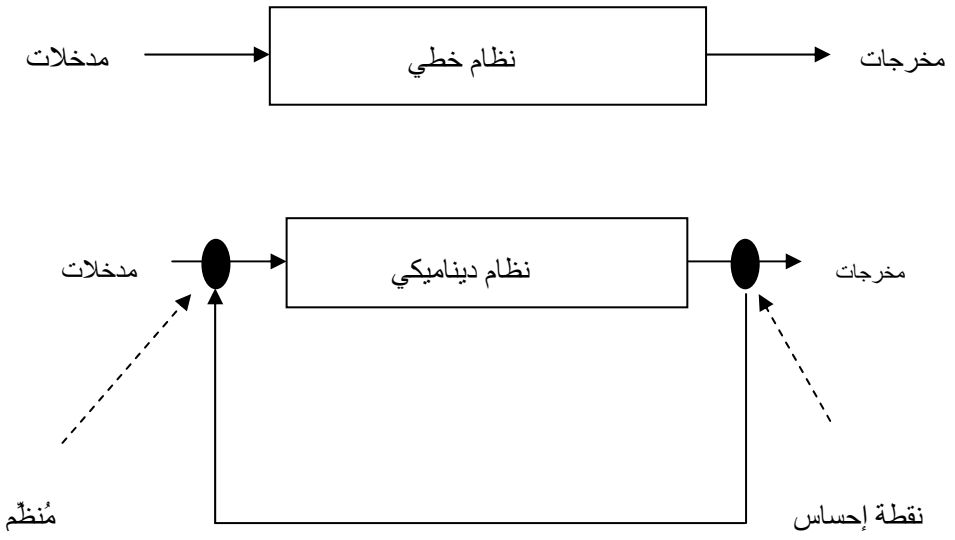

تحتوى الأنظمة على الظواهر والقوانين التالية: حالة الاتزان، حالة الاستقرار، التأرجح، قانون التأخير، قانون التغيير، دائرة التعاظم، دائرة الانهيار، قوانين التعاظم، حالة التوازن الديناميكي، قانون التشابك، نقاط الحث، والقفز فوق عتبات التوازن.

◘ حالة الاتزان:

وهي الحالة التي تكون القوى المؤثرة على النظام متوازنة. أفضل مثال على ذلك هو الشكل التالي:

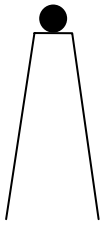

ضع كوباً مقلوباً وضع فوقه كرة صغيرة.

إن سكون الكرة هو دليل اتزانها. مثال آخر: رجل يكون في وظيفة مستقرة، ولا تتغير حياته مع تغير الأيام، فإنه يكون في حالة اتزان.

◘ حالة الاستقرار:

وهي قدرة النظام على الرجوع إلى حالة الاتزان إذا جاءت قوة وأثرت عليه.

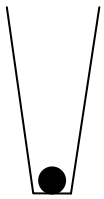

في المثال السابق فإن النظام ليس في حالة استقرار حيث إن أي قوة مؤثرة ستدفع الكرة خارج النظام. ولكن في المثال التالي فإن النظام هو في حالة استقرار، حيث إن أي قوة مؤثرة (معقولة) قد تخرج الكرة من حالة الاتزان ولكن النظام قادر على إعادة الاتزان لها لاحقاً. وبالطبع إذا كانت القوة أكبر من تماسك النظام فإن هذا النظام سيفقد حالة الاستقرار وينهار. أي إذا كانت القوة المؤثرة أكبر من اللازم في هذا المثال فإن الكرة ستخرج تماماً من الكوب.

مثال آخر: إذا جاء مدير الشركة يوما وبدأ بالصياح والشتيمة لموظفيه. فإذا كانت الشركة قوية، وكان للموظفين الحاجة أو الرغبة فيها، فإن الأمر قد يؤدي إلى اضطراب في الشركة ولكن لا يكون الأمر خطيراً، أما إذا كانت الشركة ضعيفة وكان رغبة الموظفين للعمل في الشركة ضعيف، فإن تصرف المدير قد يخرج الشركة تماما من حالة الاستقرار.

◘ التأرجح:

التأرجح هو ظاهرة تحدث للنظام نتيجة لقوى التغيير وقوى الاستقرار. فإذا جاءت قوة وأثرت في النظام فإن التأرجح هو نتيجة لتفاعل هذه القوة المؤثرة مع قوة النظام.

مثال ذلك البندول، فأنت عندما تضرب كرة البندول فإن البندول سيتأرجح حتى يصل في النهاية إلى حالة الاستقرار.

مثال آخر، فإن قيام المؤسسة بتغيير أنظمتها، فإن الذي سيحدث في الشركة

هو التأرجح بين القوى المؤيدة للنظام الجديد والقوى المعارضة له. وتكون الشركة في حالة شد وجذب حتى تصل الشركة إلى حالة الاستقرار. وبالطبع فإذا كان التغيير أقوى من تماسك الشركة فإن الشركة ستتأرجح إلى الانهيار.

والمثال الكلاسيكي الموجود في الأدبيات الإدارية هو إذا كنت تستحم وكان صنبور المياه الساخنة بعيد عن سخان الماء. فأنت عندما تفتح الصنبور فإن الماء الساخن لا يأتي مباشرة، فتقوم بشكل لا إرادي بزيادة الصنبور الساخن. والذي يحدث عندها أن الماء الساخن يأتي ثم بعدها بقليل يأتي ماء حار جداً، فتقوم بإنقاص الصنبور بسرعة، فيبرد الماء. ثم تقوم بالزيادة والنقصان حتى تصل إلى السخونة المطلوبة. وما حدث هنا هو التأرجح بين البارد والحار حتى استقر النظام.

ودراسة التأرجح أمر مهم في إدارة التغيير، إذ إن أي تغيير يحدث للنظام سينتج عنه نوعاً من التأرجح. فإذا كان متوقعاً حدوث تأرجح كبير في النظام، فلا بد من تصميم نوع من مخدات الامتصاص للإحاطة بالتأرجح. مثال ذلك: إذا قررت الدولة فجأة إعطاء النساء حق الخلع. الذي سيحدث هو حالة تأرجح كبيرة بسبب وجود الكثير من النساء من يريد فجأة خلع أزواجهم، وفي المقابل فهناك الكثير من الرجال من سيغضب لخروج السيطرة من يده. وللإحاطة بآثار التأرجح فربما في السنة الأولى تقوم الدولة بإقرار الخلع بعد شهر واحد من طلبه، ويكون في هذا الشهر محاولات الإصلاح بين الزوجين. ما سبق هو نوع من مخدات الامتصاص لمحاولة الحد من تأثير قانون جاء بشكل مفاجئ.

◘ قانون التأخير:

وهو أنه إذا قامت قوة بالتأثير في النظام، فإن ظهور هذا التأثير سيحتاج إلى

الوقت. أي أن هناك تأخير بين التأثير والنتيجة.

ففي المثال السابق، فأنت عندما تفتح صنبور المياه الساخنة، فقد قمت بالتأثير في النظام، ولكنك لم تشعر بنتيجة التأثير إلا بعد وقت.

طبعاً هذا القانون واضح وبديهي ولا يمكن أن يتجادل عليه أحد، ولكن الذي حدث أن كثير من الناس من ينسى هذه البديهة عندما يتعاملون مع الأنظمة، فكان أن وضع علماء الأنظمة هذا القانون.

لنأخذ المثال السابق، فإذا كان الرجل عالماً بقانون التأخير فإنه سيقوم بفتح أو غلق الصنبور بشكل ضئيل ثم يصبر حتى تظهر النتيجة ثم يقرر ما إذا كان يريد الزيادة أو النقصان، وهكذا حتى يأتي إلى الحالة النهائية التي يريدها. وفي هذه الحالة فإن التأرجح يكون في أضيق نطاق ممكن.

وبالطبع فإن الرجل قد استغرق وقتا طويلا للوصول إلى حالة الاستقرار النهائي.

وهذه هي العقدة في الأنظمة الديناميكية: فالوصول بسرعة إلى حالة الاستقرار النهائية يتطلب حالة من التأرجح في حين أن عدم التأرجح يحتاج إلى البطء.

وفي كثير من الحالات فإن نظام التحكم المتبنى في الدوائر الالكترونية يقبل بقليل من التأرجح كي يكون النظام سريعا.

◘ قانون التغيير:

ويقول هذا القانون إنه إذا جاءت قوة تؤثر في النظام، فإن النظام سيحاول استطاعته مقاومة التغيير وإرجاع النظام إلى حالة اتزانه الأولى. فإذا كانت قوة التغيير أكبر من مقاومة النظام فسيستقر في حالة اتزان أخرى. أما إذا كانت قوة التغيير أكبر من تماسك النظام، فإن النظام سينهار.

مثال ذلك: إذا شعرت الشركة بضيق الموارد المالية فقررت تغيير نظام المكافئات في الشركة، فإن هذه الخطوة ستجابه بمقاومة من الموظفين. فإذا كانت قوة مقاومة الموظفين أكبر من قوة التغيير فإن الموظفين في النهاية سيجبرون الإدارة على التراجع. أما إذا كانت قوة التغيير تماثل قوة المقاومة فإن الذي سيحدث في النهاية هو مفاوضات الإدارة مع الموظفين وتكون الأمور بين شد وجذب حتى يصل الجميع إلى اتفاق. أما إذا كانت قوة التغيير أقوى بكثير من قوة المقاومة فإن الموظفين سيستسلمون على مضض لرغبة الإدارة. أما إذا كانت قوة التغيير أكبر من تماسك الشركة فإن الذي سيحدث هو استقالات بالجملة من الشركة مما قد يسبب انهيارها.

◘ دائرة التعاظم:

دائرة التعاظم هي ظاهرة تحدث عندما تتراكم وتتسارع نجاحات النظام.

مثال ذلك عندما تضرم النار في الحطب (أو البنزين)، فعندما يشتعل أول جزء في هذا الحطب فإنه يقوم بإشعال الأجزاء المحيطة حوله، وكل جزء من هذه الأجزاء سيشعل الأجزاء الأخرى وهكذا.

مثال آخر، عندما يقوم زيد ببيع بضاعة مفيدة لجرير، فيقوم جرير بإبلاغ أصدقاءه، فيقوم الأصدقاء بالاتصال بزيد وشراء البضاعة، ثم يقوم كل منهم بإبلاغ أصدقاءه، وهكذا.

الأشكال التالية توضح هذه الأمثلة بيانياً.

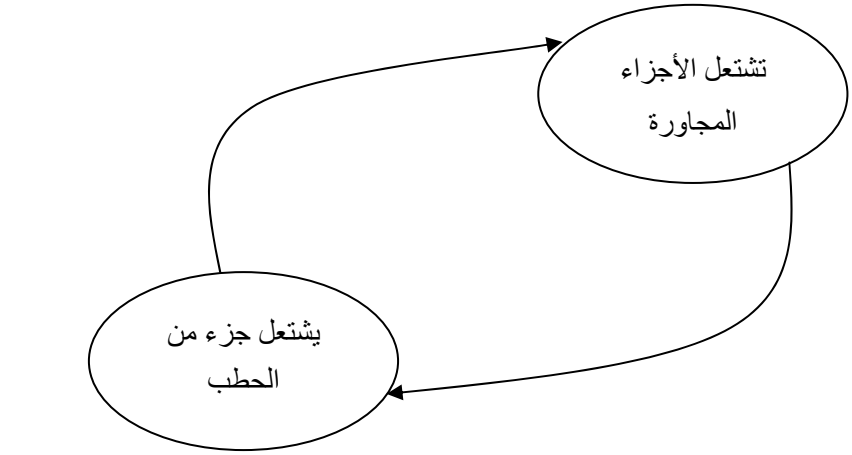
تشتعل الأجزاء
المجاورة
يشتعل جزء من
الحطب

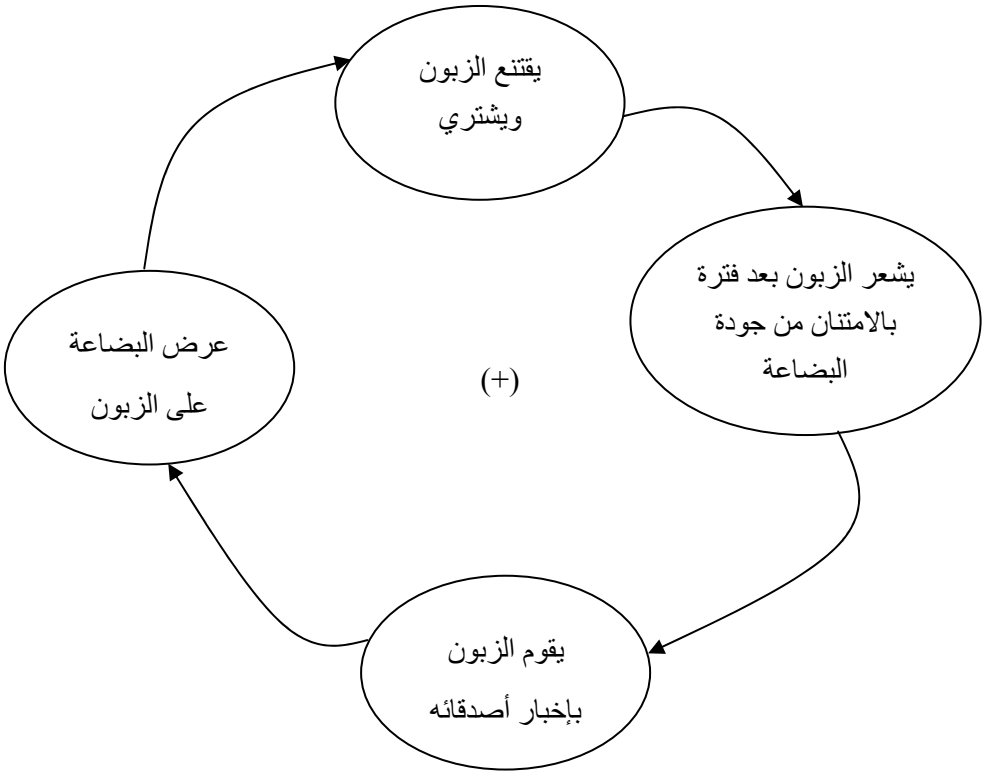
يقتنع الزبون
ويشتري
يشعر الزبون بعد فترة
بالامتنان من جودة
البضاعة
عرض البضاعة
على الزبون
(+)
يقوم الزبون
بإخبار أصدقائه

◘ دائرة الانهيار:

وهي تشبه تماماً دائرة التعاظم ولكن بالاتجاه السلبي. أي أنها ظاهرة تحـدث عندما تتراكم وتتسارع مطبات وفشل النظام.

مثال ذلك هو شركة تشعر بنقص في السيولة فتقوم بتخفيض مكافئات مندوبي المبيعات فتنقص المعنويات عنـدهم فيقـل البيـع فيـزداد الـضغط عـلى الـسيولة، وهكذا.

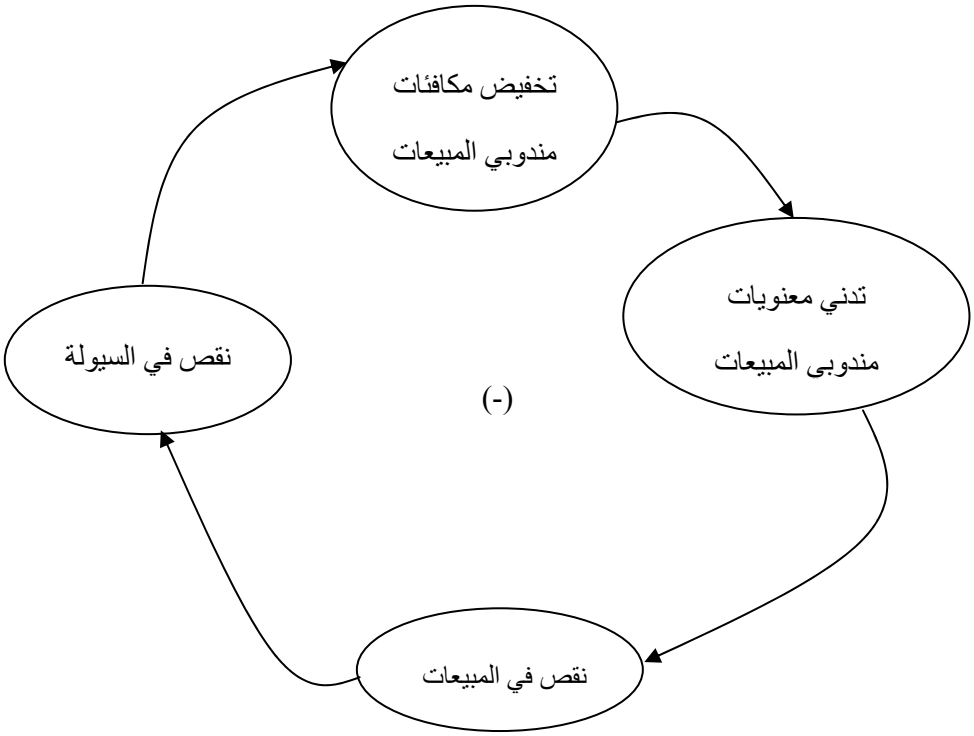

◘ قانون التعاظم الأول والثاني والثالث:

قانون التعاظم الأول يقول إنه عندما تبدأ أية دائرة بالتعاظم فإنه يُخلق معها في تلك اللحظة بذرة دائرة الانهيار.

قانون التعاظم الثاني يقول إن الأمر الطبيعي في الأنظمة أن تنتهي دائرة التعاظم إلى الانهيار.

قانون التعاظم الثالث يقول إن الطريقة الوحيدة لتأخير عملية الانهيار هي عمل تحكم داخلي يحيط بدائرة الانهيار.

كمثال للقانون الأول والثاني ففي اللحظة التي يشتعل فيها الحطب فإن دائرة التعاظم قد بدأت ولكنه في نفس اللحظة فإن بذرة الانهيار قد خُلقت. وبذرة الانهيار هي نقصان الوقود اللازم للاحتراق. وضمن هذا النظام فإن دائرة التعاظم سوف تتسارع إلى مرحلة ثم تتباطأ إلى أن تصل إلى القمة ثم تبدأ عملية الانهيار حتى تخمد النار.

ومثال على القانون الثالث فإن السيارة إذا دُفعت فإنها تتحرك ثم تقف لمقاومة احتكاك الهواء والشارع. والطريقة التي يمكن فيها أن تسير السيارة بسرعة ثابتة هي أن تضغط على دواسة البنزين لتعطي للسيارة قوة توازن بها مقاومة الاحتكاك. وطبعاً فإن هذا يُؤخر عملية التوقف، ولكن السيارة ستقف حتماً بعد فترة للتزود بالوقود.

◘ حالة التوازن الديناميكي:

هي الحالة التي تتوازن فيها دائرة التعاظم مع دائرة الانهيار. وفي هذه الحالة فإن النظام لا يصعد ولا ينزل وإنما يكون في حالة جمود. وفي هذه الحالة كذلك يكون قد وصل إلى النقطة الأعلى في نجاحه.

لندرس المثال السابق ذكره في دائرة التعاظم:

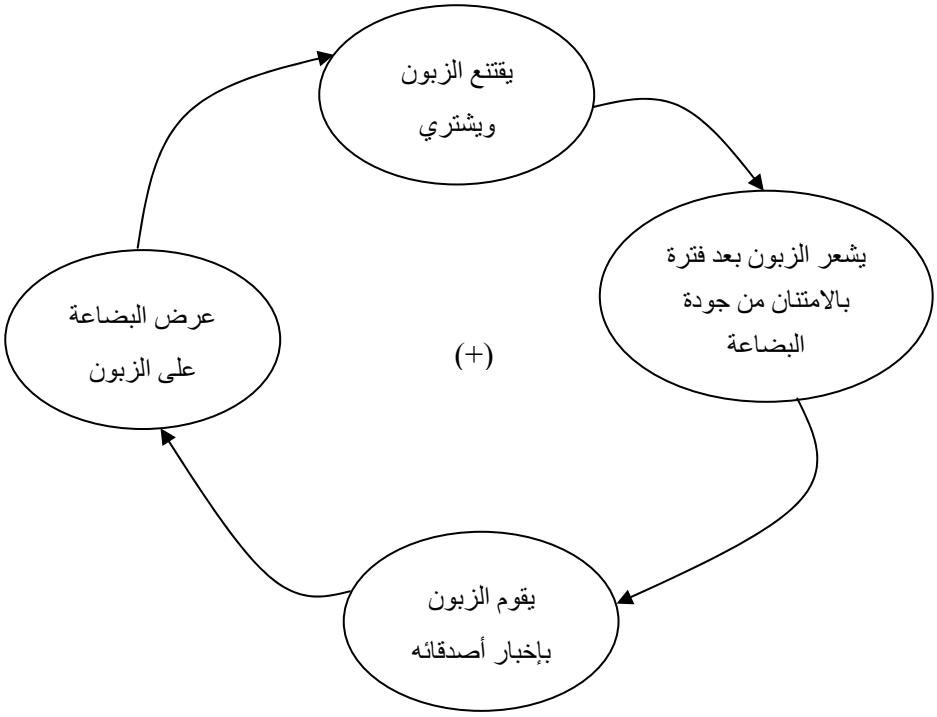

ولنقل أن البضاعة هي جهاز منزلى يتم تصنيعه محلياً. وأن كلفة الجهاز هي ٥٠٠ درهم، وأنه بحاجة إلى عامل واحد ويومين لتصنيعه. وأن سعر بيع الجهاز هو ١٠٠٠ درهم.

إن بداية دائرة التعاظم هذه سيخلق معها بذرة الانهيار وهي:

١. يزداد الطلب في شراء البضاعة.
٢. بسبب زيادة الطلب فإن الشركة ستضطر إلى تأخير تسليم الجهاز، وستضطر كذلك إلى الاستعانة وبسرعة بعمال آخرين لتصنيع المنتج. وبالتالي تنقص جودة الجهاز وتنقص جودة الخدمة (تسليم الجهاز).
٣. تبدأ مشاكل الجهاز بالظهور وتبدأ شكاوي الزبائن.
٤. يقوم بعض الزبائن بإلغاء طلبات شرائهم كما يقوم البعض الآخر بإرجاع الجهاز والمطالبة بالثمن.

٥. يقوم الزبائن بتحذير أصدقاءهم مما يؤدي هذا إلى نقصان طلبات الشراء.

إن تفاعل دائرة التعاظم ودائرة الانهيار ستكون كالتالي:

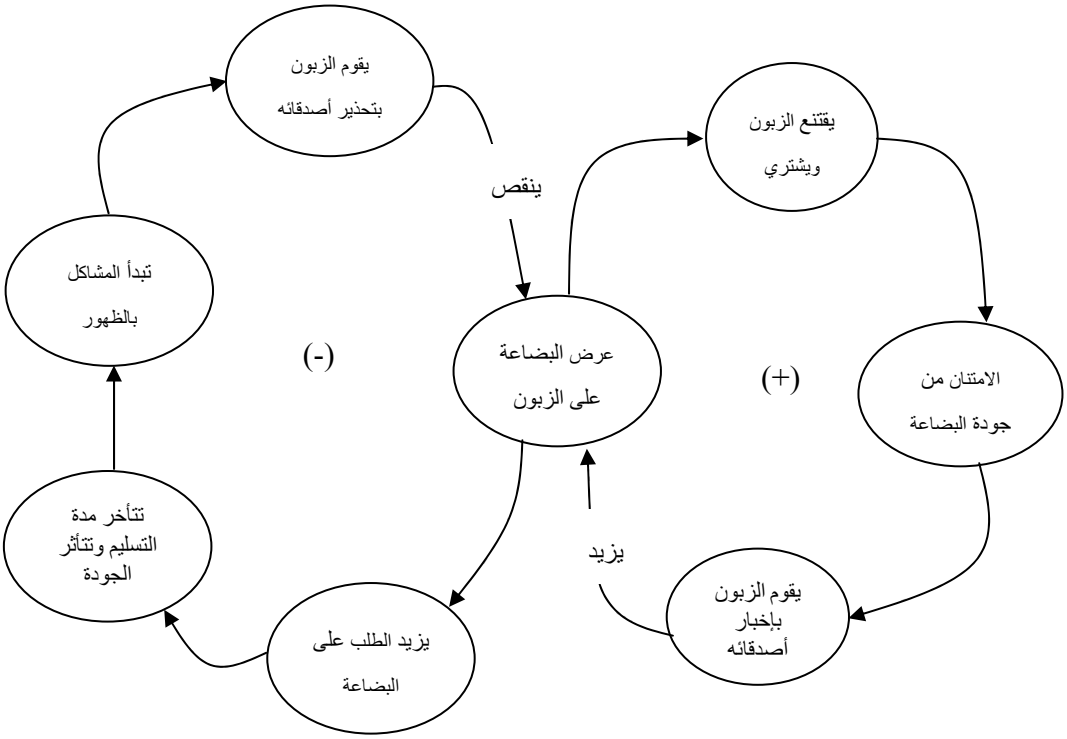

ويمكن السيطرة على دائرة الانهيار هذه، فغالب الظن أن تستطيع الإدارة أن تنتبه لدائرة الانهيار وأن تبدأ بالتحكم والتنظيم لأعمالها، وفي هذه الحالة فإن الشركة تكون إما في حالة صعود حسابي (أي أن الشركة تتقدم عاماً بعد عام بنسبة حسابية وليست تعاظمية) أو تكون الشركة في حالة توازن (أي أن يكون ربح الشركة ثابت ولكن دون نمو).

ولكن ضمن قانون التأخير فإنه سيكون هناك وقت بين الانتباه لدائرة الانهيار وبين الإحاطة بدائرة الانهيار. وهذا الوقت يعتمد على الظروف وعلى مهارة الإدارة.

المشكلة الكبرى هي عندما تتضافر مجموعة من دوائر الانهيار معاً وفي وقت واحد. فبالنسبة للمثال السابق فيمكن توقع دائرة انهيار أخرى في النظام. ويمكن وضع دوائر التعاظم والانهيار للمثال السابق كما يلي:

دوائر التعاظم	دوائر النهيار
الكلمة الحسنة من الزبون أدت إلى مزيد من الطلب	المزيد من الطلب أدى إلى نقصان في الجودة بسبب عدم توفر الوقت والعمالة الكافية الماهرة لتغطية الطلب.
	المزيد من الطلب أدى إلى نقص في السيولة بسبب أن شراء المواد المتعلقة بالجهاز يتم قبل التحصيل.

ويغلب على ظن المؤلف أن تضافر ثلاث دوائر انهيار أو أكثر في وقت واحد في مؤسسة صغيرة كفيل بانهيارها. حسب قانون التأخير وقانون التشابك التالي ذكره.

◘ قانون التشابك:

التشابك هنا هو حجم المدخلات التي يجب على النظام أن يتعامل معها، وحجم المخرجات المطلوبة من النظام، وحجم أنظمة التحكم الداخلية للنظام. وبالطبع فإن حجم التشابك في مؤسسة صغيرة أقل منه في مؤسسة ذات فروع عدة.

هذا القانون لاحظه مبرمجو الكمبيوتر ولكنه ينطبق على أي نظام. فقد لاحظ مبرمجو الكمبيوتر أنه كلما زادت تشابكات النظام زيادة حسابية فإن الإدارة بحاجة لزيادة قوتها العقلية زيادة تعاظمية.

كمثال على ذلك: إذا احتاجت المؤسسة لبرنامج كمبيوتر لها، وتم تصميم البرنامج عن طريق شخصين في عشرة أيام، ثم بعد ذلك زادت تشابكات المؤسسة إلى الضعف فإن تصميم برنامج الكمبيوتر اللازم للمؤسسة قد يحتاج إما إلى ثمانية أشخاص في عشرة أيام أو لشخصين لينجزوه في أربعين يوماً.

هذا القانون تراه واضحاً عندما تزداد نشاطات الشركة أو يزداد فروعها. وعند هذه الحالة فإن الشركة بحاجة إلى قوة عقلية متضاعفة عن ذي قبل. وقد تكون تلك القوة اللازمة هي نظام إداري مناسب، أو زيادة في عدد الموظفين، أو زيادة في المهارات الإدارية ، الخ.

رجوعاً إلى دوائر الانهيار، فإن تضافر ثلاث دوائر انهيار أو أكثر في مؤسسة صغيرة فإن قانون التأخير وقانون التشابك قد يكونان أكبر من قدرة المؤسسة الصغيرة على الصمود فيكون الانهيار الكامل.

إن هذا الموضوع في غاية الأهمية لأنه السر في نجاح الفخاخ السياسية. فالمهارة السياسية للدولة هو في كيفية خلق دوائر التعاظم عندها مع الإحاطة بدوائر الانهيار، وكيفية خلق وحث دوائر الانهيار عند الدولة العدو.

فالخلافة العثمانية كانت في دوائر انهيار متعددة وقد استطاع السلطان عبد الحميد تأخير الانهيار ولكنه لم يستطع أن يعالج دوائر الانهيار ذاتها، ثم قام الاتحاد والترقي بالانقلاب على السلطان عبد الحميد. ولم يكن الاتحاد والترقي السبب في انهيار الدولة العثمانية إنما كان الأداة لهذا الانهيار، بمعنى لو أن السلطان عبد

الحميد قد انتبه لمـؤامرة الاتحـاد والترقـي فـسوف يـأتي غيـرهم لتحقيـق دوائـر الانهيار. أما الإنجليز فما فعلوه هو تسريع دوائـر الانهيـار كـي تتحقـق قبـل قـدرة الخلافة على الانتباه لها ومعالجتها.

ومثال آخر هو الاتحاد السوفييتي. ويقول البعض إن سبب انهيار الاتحاد هـو أن جورباتشوف كان عميلاً للمخابرات الأمريكية، وهذا مستبعد تماماً فلـم تكـن المخابرات السوفييتية ولم يكن الجيش السوفييتي بهذا الغبـاء والـسذاجة ليـتمكن عميل من السيطرة والبقاء في الحكم. كل ما حـدث هـو أن دوائـر الانهيـار كانـت تدور في الاتحاد السوفييتي، وعندما جاء جورباتـشوف فإنـه جـاء بأفكـار جديـدة وفلسفات منطقية ولكن الطريقة التي طبق فيها هذه الأفكار قد عجلت مـن دوائـر الانهيار وكانت أقوى وأسرع من قدرته على الصمود. وكـل مـا فعلتـه المخـابرات الأمريكية هو تشتيت انتباه السوفييت وتبديد قوتهم العقلية، وخلـق وحـث دوائـر انهيار أخرى في جسم الاتحاد.

◘ مهارة القفز فوق عتبات التوازن:

ضمن قوانين التعاظم الثلاثة فإن أي نظام سينتهي إلى الانهيار حتى وإن كانـت هناك إدارة جيدة. فأي نظام جيد سيبدأ بالتعاظم ثم يتباطأ التعاظم بنسبة تعتمد على مهارة الإدارة ولكن سيأتي الوقت الذي يصل فيه النظام إلى حالة التوازن، ثـم تبـدأ عملية الانهيار.

والسؤال هنا هو كيف يمكن أن نجعل حركة التعاظم مستمرة وكيف يمكن أن نمنع تماما حركة الانهيار؟

وكان الجواب في الأدبيات الإداريـة هـو مهـارة القفـز. والفكـرة هـي أنـه في اللحظة التي تتباطأ دائرة التعاظم فإنـك تعـد العـدة لخلـق دائـرة تعـاظم أخـرى.

وهكذا تبدأ الكرَّة مرة أخرى، وكل ما تفعله هو أنك تقفز من دائرة وصلت إلى حالة التوازن إلى دائرة أخرى بدأت من جديد.

كمثال على ذلك هو أنه إذا كانت كلفة صناعة الجهاز هي ٥٠٠ درهم، وبعد البحث والتجربة تم التوصل إلى طريقة مبتكرة وخلاقة تجعل كلفة الصناعة هي ٥٠ درهماً، فأنت في هذه الحالة قد قفزت إلى دائرة تعاظم أخرى.

الطريقة الأساسية لعمل سياسة ناجحة للقفز هي في خلق إدارة متكاملة ومستقلة للبحث والتطوير. وبغير هذه الإدارة فقدرة القفز تكون عشوائية وغير مستقرة.

◘ نقاط الحث:

هي ظاهرة تم الانتباه لها بعد بحث قام به أحد علماء المناخ (Edward Lorenz)، إذ وجد أن قوانين الرياح في غاية التعقيد، وأنه من الصعب جداً الإحاطة بها، وأنه وجد أن أسباب صغيرة تحدث في منطقة قد تؤثر على حركة الرياح لمنطقة مختلفة تماماً، فكانت الكلمة المشهورة: هل يمكن لفراشة تصفق في اليابان أن تسبب إعصاراً في أمريكا.

كان هذا انتباهاً لعلماء الأنظمة فقد وجدوا أن هذه الظاهرة موجودة في كثير من الأنظمة، فهناك نقاط في النظام إذا تم حثها ولو بقوة صغيرة فإنها قد تكون سبباً لنشوء دوائر التعاظم أو الانهيار.

مثال ذلك هو الحطب، فإذا وضعت قليلاً من البنزين في أحد أطرافه فإن شعلة صغيرة كافية أن تشعل الحطب كله.

وهذا أيضاً وارد في الأنظمة الإنسانية، فهناك أحداث صغيرة حدثت في التاريخ كانت هي السبب في حث دوائر التعاظم أو الانهيار في النظام. فمثلاً قيام جاليليو

بوضع المنهج العلمي في البحث والتحليل كان أحد الأسباب الرئيسية في سرعة التطور العلمي عند الغرب. وكذلك فإن اغتيال ولي عهد النمسا هو الحدث الذي أشعل الحرب العالمية الأولى. وكان قرار القيادة السوفييتية بالوفاق مع أمريكا سبباً في حث دوائر الانهيار في الاتحاد السوفييتي.

قد يظهر بعض التعارض بين هذا الموضوع وسعة الصدر. فكما تم الحديث سابقاً، فإن سعة الصدر تتعلق بالاهتمام بالأمور الحيوية والتسامح بالأمور الفرعية. ولكن فكرة نقاط الحث تفيد أنه يمكن لأمور وأحداث فرعية أن تحث دوائر الانهيار. السؤال هنا: كيف يمكن أخذ الموضوعين بالتوازي؟ أي كيف يمكن أخذ سعة الصدر وفي الوقت نفسه عمل نظام كفيل بإحاطة دائرة الانهيار التي قد تسببها أحداث فرعية؟

الحل يكمن في برودة الأعصاب للقيادة والذكاء الجماعي للمجتمع. فبرودة أعصاب القيادة كفيل لها بالانتباه لدوائر الانهيار الحقيقية، كما أن الذكاء الجماعي للمجتمع كفيل له بالمرونة اللازمة للإحاطة بدوائر الانهيار قبل تفاقمها. وهذا يرجعنا مجدداً إلى ضرورة تقوية الذكاء الجماعي في الأجهزة الإدارية بشكل خاص والأمة بشكل عام.

إن ديناميكية المجتمع في غاية التعقيد ولهذا كانت الضرورة لتعلم مهارات التحليل الديناميكي، لأن هذه المهارات هي التي تستطيع تنبيهنا إلى ديناميكيات المجتمع ودوائره المختلفة. أما من يتعامل مع ديناميكية المجتمع بسذاجة فهو كمن يبتعد عن المدينة ويبتعد ويبتعد ولا يدري أنه قد بدأ يقترب منها ولكن من الجهة الأخرى، أو كرجل لا يدرك ديناميكية البندول وضرب كرتها فيها ولاحظها تبتعد واطمأن وإذا بالكرة جاءت إليه وضربت رأسه.

وإن هناك ديناميكية هي أشد تشابكاً من ديناميكية المجتمع، وهي ديناميكية الإسلام:

قال رسول الله ﷺ: «عليكم هديا قاصدا فإنه من يشاد هذا الدين يغلبه» رواه أحمد في باقي مسند الأنصار. وقال ﷺ: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق» رواه أحمد في باقي مسند المكثرين.

إن نظام الإسلام يتعلق بنظام الفرد والمجتمع والدولة وهو بهذا يجمع على الأقل ثلاث ديناميكيات. وللتشابك الشديد في ديناميكية الإسلام فإن التلاعب أو التعامل مع الإسلام بسذاجة هو أمر فيه كل الخطورة، فمن يتلاعب مع ديناميكية متشابكة أو يتعامل معها بنظرة الهاوي فهو لن يدري من أين تأتيه الضربات منها.

وقد تلاحظ أن القرآن كان شديد الانتقاد للكفر، وكبائر الإثم والفواحش (كالزنا، والربا، الخ). ولكن هناك أمر آخر كان شديد الانتقاد له وهو تحريم ما أحل الله. قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾(٨٧-المائدة)

﴿ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ (١١٩-الأنعام)

﴿ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾(١٤٠-الأنعام)

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴾(١٥٠-الأنعام)

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ (٥٩-يونس)

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (٣٥- النحل)

﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ (١١٦- النحل)

إن العزم الذاتي هو جزء ملاحظ في طبيعة الإنسان. والعزم الذاتي هو رغبة الإنسان بتوسعة مفاهيمه وبصورة قد تكون آلية. وهذا العزم الذاتي جيد في الفلسفات والعلوم الدنيوية ولكنه غاية في الخطورة في الأحكام الإسلامية، فمثلاً عندما حرم الله الزنا فإن العزم الذاتي لبعض الناس قد أوحى لهم أنه من الأفضل الامتناع عن النساء، كما أن فرض الصلاة وسن النوافل قد أوحى للبعض بأن الصلاة ليل نهار هو أفضل الأعمال، كما أن تحريم الذهب قد أوحى لبعض الناس أن الألماس ومادة البلاتين حرام لأنها أغلى من الذهب.

النقطة هنا أنه يجب الحذر جداً من تحريم أمر أو فرض أمر ليس له أدلة واضحة وإلا فهذا تلاعب بديناميكية الإسلام، وكأي ديناميكية متشابكة فإن ردة فعلها تكون قاسية وغير متوقعة.

وقد تكون إحدى سخريات القدر التي سيسجلها التاريخ أن تلاعب الغرب ومكرهم مع ديناميكية الإسلام هو أحد الأسباب الرئيسية لنهضة المسلمين وصعودهم. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ (٥٤-آل عمران).

إن أكثر الغرب إدراكاً لقوة الإسلام هم الإنجليز. ولكن لم يكن إدراكهم كاملاً

لديناميكيته. فقد استطاع الإنجليز وبمكر شديد أن يحطموا الخلافة العثمانية. ولم يدرك الإنجليز أن الخلافة الراشدة الثانية لا يمكن لها أن تقوم على أساسات الملك العاض. وأن قيامتها لا تكون إلا بتحطيم أساسات الملك العاض تحطيماً تاماً: قال رسول الله ﷺ: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون ملكاً عاضاً فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون ملكاً جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة» رواه أحمد في مسند الكوفيين عن حديث حذيفة بن اليمان.

وأوهم الغرب المسلمين بأوهام القومية والوطنية حتى أوصلوهم إلى عنان السماء. ولم يدرك الغرب أن من يصل إلى عنان السماء بأعمدة واهية سيسقط. ولا يدرك الغرب أن المسلمين إذا سقطوا استيقظوا.

ووضع الإنجليز اليهود في فلسطين حرساً لهم. ولم يدرك الإنجليز أن اليهود شعب أحمق، وأن حماقتهم هي التي أيقظت المسلمين من سبات طويل.

واحتل اليهود القدس، وكان ذاك اليوم عيداً لهم. ولم يدرك أحد منهم أن هذه الصدمة كانت كافية لبعث الحياة في العالم الإسلامي. ولم يدرك أحد منهم أن المعركة الحقيقية قد بدأت ذلك اليوم.

وعندما انتبه الغرب إلى بدايات وعي المسلمين انهالوا عليه بالإحباطات حتى ييأس. ولم يدرك الغرب أن اليأس إذا زاد حده في الصدور انقلب غضبا لا يعرف غفراناً ولا نسيان.

وبدأ الاستيقاظ في العالم الإسلامي بطيئاً ثم تسارعت إليه الحياة وتسارعت أكثر، فما من يوم مر بعد يوم النكسة إلاّ والمسلمين أفضل حال من اليوم الذي سبقه إيماناً وعبادة وعلماً ومهارة ووعياً.

وتسارعت الأمور في الثمانينات وتسارعت أكثر في التسعينات وفي بداية هذا القرن أصبح الحديث علناً عن خطر المسلمين وعن ضرورة الإحاطة بهم.

لا أقول أني أعرف المستقبل، ولكني أعرف كيف أقرأ الماضي وأعرف رسم البيان لأحداثه، فإذا استمر هذا التسارع في زخمه فإن العالم مقبل على انعطافات حادة في السنوات القليلة القادمة ترفع بإذن الله المستضعفين في الأرض وتنزل بإذن الله المستكبرين فيها.

◄ المنهج الاستراتيجي في البحث والتحليل:

الاستراتيجية بمعناها الإداري تعني «بعيدة المدى»، فقولك: شراكة استراتيجية تعني شراكة بعيدة المدى، وقولك: خطة استراتيجية تعني خطة بعيدة المدى.

لماذا التخطيط الاستراتيجي؟

الإجابة الأولى وهي أن الإنجازات الضخمة لا تقوم في يوم وليلة، وإنما تحتاج إلى جمع الطاقات والموارد وتحتاج أن تتم الأمور خطوة - خطوة.

الإجابة الثانية وهي تعتمد على نظرية الأنظمة الديناميكية السابق ذكرها:

في الشكل التالي فإن قيامك بحرف السفينة إلى الهدف يتطلب إزاحة ضخمة في الزاوية، ولكن زاوية الازاحة في الشكل الذي يليه لا يحتاج إلاّ إلى الدرجة البسيطة.

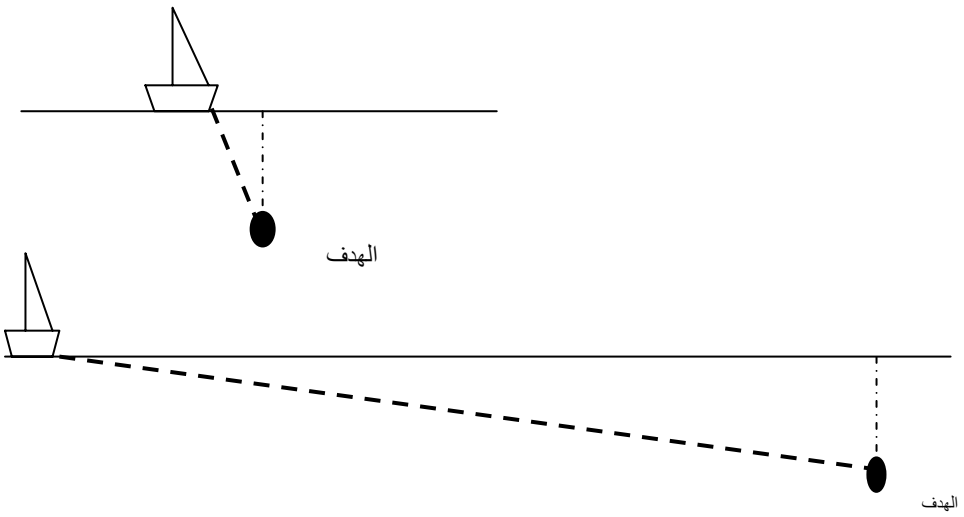

وهذه هي اللعبة في التخطيط الاستراتيجي، فإذا استطعت أن تحدد الهدف وبدقة على بعد مئات الأميال فيكفي أن تحرف السفينة نحو الهدف وبدرجات قليلة وبجهد بسيط، وبعدها تعتمد على العزم الذاتي للأنظمة ودوائرها للوصول إلى الهدف.

التخطيط الاستراتيجي يتطلب أن تحدد الهدف الذي تريده، ثم تنظر إلى الماضي البعيد والظروف الحالية لكي تستطيع أن ترى الخط الطبيعي للمستقبل، ثم تقوم بتنظيم الموارد والأنظمة المتوفرة لديك كي تستطيع حرف خط المستقبل نحو الهدف.

المهارات المطلوبة لتحقيق هذا الخطة عالية، فيجب أن يكون هناك القدرة على الارتفاع عالياً جداً كي تستطيع أن ترى خط الماضي وترسم منه الخط الطبيعي للمستقبل، كما يجب أن تنزل إلى التفاصيل الدقيقة المتعلقة بالموارد المتوفرة وطبيعة الأنظمة المحيطة حولك، وأن تكون هناك العقلية القادرة على الاستفادة من كل قوة الموارد والأنظمة مع الإحاطة بالأضرار المتوقعة منها وذلك للوصول إلى هذا الهدف.

وربما يكون التخطيط الاستراتيجي المتعلق بالمؤسسة الصغيرة سهلاً ويمكن للمدير الإحاطة بها، أما التخطيط الاستراتيجي المتعلق بالمؤسسة الكبيرة أو الدولة فليس بهذه السهولة، ولهذا فالتخطيط الاستراتيجي للدولة هي مسئولية جهاز كامل وليست مسئولية فرد. وعلى أعضاء الجهاز أن يكونوا ذوي مهارات وطبائع مختلفة كي يستطيعون النظر والإلمام بكل متطلبات الخطة.

وهنا نرجع إلى الموضوع الأهم في هذا الكتاب: ضرورة رفع مستوى الذكاء الجماعي في الأجهزة الإدارية بشكل خاص، والأمة بشكل عام، إذ إن الطبائع المختلفة

لا يمكنها التعامل بانسجام إلاّ إذا كان الجهاز الإداري ذا ذكاء جماعي مرتفع.

ثم تأتي مرحلة التنفيذ، وهي أشد صعوبة من التخطيط، وذلك لأنها تتطلب من القيادة التحكم الكامل في أعصابها ومشاعرها، فيجب عليها الصبر وقت الانتظار، وعليها السرعة وقت سنوح الفرصة، وعليها إزالة العقبات من وجه الخطة، وعليها أن تكون على الاستعداد لتغيير الخطة إذا ثبت عدم جدواها.

وحيث إن الخطة الاستراتيجية هي نتاج لجهود مجموعة من المحترفين وتمت صياغتها بعد ساعات وأيام وأشهر من المداولة بينهم فإن أسوأ القادة السياسيين هو من يقوم بالتعديل والتغيير في هذه الخطة بسبب مشاعر آنية واندفاعات عاطفية.

إن برودة الأعصاب والعمل الاستراتيجي لا ينفصلان أبداً، وإذا كانت لك القيادة لهذه الأمة ولم يكن عندك برودة الأعصاب فاتركها ودعها لغيرك تفعل للأمة كل الخير.

١٠ ـ كيفية نشر المهارات الإدارية والذكاء الجماعي

المهارات السابق ذكرها تحتاج إلى التدريب، وقد يستطيع البعض تدريب نفسه من الكتب ولكن الأعم الأغلب أن الكثير يحتاج إلى تدريب عملي من شخص مختص. إن من يتعلم السباحة من الكتب سيكون له سعة إدراك عالية لهذه المهارة ولكنه لن يتقنها إلاّ إذا تدرب عليها. وكذلك المهارات السابقة، فإن الكتب قد تعطي سعة الإدراك فيها، ولكنه من الضروري التدرب عليها. ولهذا السبب فمن الضروري مناقشة فلسفة التدريب.

فلسفة التدريب:

المؤسسات بعمومها لا تحب التغيير. والمقصود هنا هم العاملون في المؤسسة، بل في غالب الأحيان فإن العاملين في المؤسسة سيقاومون التغيير إما صراحة أو سياسة (أي أن المقاومة ليست صريحة ولكنها في الخفاء)، أو بشكل غير واعي (أي أن المقاومة غير صريحة وغير مقصودة). ولهذا السبب فيوجد موضوع مستقل في العلوم الإدارية اسمه إدارة التغيير (Change Management).

لنفترض أن هناك توجها لإعطاء أحد المؤسسات مهارات جديدة. هذا في واقعه تغييراً في ثقافة المؤسسة، ولهذا ينطبق عليها قانون التغيير. ولهذا فإنه من المتوقع أن تكون هناك مقاومة من العاملين في المؤسسة تجاه هذه المهارات (أيا كانت). وبالطبع فإن أسلم المقاومات هي المقاومة غير الواعية وهي التي سنقوم بدراستها الآن:

لنفترض أنك وضعت برنامجاً تدريبياً لعشرين موظفاً عن موضوع إدارة

الفرق ونجاحها، فغالب الظن أن أكثر من نصف الحاضرين لم يكن مهتم بهذه الدورة وأنه قد حضرها لأجندة خاصة (لإرضاء الإدارة، أو لأخذ الشهادة، الخ)، وبعد انتهاء الدورة فربما يكون قد تأثر بها خمسة، وبعد أسبوع من الدورة فربما ما زال يتذكرها ثلاثة، وبعد شهر فإنه من التفاؤل أن نقول أن واحداً فقط لا يزال يتذكرها.

ما سبق هو أمر طبيعي وهو يقع ضمن قانون التغيير. ولهذا السبب فإن كانت المؤسسة تريد تطوير عامليها عن طريق دورة تدريبية فهي قد خسرت المال والوقت.

التغيير بشكل عام والتطوير بشكل خاص بحاجة إلى خطة تكون الدورات التدريبية جزءاً منها. أي أن الدورة تخدم خطة التطوير، وليست الدورة التدريبية هي التطوير.

الخطة التدريبية هي كأي خطة إدارية بحاجة إلى الدراسة والموارد والالتزام من الإدارة العليا، ولكن هناك ثلاثة أمور أساسية في خطط التطوير لا بد من الانتباه لها:

١) الدورات التدريبية:

الدورات التدريبية تقوم بشرح المهارات. وبالطبع فإن بعض الأشخاص سيستفيدون من الدورات ويأخذون منها المهارات ولكن بشكل عام (كما ذكر سابقاً) فإن الدورة التدريبية لا تقدم مهارات، وإنما تقوم بعمل الأساس للمصطلحات والمفردات والأفكار المتعلقة بهذه المهارات. هذه المصطلحات والمفردات ستكون مفيدة جداً لرائدي التفاعل والتأثير.

٢) رائدو التفاعل والتأثير.

رائد التفاعل والتأثير هو شخص في المؤسسة يظهر عليه القدرة والرغبة في

استخدام المهارات الجديدة فيتم تنظيمه في لجنة التفاعل والتي وظيفتها التذكير في هذه المهارات وإبقائها حية في النفوس. كما ذكر سابقاً فإن الدورة التدريبية لا تقدم المهارات ولكنها تأسس لمصطلحات مشتركة عن هذه المهارات، ولذا فعندما يتحدث رائد التفاعل عن هذه المهارة فإنه على الأقل يتكلم بلغة يفهمها الآخرون. ويجب على خطة التطوير أن تضع للجنة التفاعل الموارد اللازمة لعملها بحيث تستطيع هذه اللجنة أن تقوم بتوجيه المؤسسة خطوة-خطوة نحو المهارات الجديدة.

يجب التنبيه أن على رائدي التفاعل أن يستخدموا أسلوب النصيحة الحسنة دون استفزاز أو تجريح، إذ إنه إذا تم نشر المهارات بالاستفزاز فإن الذي يحدث في المؤسسة هو مقاومة لهذه المهارات الجديدة إما صراحة أو سياسة، ولهذا السبب فلا بد من وجود نظام للجنة التفاعل تحدد أسلوب وطريقة هذا التفاعل كي تَحُدَّ من هذه الاستفزازات.

٣) تكرار الدورات التدريبية.

يجب تكرار الدورة التدريبية بين الحين والآخر. وليس بالضرورة تكرار نفس الدورة وإنما عمل دورة أخرى بعنوان آخر يكون مضمونه مشابهاً للدورة الأساسية. السبب في ذلك أنه بعد مرحلة من التفاعل فإن موظفين آخرين (أو نفس الموظفين السابقين) سيكون لديهم اهتمام أكبر، وعند انتهاء الدورة سيكون هناك أعضاء جدد في لجنة التفاعل، وهكذا تنتشر المهارات خطوةً-خطوة في أطراف المؤسسة.

كان ذلك عن نشر المهارات في المؤسسات، ولكن نفس الفكرة يمكن تطبيقها لمجموعة من الأصدقاء. فإذا اجتمع مجموعة من الأصدقاء بينهم

شخص متمكن من المهارة فإنهم قادرون أن يحددوا يوماً في الأسبوع أو يوماً في الشهر للتدرب والتذكير لهذه المهارة.

أما بالنسبة للأمة فوجود مراكز التدريب وتوفر الكتب لا يكفي لنشر المهارات الإدارية والذكاء الجماعي. وإنما الأمر بحاجة إلى كتلة أو تجمع يتولى هذا الموضوع. والمهارات الإدارية والذكاء الجماعي لا يقع ضمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإنما يقع ضمن الدعوة إلى الخير في قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران-١٠٤). والدعوة للخير تتطلب الحكمة والنصيحة الحسنة دون استفزاز أو لُحاح أو انتقاد.

على أية حال، نشر هذه المهارات لا يحتاج إلى كتلة مركزية كما لا يحتاج إلى نظام مركزي ولا يحتاج إلى قيادة ولا إدارة ، بل أي مجموعة من الأصدقاء المهتمين في هذا الموضوع قادرون على أن يشكلوا كتلة صغيرة (نادي أو جمعية أو ملتقى الخ) لتذكير ونشر هذه المهارات في الأمة قدر استطاعتها، وكلما زادت هذه الكتل كلما تسارعت جهود التفاعل وكلما ازدادت هذه المهارات في الأمة.

إن ما سبق كان لنشر المهارات الإدارية في المؤسسة والأمة وبشكل تدريجي وبأسلوب الخطوة-خطوة.

على أية حال، هناك أسلوب سريع جداً في تطوير المهارات الإدارية للمهتمين وهو أسلوب الألعاب الإدارية .

وهذا الأسلوب هو عبارة عن قيام مجموعة من الأفراد، تحت إشراف مركز تدريبي، بمهمات محددة لمدة بين يوم إلى أسبوع. وتكون هذه المهمات قد صممت بطريقة تخلق التوتر والضيق والغضب الحقيقي لدى هؤلاء الأفراد كلهم. والهدف هو إخراج الطبائع الحقيقية لدى هؤلاء الأفراد إلى الضوء وإظهار

تأثير هذه الطبائع على الأداء الإداري والسلوكي لديهم. وهـذه هـي النقطـة، فبعـد ظهور هذه الطبائع وتبيان تأثيرها فإن العقل قادر على وضع الأصبع على نقاط القوة والضعف في طبائعه، وعندها يكون أقدر على تطـوير طبائعـه واسـتدراك الـضعف فيها. إن الاستخدام الجيد للألعاب الإدارية كفيل بزرع مهارات عدة في أيام قلائل مقارنة بالأساليب التقليدية والتي تحتاج إلى الشهور من الممارسة.

وضمن معلومات المؤلف فقد أراد مجموعة من المتطوعين من فترة قريبة في أوروبا القيام برحلة استكشافية إلى القطب الـشمالي، وكـان مـن أول الأمـور التـي فعلوها هو الالتحاق بدورة تدريبية متعلقة بمهارات التنفيـذ تحـت ضـغط التـوتر الشديد. وكان الجزء الرئيسي في الدورة هـو لعبـة إداريـة صـممت بحيـث تخلـق الضيق والتوتر الشديدين. وكان ميزة اللعبة أنها توفر مختبراً آمناً لملاحظة السلوك عند التعامل تحت ضغط التوتر مما ينبه الجميع إلى الأمور التي يجب اسـتدراكها. وعليه سيكونون أقدر على التعامل كفريق عنـدما يواجهـون التنفيـذ تحـت ضـغط التوتر في العالم الحقيقي.

خاتمة الكتاب

هل الإسلام هو الحل، أم الإسلام والاحتراف هو الحل

إذا أخذ الهاوي غير المحترف السيف البتار فإن هذا السيف سيكون وبالاً عليه وعلى من حوله، أما إذا أخذ الماهر المحترف سيفاً من خشب فإنه لن يصل إلى القمة ولكن سيصنع بهذا السيف العجب، أما إذا أخذ الماهر المحترف السيف البتار فإنه سيشق به الجبال والبحار حتى الهدف.

وكذلك الإسلام، فإذا طبقه جماعات ودول لا دراية لهم بمهارات الإدارة والتنظيم، فإن الكفر سيمكرون بهم كما مكروا بمن كان قبلهم.

أما إذا طبقت دولة ذات دراية ومهارة واحتراف نظاماً غير الإسلام فإنها لن تصل إلى القمة ولكنها ستصنع العجب، وهذا ما هو حاصل في بلاد الغرب.

أما إذا طبقت الإسلام دولة ذات مهارة واحتراف فإنها ستشق الجبال والبحار ولن يقف في وجهها أحد، وهذا ما نريد الوصول إليه.

ولهذا السبب فإن الحل هو الإسلام والاحتراف!!!

وأهم المهارات للوصول إلى الاحتراف هو الذكاء الجماعي، وهي المهارة التي ستمكننا نحن المسلمين من تمييز الأساسي من الفرعي، ومن تقوية الألفة والوئام بين بعضنا البعض، وتسمح لنا بتمحيص الأمور وتقليب الآراء دون خوف من شبح الشقاق والصراع فيما بيننا.

الهدف الأساسي من هذا الكتاب هو محاولة التوضيح أن المسلمين لا يمكنهم الاتفاق على الفروع لأن الفروع تعتمد على أدلة ظنية، ولأن الإسلام قد

أجاز الاختلاف في فهمها. ولهذا فإن الطريقة الوحيدة والتي يمكن فيها أن يكون المسلمون قوة واحدة مع اختلافهم في الفروع والآراء هو تحقيق الشعار التالي:

الاتحاد في الطريق وسعة الصدر في النظرات.

ولتحقيق هذا الشعار فلا بد من رفع الذكاء الجماعي عند الأمة.

الملحقات

- المنهج العلمي ووجود الله والرسالة المحمدية
- الغيبيات القرآنية والنظريات العلمية
- البرمجة اللغوية العصبية
- تفسير جديد لآية النصر

الملحق الأول :

◄ **المنهج العلمي وإثبات وجود الله:**

كثير من البراهين العقلية الموجودة في إثبات وجود الله هي إثباتات تعتمد على المسلمات. والمسلمات هي أفكار أخذها الشخص مأخذ التصديق الكامل. وإذا اتفق الاثنان على المسلمات فإن النتيجة تكون واضحة وصريحة. ولكن إذا اختلفوا في المسلمات فإنه من السهل جداً الجدال فيها، إذ تعتمد المسلمة على الوجدان كقول الأعرابي «البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا تدل على العزيز الخبير».

في حين أن المنهج العلمي لا يعتمد على المسلمات وإنما يعتمد على الاختبار، ولهذا السبب فالجدل فيه محدود. ولهذا فالنتيجة هو إما أن يتبنى الرجل نتيجة الاختبار أو يرده.

لاستخدام المنهج العلمي في إثبات وجود الله تعالى سنستخدم الاختبار الإحصائي:

الفرضيات: ١) هذا الكون تم نظامه بالصدفة.

٢) هذا الكون تنظمه قوة خارجية.

الملاحظات:

الكون عبارة عن أنظمة مستقلة ولكنها متضافرة، فالحياة كي تتحقق في الأرض كان لا بد للأرض والنظام الشمسي من أن يتصف بمقادير معينة،

فالأرض لو كانت أقرب إلى الشمس لما كان هناك حياة، ولو أنها كانت أبعد لما كان هناك حياة. ولو لم يكن هناك كوكب كبير كالمشتري يحرف المذنبات والنيازك عن الأرض لتعرضت الأرض لضربات كبيرة قاضية من النيازك. كما أن الحياة تعتمد على الأوكسوجين والماء، ولو لم يكن هناك نظام لتواجدهما باستمرار على الأرض لما كان هناك حياة. وكذلك الإنسان، فقد اقترن وجوده بتضافر أنظمة مستقلة فيه كالنظام الهضمي والعضلي والعصبي وغيرها.

والسؤال هنا هو: ما هي احتمالات الصدفة في وجود نظام الكون؟

ولكن لحساب احتمالات الصدفة للكون علينا أن نعرف جميع الأنظمة فيه وهذا أقرب للاستحالة، ولكن يمكن عمل اختبار مُؤشر.

الاختبار المؤشر:

عندما تقوم بفنة العملة فأنت تحصل على أحد الاحتمالين: إما على صورة وإما على كتابة. والاختبار المؤشر هنا هو معرفة احتمالات الصدفة في نظام يقوم فيه عشرة أشخاص بفنة العملة كل خمسة دقائق ولمدة ساعة، ولكن في كل مرة يقومون بالفنة فإنهم يحصلون على صورة.

الاختبار السابق هو نظام يحتوى على عشرة أنظمة مستقلة ولكنها متضافرة لانجاز عمل وهو سقوط العملة دائماً صورة كل خمسة دقائق ولمدة ساعة. والسؤال هنا: ما هي احتمالات أن تكون الصدفة هي السبب في نجاح النظام السابق في إنجاز عمله؟.

بالطبع فإن تشابك الكون أضخم بكثير جداً من النظام السابق فهو يحتوى على الملايين من الأنظمة المستقلة والتي تتضافر منذ أربعة بلايين سنة. وبالتالي فإن نسبة الصدفة في الكون ستكون أقل بكثير جداً من نسبة الصدفة في الاختبار، ولهذا

فإن نسبة الصدفة في الاختبار تصلح أن تكون مؤشراً.

احتمالات أن تكون الصدفة هي السبب في نجاح نظام فنة العملة هو ٧ ضرب (١٠ للقوة -٣٧). أي فاصلة ويمينها ٣٦ صفراً ثم سبعة.

عندنا الآن عدد يمثل احتمال الصدفة في نظام العملة، وهو أكبر بكثير جداً من احتمال الصدفة في نظام الكون، والسؤال هنا: هل إمكانية الصدفة في نظام العملة معقول ومقبول أم أنه غير معقول وغير مقبول.

هناك صفة في المنهج العلمي أنها لا تفرض إجابات مفحمة ولكنها تقدم نتائج اختبار وتعطي المسئولية للشخص خصوصاً في الأمور الخطيرة الحاسمة. فمثلاً إذا كانت هناك مادة طيبة الرائحة ولكن أظهر الاختبار أن هناك احتمال بنسبة ٩٩٪ أنها سامة وسمها مميت، فإن هذا الاختبار يقدم النتيجة ويعطي المسئولية للرجل. فإذا قرر الرجل هوىً وإكبارا أن يتناولها ومات فلا يلومن إلا نفسه، وليس له عذر فيه. أما إذا تناولها ولم يمت فهو محظوظ جداً وليس له عذر أو ذكاء أو مهارة.

وهذا هو المطلوب من المنهج العلمي في الاختبارات الإحصائية: فهو يتحقق من سلامة التجربة وموضوعيتها، ويحدد نسبة الاحتمال، ويُعطي للإنسان المسئولية المترتبة على هذه النتيجة.

بالنسبة إلى المؤلف فإن احتمالية الصدفة في التجربة السابقة غير مقبولة ولهذا السبب فإن المؤلف لا يقبل أن تكون الصدفة هي السبب في نظام الكون مما يجعله يقتنع بالفرضية البديلة. على أية حال فإن الرجل الذي يقبل احتمالية الصدفة لنظام الكون هو حر. وهنا نظرة المؤلف وهي أن الإنسان في النهاية مسئول بحدود علمه وإمكانياته. وإذا ظهر أن هناك خالق لهذا الكون وأنه هناك يوم القيامة فإن موقف هذا الرجل لن يكون مريحا.

◄ **المنهج العلمي وإثبات الرسالة المحمدية:**

الفرضيات: ١) إنجازات محمد (ﷺ) هي إنجازات متفوقة ولكنها ضمن قدرة وطبيعة الإنسان.

٢) إنجازات محمد (ﷺ) هي إنجازات خارجة عن قدرة الإنسان وطبيعته.

الملاحظات:

هناك حوالى ستة آلاف سنة من التاريخ المسجل. وخلال هذه المدة عاش في الأرض الملايين والملايين من البشر. وضمن ملاحظات التاريخ، فإنه ما من أحد تفوق في مهارة أو عمل إلا وكان له شبيه في تفوقه ومهارته. وما من أحد عمل عملاً إلاّ استطاع أحد آخر أن يعمل شيئاً شبيهاً له أو يتفوق عليه.

مثال ذلك إذا نظرنا إلى الانجازات العسكرية، فيمكن أن نقول أن الاسكندر هو أكثر القادة العسكريين إنجازاً ومهارة، ولكن هناك من يشبهوه في إنجازاته ومهاراته، فكورش، وجنكيزخان، وأتيلا، ويوليوس قيصر، وغيرهم يشبهون الاسكندر في مهاراته وانجازاته، ويمكن القول إن الاسكندر يتفوق عليهم ولكن الآخرين قريبون منه. وكذلك إذا نظرت إلى العلوم، فيمكن أن تقول أن آنشتاين هو أكثر العلماء الفيزيائيين إنجازاً ومهارة، ولكن إذا نظرت لوجدت أن هناك الكثير من يشبهه في إنجازاته ومهاراته، فأرخميدس، وفيثاغوروس، وجاليليو، ونيوتن، وغيرهم إن لم يتفوقوا عليه فإنهم قريبون من درجة إنجازاته ومهاراته. وهذا ينطبق على كل الانجازات الإنسانية كالموسيقى والأدب والرسم والإنشاء والهندسة وغيرها.

فالملاحظة هنا هو أن أي إنسان له مهارات ووصل إلى انجازات فإن المجتمع

الإنساني لا يمكنه إلا أن يأتي بإنسان آخر تكون مهاراته وإنجازاته قريبة أو متفوقة من انجازات ومهارات الأول.

ويمكن إثبات هذه الملاحظة باستعراض التاريخ وبأسلوب إحصائي.

وبالتالي فإن القول الفصل في الإثبات هنا هو إذا كان هناك شبيه لانجازات محمد (ﷺ) فإنجازاته تكون ضمن قدرة وطبيعة الإنسان. أما ثبت أنه ليس لانجازاته شبيه فعندها تكون إنجازاته ليست ضمن قدرة وطبيعة الإنسان، وأن إنجازاته هي حالة فردية في التاريخ المكتوب من البشرية.

الآن، ما هي إنجازات محمد (ﷺ):

١) لقد أقام ديانة، وهذه الديانة ما زالت قائمة وتنمو باضطراد.

٢) لقد أقام مبدأً تنبني عليها الأنظمة والقوانين والأفكار. وفي العالم الآن ثلاثة مبادئ واضحة: الرأسمالية، الشيوعية، والإسلام.

٣) لقد وضع الأنظمة والقوانين التي تعالج مشاكل الفرد والمجتمع والدولة.

٤) لقد أقام دولة وما زال أساسها قائماً.

٥) لقد أقام أمة وما زالت بكيانها ووجودها.

٦) لقد تحققت هذه الانجازات في حياته.

٧) ولقد مات عزيزاً في قومه.

أما مهارات الرسول ﷺ فقد مات الرسول وعنده مهارات عديدة قوية، ولكن هذه المهارات قد ظهرت فجأة ودون إنذار. فلقد عاش حياة هادئة مدة أربعين سنة، ولم يذهب إلى الجامعات ليدرس مهارات الإدارة والقيادة، ولم يقرأ عن تاريخ القادة ومهاراتهم وأخطائهم، بل كان أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ولم يأخذ أية مسئولية قيادية أو إدارية كي يأخذ منها الخبرة، وإنما كانت حياته هادئة ولم يشتهر

عنه إلا أنه صادق وأمين. ولو أنه مات قبل البعثة لما ذكره أحد في التاريخ. ثم جاءت البعثة وظهرت عليه المهارات فجأة ودون إنذار ولم تمر ثلاثة وعشرين سنة إلا والعالم غير العالم والناس غير الناس.

للاختصار سنأخذ الانجازات فقط دون المهارات، ولكنك تستطيع أن تختبر الاثنين معاً إذا أردت.

الاختبار:

من في التاريخ يشبه محمد (ﷺ) في إنجازاته والتي تحددت بالديانة، المبدأ، الأنظمة والقوانين، الدولة، الأمة، تحقيق الانجازات في حياته، والموت عزيزاً في قومه؟

إذا نظرت بعمق شديد في التاريخ فستجد النتيجة هي صفر. وإنما أقرب رجل لإنجازات الرسول ﷺ هو موسى عليه السلام: فلقد أنشأ ديانة، وضع أنظمة وقوانين، وأنشأ أمة، ولكنه لم يتمكن من إقامة الدولة ومات وحيداً مفارقاً لقومه.

وهنا نأتي لنتيجة الاختبار وهي أنه ما من أحد أبداً في التاريخ قد أنشأ ديانة وأقام مبدأً ووضع الأنظمة والقوانين وأقام دولة وأقام أمة وتحققت إنجازاته في حياته ومات عزيزاً وما زالت إنجازاته قائمة إلاّ محمداً (ﷺ).

وكما تم ذكره سابقاً، فإن المنهج العلمي لا يفرض إفحاماً وإنما يقدم نتيجة الاختبار ويعطي المسئولية للإنسان.

الملحق الثاني:

هناك نوعين من التعارض المجازي: الأول هو تعارض الحكم الشرعي مع النظرة العقلية المجردة، وكما تم بحثه سابقاً فإن هذا التعارض ليس حقيقياً، حيث إن مجال الحكم الشرعي لا يتداخل مع مجال النظرة العقلية. والنوع الثاني هو تعارض الغيبية القرآنية مع النظرية العلمية.

يجب الانتباه لما يلي:

١) المسلمون قد اقتنعوا وبأدلة واضحة بوجود الله وعلى خلقه وتنظيمه لهذا الكون.

٢) المسلمون قد اقتنعوا وبأدلة واضحة بصحة الرسالة المحمدية.

وعليه فإذا ظهر هناك تعارض بين غيبية قرآنية ونظرية علمية، فلا يجب أبداً أن نفقد برودة الأعصاب ونبدأ بالتوتر والشتيمة ونبدأ بالتوهم أن هذا قد يسبب تشكيكاً بالرسالة المحمدية، وذلك لأن الرسالة المحمدية قد ثبتت من أوجه مختلفة واضحة وصريحة. وأما التعارض مع النظرية العلمية فله الاحتمالات التالية:

١) أن يكون فهمنا للغيبية غير صحيح. مثال ذلك قول الله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا

فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ ﴾ (٣٤-لقمان)، فأخذها البعض فهماً أن الإنسان لا يمكنه معرفة جنس الجنين قبل ولادته. والذي حدث أن فهمنا لهذه الغيبية لم يكن صحيحا.

٢) أن تكون النظرية العلمية غير كاملة وغير دقيقة. ومثال ذلك قول الله تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ (٤٠- يس). ولم تكن هذه لتسبب أي تعارض مع أفهام الناس لأن الظاهر لهم أن الشمس تدور حول الأرض. ولكن عندما ظهرت النظرية التي تقول أن الشمس ثابتة وأن الأرض تسير حولها، فربما شعر البعض وقتها بعدم الراحة. ولكن في أوائل القرن العشرين فقد ظهر وبوضوح أن الشمس تدور حول مركز المجرة، وأن المجرة نفسها تسبح مبتعدة عن مركز الكون. فالنظرية بأن الشمس هي ثابتة كانت تطوراً عن النظرية السابقة ولكنها لم تكن كاملة.

هذه هي النقطة الأساسية : إن التعارض بين النظريات العلمية والغيبيات القرآنية ليس دليلاً على عدم صحة الرسالة المحمدية، فقد ثبتت الرسالة بطرق مختلفة، وإنما هي إشارة على أنه إما فهمنا ليس صحيحاً وإما النظرية العلمية ليست كاملة. ولهذا السبب فقيام البعض بالتوتر والشتيمة ومحاولة الدفاع المستميت، وهندسة العلوم لتبرير الغيبيات، هو ليس ضرورياً ولا صدقاً ولا برودة في الأعصاب.

بالطبع فإنه إذا ثبت أن أحدهم يعتمد هندسة النظريات للنيل من الإسلام، فإن الاعتداء يواجه بالعَداء، ولكن إذا كانت النظرية جدية ذات موضوعية فالأولى النظر إليها وببرودة أعصاب وإن أظهرت التعارض، فربما يكون فهمنا غير صحيحاً، وربما تكون النظرية غير كاملة ولكنها في الطريق الصحيح.

ولوجود أدلة واضحة وصريحة لصحة الرسالة المحمدية فإن الغيبيات القرآنية والعلوم النظرية سوف يتطابقان في النهاية. المشكلة هي أن النظريات العلمية لها طريقة سير منحنية تعتمد على القانون الأساسي في الحقائق العلمية وهو أنه «لكي تصل إلى الحقيقة فلا بد لك من أن تخطو إلى الخطأ». وأفضل مثال هو المثال السابق، فالنظرية التي قالت إن الشمس ثابتة في الكون هي نظرية خاطئة ولكنها كانت أكثر صحة من سابقاتها وكانت خطوة ضرورية للوصول إلى الحقيقة.

ولا يمكن نكران الفضل لبداية النظرية وإن كانت بدايتها خاطئة، وذلك لأنها كانت الحافز والدافع لتكملة البحث حتى الوصول إلى الحقيقة. وعليه فلا بد من النظر إلى النظريات العلمية المخالفة نظرة الصبر وبرودة الأعصاب، فإن للنظرية العلمية مسار خاطئ يجب أن تمشي فيه حتى تصل إلى الحقيقة.

النقطة الثالثة في هذا الموضوع هو أن غالب الأفكار المبدعة تأتي نتيجة لتلاطم الأفكار وتعارضها. ولهذا فإن وجود أي تعارض مجازي فالأولى أخذه فرصة لاستخراج الأفكار الخفية.

لنضرب الأمثال:

◄ ذي القرنين ومغرب ومشرق الشمس:

قال الله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ (٨٦) الكهف.

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ (٩٠) الكهف.

نقطة التعارض المجازي هنا أنه لو كانت الأرض مسطحة لكـان لهـا مغـرب ومطلع للشمس، وحيث إن الأرض كروية فإن كل نقطة بها هـي مـشرق ومغـرب للشمس.

وكل ما قام به المؤلف أنه راجع التفاسير المتعلقة في هذه الآيـات ثـم وضـع التعارض المجازي في أرشيف في عقله، حتى انتبه أن القـرآن للنـاس أجمـع ولكنـه نزل في مكة، وعليه فيمكن أن يكون لمكة مغرب ومطلع للشمس.

وللتشبيه: فإذا تخيلت الشمس كرة جاءت إلى الأرض بالحجم الذي نراه لها، وتحركت نحو الغروب، فأين تقع الشمس عندما تغيب عن مكة؟ أي السؤال هـو: أين هي المنطقة التي تكون في وقت الزوال حينما تغيب الشمس عن مكة؟

وعند عمل الحسابات فإن الشمس تغيب بين مدار السرطان ومـدار الجـدي. وتغيب عن مكة بحوالى خمسة إلى سبعة ساعات بعد الزوال. وعليه تكون الـشمس وقت الزوال في المحيط الأطلنطي، وأقرب مكان لها هو سواحل الصحراء الغربية وموريتانيا والسنغال.

وبعد البحث عن طريق الانترنت عن أي مدينة في الـساحل يكـون فيهـا عـين (ينبوع) ماء حامية، فوجـدها في مدينـة الداخلـة (Dakhla) في الـصحراء الغربيـة، وتقع مدينة الداخلة شمال مدار السرطان بـ ١٨كم.

أما تحديد مطلع الشمس فكان لا بد أولاً من تحديد المعنى من «لم نجعل لهم من دونها سترا»، وقد انتبه المؤلف لهذا المعنى في زيارة لأحد قمم جبال الألب:

إن الذي يستر الشمس عن الناس هو السحاب والجبـال والـشجر، والمنـزل والغطاء. أما المنزل والغطاء فهمـا مـن صـنع البـشر (بمـشيئة الله)، وأمـا الـشجر والجبال والسحاب فهو من خلق الله وليسوا من صنع البشر. وعندما زار المؤلـف قمة أحد جبال الألب في الشتاء، فإنه لا يعلوك هناك جبال ولا سـحاب، ولا تنبـت

هناك الأشجار، وإنما هي منطقة مكشوفة للشمس، ولقد اضطر المؤلف لخلع معطفه من دفء المكان هناك. الآن إذا وضعنا الأصبع على مدار السرطان ونظرنا إلى مساره نحو شروق الشمس فسنجد أننا ننتهي في تايوان، ويقطع مسار هذا المدار هناك جبل شاهق (Yushan) وارتفاعه ٣٩٩٧ متر.

يجب الانتباه أن ما سبق ليس قطعياً ولا كاملاً وإنما هي سلسلة احتمالات لتفسير الآية وهناك بعض الأسئلة التي يجب الإجابة عليها:

١) عندما بدأ المؤلف البحث عن مدينة على الساحل في شمال غرب أفريقيا يكون فيها عين ماء ساخن، فإنه لم يجد غير مصدر واحد. وكان المصدر عبارة عن سائح أخذ يسجل رحلته التي قام بها من المغرب إلى موريتانيا، وذكر الداخلة وذكر أن فيها ينبوع ماء ساخن. ولم يجد المؤلف إلا هذا المصدر، وكان هذا منذ ثلاث سنوات. وعند كتابة هذا البحث فقد راجع المؤلف الانترنت لتثبيت المصدر فلم يجده ولم يجد أي مصدر يؤكد وجود العين الحارة في الداخلة. وبالتالي فإن وجود العين الحارة في الداخلة يعتمد على ذاكرة المؤلف والذي يعتمد على مصدر ليس له وجود الآن. ولهذا يجب وضع نسبة احتمال عالية على خطأ هذه المعلومة.

٢) إذا لم تكن هناك عين حامية في الداخلة، فهل هناك على ساحل شمال غرب أفريقيا مدينة أخرى فيها هذه العين؟

٣) إذا كان هناك عين حامية في الداخلة فهل هناك أدلة أن مدينة الداخلة هي مدينة قديمة (على الأقل قبل ٢٠٠٠ سنة)؟

٤) إذا كان هناك عين حامية في الداخلة فهل هي مشكلة أن تكون موقع الداخلة على شمال مدار السرطان بـ ١٨كم؟

٥) هل مكان مدار السرطان الآن هو نفسه قبل ١٥٠٠ سنة؟

٦) هل يوجد على جبل Yushan مدينة أثرية؟

٧) هل هناك فرق بين عبارة مطلع الشمس ومشرق الشمس؟

إن الإجابة على هذه التساؤلات هو الذي سيضع المصداقية الحقيقية للتحليل السابق.

◄ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيل:

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (٥٩ – الشعراء).

ونقطة التعارض المجازي هنا أن الثابت في التاريخ أن اليهود لم يرجعوا إلى مصر بعد خروجهم منها.

وقد بقي هذا الموضوع نقطة تعارض مجازي في ذهن المؤلف حتى انتبه إلى أن جنوب فلسطين كان تحت حكم رمسيس الثاني ومن قبله. وكانت هذه المعلومة هي نقطة حل التعارض. وبعد مراجعة التفاسير المتعلقة بهذه الآية فإن غلبة ظن المؤلف هي السيناريو التالي:

يعاقب الله تعالى أهل مصر بالآيات العظام كالضفادع والدم وغيرها. ولما زادت حدة هذه الآيات عن درجة التحمل، ذهب أهلها إلى موسى يسألونه أن يدعو ربه ليكشف هذا العذاب ويسمحوا لبني إسرائيل بالخروج، فينكشف العذاب وينكثون.

واستمرت هذه الحالة حتى أمر الله موسى عليه السلام وقومه بالرحيل عن مصر، وكان الرحيل في ليلة وأصبح الناس فلم يجدوا موسى ولم يجدوا قومه.

الآن، ما هي الاحتمالات الممكنة لشعور أهل مصر لخروج موسى وقومه من البلاد. الموضوع هنا متعلق بشعور أهل مصر عامة وليس فرعون وملئه:

١) الغضب الشديد والهيجان على هذه الإهانة لرمز الأمة والدولة.

٢) الراحة وكأن صداعاً قد انتهى.

الاحتمال الثاني هو الذي يغلب على نظرة المؤلف، حيث إن الآيات العظام كانت أشد وطئة على العوام من النبلاء.

الآن، ما هي الخيارات الممكنة والمتاحة لفرعون للحاق بقوم موسى:

١) يرسل إلى قواته في ليبيا والنوبة.

٢) يجمع قواته في العاصمة.

٣) يرسل إلى قواته في جنوب فلسطين للقاءه في منتصف الطريق للحاق بموسى.

أما الاحتمال الأول فمستبعد حيث إن تجميع هذه القوات ووصولها يتطلب وقتاً يكون فيه موسى وقومه قد أفلتوا من يده.

أما الاحتمال الثاني فقد يكون هناك مشكلة في الوقت. ولكن المشكلة الأكبر هي أن القوات في العاصمة تعرف موسى جيداً وتعرف تماماً المعجزات التي تحدث على يده، ولربما فرحت هذه القوات بخروج موسى وقومه من عندهم. فقيام فرعون بتجميعهم للحاق بموسى قد يؤدي إلى نفورهم وتكاسلهم.

وضمن النظرات السابقة فإن أفضل الاحتمالات لفرعون هو الاحتمال الثالث، وهو بهذه الحالة يستغل الوقت وكذلك فهؤلاء القوات لا يعرفون موسى ولم يختبروا معجزاته ولذا فهم أطوع لفرعون من قواته في العاصمة.

وهذا الاحتمال ينطبق على لفظ الآية ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

وإذا ثبت هذا الاحتمال فإن منطقة عبور البحر لم تكن في السويس وإنما في

البحر الأحمر، وأن التيه لم يحدث في سيناء وإنما في جنوب الأردن.

والتيه في جنوب الأردن أقرب إلى المنطق، فمنطقة جنوب الأردن هي منطقة منبسطة لا وديان فيها ولا تلال ولا جبال ولا منخفضات ولا مرتفعات، من دخلها وهو لا يعرفها تاه فيها. أما سيناء ففيها الوديان والتلال والمرتفعات والمنخفضات.

الآن...إن التحليل السابق يبقى احتمالات، والإثبات الحقيقي له عندما نتمكن يوماً من تحديد مكان العبور، فإذا كان فعلاً البحر الأحمر فإن هذا يضع مصداقية كبيرة للتحليل السابق.

إن المثالين السابقين هما للتوضيح أن كثيراً من التحليلات الجيدة هي نتاج تلاطم الأفكار وتعارضها. ولهذا السبب فيجب استغلال الفرصة إذا ظهرت هذه التعارضات لمحاولة تحليلها بما يتوافق مع الآية معنى ولفظاً وما يتوافق مع سنة الله في الكون والطبيعة.

وهنا النقطة المهمة: إذا تعارضت الغيبيات القرآنية مع النظريات العلمية فإن هذا التعارض يؤشر إلى أنه إما فهمنا لهذه الغيبية غير صحيح أو أن النظرية العلمية ما زالت في طريق الخطأ نحو الصحيح.

◄ مجمع البحرين وصخرة موسى:

هناك أسلوب آخر في تحليل الأحداث وهو النظر في امتداد الفرضيات: فإذا كان هناك محقق للشرطة وكانت هناك جريمة وكان المحقق يشتبه في جرير، فإن أحد أساليب الاستدلال التي قد يستعملها المحقق هو أن يفترض أن جريراً هو المجرم، ثم يسأل نفسه: إذا كان جرير هو القاتل فما الذي يجب أن يحدث وما الذي يجب أن لا يحدث كي تتحقق هذه الفرضية، ثم يستمر في هذا الخط. ثم

يفترض افتراض آخر فيقول: إذا لم يكن جرير هو القاتل فما الذي يجب أن يحدث وما الذي يجب أن لا يحدث كي تتحقق هذه الفرضية، ثم يستمر بهذا الخط. وباستمرار الاستدلال في هذين الخطين المتوازيين فربما ينتبه المحقق لفكرة مضيئة تأتي فجأة وتضع حلاً للغز الذي يواجهه.

نستطيع استخدام نفس الفلسفة لتحليل الغيبيات المبهمة. قال الله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ الكهف

الآن، ما الذي يجب أن يحدث كي تتحقق رحلة موسى كما هي مذكورة في الآية؟ لنقم بجمع الدلائل للإجابة على هذا التساؤل:

١) يبدو أن الرحلة طويلة وذلك لقول موسى ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾

٢) الرحلة تنتهي في مجمع البحرين أو قربها.

٣) يوجد صخرة على مجمع البحرين.

الأسئلة والاحتمالات:

١) ما هو مجمع البحرين؟

٢) هل الصخرة هي كذلك اسم المكان؟ أي أنها جبل أجرد واسمها عند أهلها «الصخرة»، أم أن فتى موسى وصفها بالصخرة؟

بعد بحث التفاسير فإن غلبة ظن المؤلف أن مجمع البحرين هو مضيق يجمع بين بحرين. وعليه فإن الاحتمالات المتوفرة لمجمع البحرين في العالم القديم وقت موسى عليه السلام هو: باب المندب، رأس الخليج العربي، شط الفرات، مضيق جبل طارق، نقطة التقاء النيل مع البحر المتوسط، ومضيق البسفور.

أما السؤال الثاني فإنه من السهل إبتداء البحث بالفرضية الأولى وهو أن اسم المكان هو الصخرة، ونستكشف هذا الخط، فإذا لم نصل إلى شيء نعود إلى الفرضية الثانية ونستكشف خطها.

فكان طريقة البحث هو النظر في المضائق والبحث فيما إذا كان هناك جبل أجرد هناك يسميه أهلها بالصخرة. وبعد البحث فلم يجد المؤلف أي جبل على مضيق يسميه أهلها بالصخرة إلاّ مضيق واحد وهو مضيق جبل طارق.

وجبل طارق عند الغرب هو جبرلتار وهو ليس اسم الجبل وإنما هو اسم المدينة على سفح هذا الجبل. أما الجبل نفسه فيسميه الغرب بصخرة جبرلتار (The Rock of Gibraltar) وكان يسميه الإغريق قديماً «عامود هرقل» (Pillar of Hercules).

وكذلك فإن البحث لم يكشف عن أي جبل أجرد فوق سهل في هذه المضائق إلاّ جبل طارق، فهو جبل أجرد فوق سهل كبير (ضع في مولدات البحث في الانترنت العبارة التالية: The Rock of Gibraltar وانظر إلى صورة جبل طارق).

الآن، إن ما سبق هو مجرد غلبة ظن لمجموعة من الاحتمالات، والتأكيد الحقيقي يتم عندما يتم التحقق وبشكل عميق لكلمة «مجمع البحرين» والتأكد من معانيها المختلفة، وكذلك البحث العميق المباشر فيما إذا كانت هناك «صخرة» على مجامع البحار غير جبل طارق. إن القيام بهذه الأبحاث العميقة والمباشرة هو ما يؤدي إلى إثبات أو إضعاف التحليل السابق.

إن المؤلف على قناعة كاملة أن الأيام ستقوم بشرح معظم الغيبيات القرآنية. وأن الطريقة التي يمكن فيها تسريع حدوث هذه الأيام هو بالالتزام بمنهج صحيح في التحليل. بالطبع فإنك قد تبدأ من النقاط الخاطئة ولكن وجود المنهج الصحيح في التحليل سيقوم يوماً باستدراك هذه الأخطاء، فربما كانت التحليلات السابقة أخطاء ولكنها بالتأكيد ستفتح الباب أمام من يستدركها.

وضمن نظرة المؤلف فإن المنهج الصحيح في تحليل الغيبيات القرآنية يعتمد على العوامل التالية:

١) يجب أن تحيط بتفاسير السابقين لهذه الغيبية. حيث إنك إذا لم تفعل، فتكون تفسر القرآن بالعقل دون علم. وإذا أردت أن يكون تحليلك قريباً من الصحة فعليك أن تبنيه على علم، ويجب أن تبدأ حيث انتهى الآخرون.

٢) يجب الإحاطة بالمعلومات العلمية المتوفرة والمتعلقة بالغيبية القرآنية. فإذا كانت الغيبية عن موسى عليه السلام وفرعون فيجب الإلمام بتاريخ مصر وأحداثها.

٣) من الخطأ الشديد أن تقوم بافتراض المعجزة لحل التناقض والإبهام. إن المعجزات هي أمور خارقة للكون والطبيعة، وإذا ثبت الخبر بالمعجزة بنص قرآني أو نبوي واضح وثابت فإنها حق لا جدال فيه، وإذا لم يكن هناك خبر بحدوث المعجزة، فالأولى تحليل الأحداث بما يتوافق من سنة الله في الكون والطبيعة. ولهذا فإذا جاء أحد بافتراض حدوث معجزة لحل التعارض أو الإبهام دون وجود نص واضح وثابت فهو يخلط الوهم بالحقيقة. مثال ذلك هو خروج موسى عليه السلام وقومه من مصر. والسؤال هو كيف استطاع موسى عليه السلام وقومه من ترتيب الخروج دون أن يفطن فرعون لهذا، ألم يكن له جواسيس، ألم يكن في بني إسرائيل خونة؟؟. الآن، إن القيام بحل هذا الإبهام بالافتراض أن الملائكة أتت وصمت آذان الجواسيس وأعمت أعينهم، هو افتراض المعجزة لحل هذا الإبهام، وليس لهذه المعجزة نص واضح وثابت، وافتراضها هو خلط بين الوهم والحقيقة.

وربما بعد البحث يتبين أن فرعون كان يعلم بنية موسى للخروج من مصر

وربما سهل لهم ذلك. أما السبب فهو أن فرعون أراد وبجدية أن يقتل موسى ولكن يبدو أن هذا لم يكن متوافقاً مع رغبة جميع أهل الحل والعقد عنده إذ قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ (٢٦-غافر). وعليه فربما وجدها فرعون فرصة أن يخرج موسى وقومه من العاصمة فيخلو له حرية التصرف ويجمع قواته وينهي هذا الموضوع برمته وبضربة واحدة.

٤) كل التحليلات في هذا المجال هي احتمالات، ويمكن أن يغلب الظن على إحداها ويستبعد الظن على إحداها الآخر. ولكن يبقى الأمر كله احتمالات. المشكلة الكبرى عندما يبدأ الجدل في هذه الاحتمالات ويبدأ الصراع مع الآخرين لأجلها. وإن بدأ رجل بالجدل في هذه الاحتمالات فقد خسر مهارة التفكير والاستنتاج. إذ إن مهارة الاستنتاج تتطلب شدة الانتباه إلى دقائق الأمور والاستعداد لتعديل أو تغيير الاحتمالات إذا ظهرت معلومات جديدة. أما إذا ظهر الجدل، فإن الجدل لا يؤمن بالاحتمالات، وإنما يؤمن بالحق المطلق أو الخطأ المطلق. ومن تغلبت عليه هذه الصفة فقد خسر قدرة الانتباه ومهارة الاستنتاج.

٥) إذا لم تستطع أن تحل التعارض المجازي أو الإبهام بشكل يتفق مع النص القرآني والنبوي معنىً ولفظاً وبشكل يتفق مع سنة الله في الكون والطبيعة (مع أخذ الاعتبار للمعجزات الواضحات الثابتات) فضعها في أرشيف في عقلك واتركها، فإن المعلومات اللازمة ليست متوفرة بعد. وسيأتي لها الدور يوماً من الأيام.

◄ **قصة موسى عليه السلام وفرعون:**

أخر مثال هنا على طريقة استخدام منهج التحليل في شرح الغيبية هو قصة موسى عليه السلام مع فرعون:

بعد النظر في التفاسير القرآنية في قصة موسى عليه السلام وفرعون وبعد النظر إلى التاريخ المصري القديم فإن هناك غلبة الظن للأحداث التالية:

١) الثابت أن بلاد الشام كانت تحت سيطرة مصر حتى زمن رمسيس الثاني. وقاد رمسيس الثاني معركة قادش في بلاد الشام ضد الحثيين (من بلاد الأناضول) والتي انتهت بأول معاهدة سلام مسجلة في التاريخ بين مصر والحثيين. وعليه فيغلب على الظن أن ظهور موسى عليه السلام كان في وقت رمسيس الثاني أو بعده.

٢) الثابت أن مرنبتاح (خليفة رمسيس) قد قاد حملة ضد بني إسرائيل وذلك لأن الأثر الوحيد الذي يذكر فيه بني إسرائيل هو لوح يذكر غزوات مرنبتاح ويذكر ضمنها قضاءه على بني إسرائيل. وعليه فإن المنطق يقول إن ظهور موسى عليه السلام كان في عهد مرنبتاح أو قبله.

٣) إن رمسيس الثاني حكم إلى التسعين من عمره، وعندما كشفوا عن جثته وجدوا أنه كان يعاني أوجاع الأسنان والتهابات المفاصل.

الآن.... هل يمكن لرجل في التسعين ويعاني أوجاع الأسنان والمفاصل من أن يكون الحاكم الحقيقي للدولة؟

إن هذا مستبعد، حيث إنه لا توجد سوابق تاريخية كثيرة لأناس حكموا الدولة بشكل حقيقي وهم في التسعين. ولهذا فإن المؤلف، كنقطة بداية للبحث، يستبعد أن يكون رمسيس الثاني هو الحاكم الحقيقي لمصر في أواخر حياته.

٤) يذكر التاريخ أن مرينبتاح قد حكم مصر عشرة سنوات قضى أكثرها خارج العاصمة في حروب ضد استقلال النوبة وليبيا. ولهذا السبب فإن المؤلف يستبعد أن يكون مرينبتاح هو فرعون موسى.

٥) بالإضافة لما سبق، فعندما تم الكشف عن جثتي رمسيس ومرنبتاح لم يجدوا أية آثار للغرق.

هنا نحصل على تناقض. ونظرة المؤلف لحل هذا التناقض هو أن يكون هناك فرعون آخر بين مرينبتاح ورمسيس الثاني. والسؤال هنا: هل هذا ممكن؟

ضمن تاريخ مصر القديم فقد قام بعض الفراعنة بمحو آثار وأخبار من سبقوهم وذلك لأسباب دينية أو سياسية أو كرهاً فيهم. ولذا فإن وجود فرعون آخر بين رمسيس الثاني ومرنبتاح هو غير مستحيل ولكن لا يوجد أي دليل له. وعلى أية حال فإن المؤلف قد وضع هذا الاحتمال لوجود بعض الانسجام بين هذا الاحتمال والنصوص القرآنية.

الاحتمال هو أن هناك ابن لرمسيس من أم وضيعة وأنه استطاع أن يصل إلى القمة رغماً عن إخوانه الآخرين، وكان الحاكم الحقيقي في أواخر حكم أبيه. والطريقة التي وصل بها إلى القمة هو الحظوة عند أبيه وقدرته على تشقيق الآخرين إلى شيع وكتل وطوائف مختلفة يكون هو في مركزها. وهذه الفلسفة في الحكم في غاية الذكاء، وقد استعملها الرومان في جمهوريتهم وما زال يستعملها الإنجليز في سياساتهم. والفلسفة هي تشقيق الآخرين إلى أحزاب وطوائف ويكون الحاكم في المركز، فلا يستطيع الأول التمرد خوفاً من الثاني ولا يستطيع الثاني التمرد خوفاً من الأول، فيصبح وجود الحاكم ضرورياً وليس جبرياً لخلق التوازن. وميزة هذه الفلسفة أنها تصنع سيطرة حقيقية للحاكم دون الحاجة للحديد والنار، وضريبتها أنها تحتاج إلى نوع من لعبة الشورى والأخذ والرد.

لنرى الآن النص القرآني. قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (٤-القصص)

ومعظم الآيات التي ذكرت فيها كلمة علو كانت تقصد التكبر والطغيان، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (١٤ - النمل). وقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(٨٣ - القصص).

ولكن التجبر والتكبر يتعارض مع قيام فرعون بمحاولة إقناع أهل الحل والعقد بقتل موسى عليه السلام:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ (٢٦-غافر).

﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ (٢٩-غافر).

وهنا نأتي إلى نقطة تعارض تحتاج إلى نظرة توفيق:

- فرعون كان متكبرا في الأرض (على غلبة المعنى في تفسير علا في الأرض).
- فرعون لم يكن قادرا أن يتخذ قرارا لوحده في موضوع قتل موسى، وهذا يتعارض مع كونه متكبرا في الأرض.

لننظر إلى السيناريو التالي:

لنفترض أن فرعون موسى كان من أم وضيعة وأن أهل الحل والعقد وقتها كانوا لا يرونه يستحق الملك.

ولنفترض أن فرعون موسى كان له النشاط والذكاء الكافيين كي يستلم مقاليد الأمور أثناء مرض أبيه وأن يأخذ الحكم بعد وفاة أبيه.

ضمن ما سبق فإن الأمور التالية تكون منطقية:

- أن يقوم بتفريق القوى في مصر إلى أحزاب سياسية متنافرة ويضع نفسه حكما بينهم. وبالتالي يستطيع أن يضع توازنا في القوى لمصلحته.
- أن يتصرف بتكبر وعلو تجاه العامة من الناس كي يفرض هيبته عليهم.
- أن يتخذ القرارات الأساسية بأسلوب الأخذ والرد مع أهل الحل والعقد كي لا يستفزهم وخصوصا أن كثيرا منهم لا يرونه أهلا للملك.

هذا السيناريو يقوم بتوفيق نقطة التعارض وبشكل جيد وهي ما يغلب على تخمين المؤلف.

أما فلسفة الحكم عند فرعون موسى فقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٤-القصص)

لنكمل السيناريو المحتمل:

تربى موسى في قصر رمسيس الثاني، ويبدو أن الحال قد تطور مع موسى ليصبح مؤثراً في أحد الأحزاب الرئيسية في مصر. وكان ضمن جدال مع خصم له من حزب آخر فضربه وقتله خطأً. وتآمر الحزب الآخر ليقتل موسى ولكن موسى نجح بالخروج إلى مدين.

قال الله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ (١٥-القصص).

ولفظة «من شيعته» تختلف تماماً عن لفظة «من قومه»، ففي ذكر قارون فإن اللفظة هي «من قوم موسى». ولهذا فيغلب على الظن أن «شيعته» لا تعني «قومه»

وإنما تعني أحد الأحزاب الموجودة في مصر.

ذهب موسى إلى مدين وتعرف على شيخ جليل هناك. والظاهر أن موسى لم يكن ينوي المكوث هناك طويلاً وإنما كانت نيته أن يرجع إلى مصر بعد أن تهدأ الأمور. ولهذا فقد اشترط الشيخ الجليل على موسى أن يبقى معه ثماني سنوات. ووفى موسى بالشرط ثم رجع إلى مصر.

لماذا رجع موسى عليه السلام إلى مصر، وماذا حدث في مصر جعلت رجوع موسى إليها آمناً؟

الذي يغلب على الظن هو موت رمسيس الثاني، فيبدو أنه عندما خرج موسى من مصر كان رمسيس في الثمانين من عمره وكان الجميع يتوقع موته. وبموت رمسيس الثاني فإن توازن القوى للأحزاب فيها قد اختلف، ويبدو أن الحزب الذي كان ينتمي إليه موسى قد أخذ الأفضلية.

في الطريق إلى مصر فإن الله تعالى قد جعل موسى رسولاً له إلى فرعون أن يسمح لبني إسرائيل الخروج منها.

ورجع موسى إلى مصر واجتمع مع فرعون وألقى عليه المعجزة.

الآن..... لو أن موسى رجل عادي لما كان من المستحيل لفرعون أن يفكر في قتله فوراً، ولكن موسى قريب جداً من حزب الأفضلية وكان فرعون أذكى من ضرب التوازن في حكمه. فكانت خطة فرعون هي كسب الوقت في محاولة تنفير حزب الأفضلية عن موسى. ولهذا فقد طلب من رجاله جمع السحرة إلى الميدان العام، وكان خطة فرعون هو أن يستطيع السحرة أن يفتنوا الناس وبدرجة أكبر من قدرة موسى على تبيان النبوة وعندها تكون يد فرعون حرة في التعامل معه. فشلت هذه الخطة فشلاً ذريعاً ولكن فرعون استطاع تدارك الموقف باتهامه السحرة أنهم أعوان موسى وأنهم اتفقوا مع موسى لضرب الوحدة الوطنية في البلاد.

قال الله تعالى:

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾(١٢٣-الأعراف)

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٤٩-الشعراء)

كانت خطة فرعون التالية هي إهمال موسى عليه السلام. ويبدو أن فرعون قد وجد أنه ليس من الحكمة قتل موسى لأنه قد يؤثر على توازن القوى عنده، وفي المقابل فإنه وجد أن موسى لا يشكل خطراً عليه، فكانت النتيجة المنطقية له هو إهمال موسى عليه السلام. ولكن رسالة موسى عليه السلام لبني إسرائيل شجعتهم على التمرد، وأدى هذا إلى غضب بعض المقربين من فرعون فاعترضوا عليه، فأرضاهم فرعون وسمح لهم بمعاقبة بني إسرائيل المتمردين دون التعرض لموسى عليه السلام. قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ (١٢٧-الأعراف).

فشلت خطة الإهمال وذلك لظهور آيات الله العظام: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (١٣٣-الأعراف)

وبدأت الشكاوي على فرعون بالتفاقم ولكن فرعون كان في غاية الخبث في ردها، والظاهر أنه جمعهم في مؤتمر عام واستمع لأفكارهم وشكواهم، وكانت نتيجة المؤتمر أن أمر فرعون وزيره ببناء صرح كبير حتى يستطيع فرعون من البلوغ إلى السماء وينظر إذا كان إله موسى هناك.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ

عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ (٣٧-غافر).

إن ما فعله فرعون يشبه تماماً ما فعله صدام حسين في العراق: فعندما انهالت على صدام الانتقادات على نظام حكمه الديكتاتوري، قام بعمل استفتاء للشعب على الثقة في حكمه. وكانت نتيجة الاستفتاء أقرب للكمال. وبالطبع لم يصدقه أحد ولكنه استطاع أن يُخرس بعض الألسن. وهذا ما فعله فرعون تماماً، فما صدقه أحد ولكنه استطاع إخراس الكثير من الألسن وكأن حالهم يقول: فلننتظر حتى يبني فرعون هذا الصرح ثم نرى ما نفعل.

على أية حال فإن فرعون قد بدأ بجدية التفكير في قتل موسى عليه السلام، وقد وضع الاجتماعات لهذا الأمر، ويبدو أن حزب الأفضلية لسبب أو لآخر كان يرفض هذا العمل.

قال الله تعالى:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ (٢٦-غافر).

﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ (٢٩-غافر).

فشل فرعون في أخذ موافقة حزب الأفضلية على قتل موسى عليه السلام. فكانت له خطة أخرى، إذ يبدو أنه قرر استفزاز موسى عليه السلام وبني إسرائيل لكي يخرجوا خفية من مصر، وذلك لأن خروج موسى عليه السلام وبني إسرائيل خفية من مصر ستعطيه العذر الحقيقي للقضاء على زعيم هذا التمرد وبضربة واحدة.

قال الله تعالى:

﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴾ (١٠٣-الإسراء).

وما أن ظهر خروج موسى حتى أظهر فرعون الغضب الشديد لهذه الإهانة على سيادة الدولة وكرامتها، ونجح في جمع السلطات في يده وبدأ بتجميع القوات.

ويبدو أن فرعون أدرك أنه من الأفضل عدم الاستعانة بالقوات الموجودة في العاصمة حيث إن هؤلاء يعرفون موسى ويعرفون المعجزات التي تحدث على يديه، فكان أن أرسل إلى قواته في جنوب فلسطين كي يلاقوه في سيناء. وأخطأ موسى الطريق فإذا هم بين البحر وبين فرعون، وهنا انشق البحر إلى جبلين عظيمين وممر جاف سلكه بني إسرائيل.

ماذا يفعل فرعون الآن؟

إن الحل الوحيد عنده هو أن يتجرع كبريائه وينسحب. ولكن وبأقل من لحظة، انتبه فرعون أنه إذا استطاع أن يلحق بموسى وقومه فإن موسى لن يقدر أن يضم البحرين عليهما معاً. فأمر الجيش بسرعة الهجوم وسرعة اللحاق ببني إسرائيل.

الذي لم ينتبه له فرعون أن من فَرَّقَ البحرين قادر أن يضمهما معاً من أطرافها. ويبدو أن هذا ما حدث، فقد بدأت المياه تنغمر وببطء من الطرف القريب من فرعون حتى غرق فرعون.

أما الدليل أن المياه قد انغمرت ببطء فإن الجبلين العظيمين لو انغمرا فجأة لكان موت فرعون لحظياً، ولكن موت فرعون كان بطيئاً، حتى أنه في النهاية قد تنازل عن كبرياءه وآمن بالله دون جدوى.

ويحكم بعده مرنبتاح. ويبدو أن مرنبتاح كان يكره فرعون موسى، ربما لأنه أخذ الحكم رغماً عن إخوته. فقام بمحو كل أثاره ومحو تاريخه وأخباره وسجلاته بالضبط كما فعلها قبله حور محب بمئة عام فقط عندما قام بمحو تاريخ اثنين ممن كانا قبله وهما آي وتوت عنخ آمون.

وضمن معلومات المؤلف فقد كان هناك رجلان امتلكا القوة العقلية المتميزة وكان بإمكانهما ضمان الدنيا كلها والآخرة معاً، ولكن التكبر وعزة الإثم في نفسيهما منعاهما من ذلك، والتكبر والجهالة توأمان. أما الأول فهو عمرو بن هشام

(أبو جهل): فقد كان نظام قريش أن دار الندوة لمن بلغ الأربعين، ودخلها أبو جهل وعمره ثلاث وثلاثون سنة. وقد قال رسول الله ﷺ: اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين. ولو أن عمرو بن هشام سبق عمر بن الخطاب لكان عزيز الدنيا والآخرة معاً. والرجل الثاني هو فرعون: فقد أرسل الله الرسل إلى الأمم، إلاّ موسى عليه السلام فقد أرسله الله أولاً إلى فرعون. وكانت بدايات الرسالة قول الرسول عن الله «السلام على من اتبع الهدى» ولو أن فرعون أجاب بالسلام لكان أخذ الدنيا والآخرة معاً.

قال الله تعالى: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ (٤٧-طه).

إن التحليل السابق كله كان احتمالات تخمينية، وكان الهدف منه هو محاولة إيجاد سيناريو ينطبق تماماً على النصوص الغيبية معنىً ولفظاً، وينطبق على التاريخ وطبيعة الإنسان. ويعتمد هذا التحليل على أمرين اثنين:

١) أن هناك فرعون قد حكم مصر بين رمسيس الثاني ومرنبتاح. وإذا ثبت أن هذا الاحتمال غير صحيح فلا بد من البحث عن خط آخر جديد للتحليل.
٢) إن فكرة البحث اقتضت التخمين أن هناك تأثير حقيقي لموسى عند حزب الأفضلية. والسبب هو أن فرعون لم يصرح أبداً في قتل موسى إلا في آخر المطاف وكان يطلب التأييد في هذا العمل، في حين أنه قد قتل السحرة شر قتلة دون تردد. والسؤال هنا: هل هذا التخمين صحيح، وهل هناك أسبقية تاريخية تجعل هذا التخمين ممكناً. وإذا ظهر أنه لا توجد أي أسبقيات تاريخية فلا بد عندها من البحث عن خط آخر للتحليل.

الملحق الثالث :

Neuro Linguistic Programming

نشأت البرمجة العصبية فعلياً في عام ١٩٧٢ من قبل ريتشارد باندلر (Richard Bandler) و جون غريندر (John Grinder). ولكن تاريخ وشخصية ريتشارد مثيرة بعض الشيء وربما هذا هو السبب لعدم قيام المجتمع العلمي بالاهتمام كثيراً به وبأفكاره.

لم يأت عام ١٩٨٠ حتى وقد انتهت، وبشكل جاف، علاقة ريتشارد وجون. وفي نفس الوقت فقد أقامت عليه زوجته (زوجة ريتشارد – Leslie Cameron–Bandler) قضية طلاق عليه.

وفي عام ١٩٨٣ أعلنت شركة ريتشارد (Not Ltd) الإفلاس.

(المرجع: http://en.wikipedia.org/wiki/History_of_neuro–linguistic_programming)

وفي عام ١٩٨٦ تم القبض على ريتشارد بتهمة قتل إحدى صديقاته (Corine Christensen)، وتمت تبرئته من القضية، ولكن ما زال البعض يشعر بالامتعاض. وجريمة القتل هذه حتى الآن لم يتم حلها. وهناك إدعاءات أن ريتشارد كان يتعاطى المخدرات معها.

(المرجع: http://en.wikipedia.org/wiki/History_of_neuro-linguistic_programming،
http://en.wikipedia.org/wiki/Corine_Christensen)

وفي عام ١٩٩٧ أقام ريتشارد دعوى قضائية على جون بهدف حصر الملكية الفكرية للبرمجة العصبية له وحده. وفي عام ٢٠٠٠ قامت المحكمة برد هذه الدعوى. وفي نفس العام أعلن ريتشارد الإفلاس.

(المرجع: http://web.archive.org/web/20010406091232/www.anlp.org/anlpnews.htm،
http://en.wikipedia.org/wiki/History_of_neuro-linguistic_programming)

هذه المقدمة للتنبيه أن البرمجة العصبية لا تقوم بحل كل مشكلة لكل شخص، وأنها ليست ديانة ولا هي مبادئ تنظم حياة الإنسان، وإنما هي أدوات ثبتت فائدتها في حل وعلاج الكثير من المشاكل السلوكية، وتساعد على سرعة تعلم كثير من المهارات.

قبل ظهور البرمجة العصبية بوقت طويل، كان هناك أسلوبين رئيسيين في حل المشاكل النفسية والسلوكية: أسلوب فرويد وأسلوب التنويم.

أسلوب فرويد:

لاحظ بعض العلماء أن الكثير من الضغوط النفسية والمشاكل السلوكية هي نتيجة لأن العقل لا يعرف السبب الحقيقي لها، وأنه إذا استطعت أن تضع الأصبع على السبب الحقيقي فإن العقل بعدها سيقوم بترتيب أموره بنفسه.

مثال ذلك رجل قامت امرأة يحبها بمفارقته. هذا قد يسبب لبعض الوقت شيئاً من الامتعاض والاكتئاب للغالب من الناس، ولكن هناك من تتحطم حياته لهذا الحدث. وأسلوب فرويد هو أن يسترخي الرجل ويبدأ في الحديث والحديث والحديث، ويقوم المعالج بتوجيه دفة الحديث حتى يبدأ الرجل بالانتباه للأمور على حقيقتها: هل تحطمت الحياة حقاً جراء هذا السبب، هل يشعر حقاً بالمحبة أم

يشعر بالحقد، هل يشعر بالمحبة أم يشعر بالهزيمة والإهانة، هل يشعر حقاً بالشوق أم يشعر بالخسارة، الخ.

وهنا النقطة، فإن المشاعر المختلفة المتعارضة إذا تجمعت وجاءت إلى صدر الإنسان في وقت واحد، فإن هذه المشاعر تختلط بعضها ببعض وتصنع صراعاً عنيفاً فيما بينها، وحيث إن العقل لا يميز هذه المشاعر بعضها عن بعض فإن النتيجة هي الحيرة والاكتئاب الشديد. وأسلوب فرويد هو أنه إذا استطاع العقل التمييز بين هذه المشاعر واستطاع أن يضع أصبعه على أسباب الصراع فإن العقل بعدها قادر أن يعيد ترتيب مشاعره وأوضاعه. إن هذا يشبه تماماً الذبابة التي حُبست في صندوق مظلم لا ترى فيه المنفذ، فإذا ظهر الضوء، انتبهت للمنفذ وخرجت.

المشكلة في أسلوب فرويد أنه يحتاج إلى الأسابيع والأشهر.

التنويم:

التنويم العميق هو إيصال الشخص إلى حالة قريبة من النوم، وعندها يكون التوتر ورغبة الجدال في درجتها الدنيا، ويكون عقله متفتح للإيحاءات.

والتنويم معروف منذ القدم بأسماء مختلفة، فهو عند الهندوس والصوفيين أسلوب في الصفاء الذهني، وهو عند الصينيين واليابانيين الأقدمين أسلوب في تقوية المهارات القتالية. أما الغرب فقد انتبه له فرانز مسمر (Franz Mesmer) في ألمانيا عام ١٧٦٦. وكان أول علاج للتنويم هو علاج العصبية الشديدة.

لم يأخذ المجتمع العلمي هذه الظاهرة بالاهتمام وذلك لأنها لم تكن قابلة للدراسة ولأن الدين المسيحي كان ينظر لهذه الظاهرة نظرة الريبة، ولا يزال الكثير في أيرلندا وأسكوتلندا من ينظر إلى هذه الظاهرة نظرة الشك والريبة. ولم يقم

المجتمع العلمي بالنظر إلى هذه الظاهرة بشكل جدي حتى جاء ميلتون أريكسون (Milton Erickson) عام ١٩٥٠ ووضع منهج البحث العلمي لها.

وضمن تجارب ميلتون فقد ظهر أن التنويم يمكن أن يحدث ذاتياً ودون مساعدة من أحد، كما أن التنويم لا يمكنه أن يُجبر الشخص على القيام بأمور تُخالف قيمه ومعتقداته.

وهناك نماذج فلسفية كثيرة لتفسير هذه الظاهرة ولكن النموذج المشهور هو أن الإنسان له تصرفات واعية، وله كذلك سلوكيات آلية. فكان النموذج الفلسفي هو أن العقل الواعي يتحكم بالتصرفات الواعية، وأن العقل الباطن يتحكم في السلوكيات الآلية. وإذا تم وضع الشخص في حالة الاسترخاء فإن العقل الباطن يكون في حالة انفتاح، وعندها فإنه يمكن بالإيحاءات الإيجابية أن يتم تعديل السلوكيات الآلية غير المرغوب فيها.

وهناك قرائن تضع بعض المصداقية لما سبق، فقد لوحظ أنه عندما يبدأ الإنسان بتعلم المهارة فإنه تنشأ توصيلات عصبية في الدماغ، وتبدأ هذه التوصيلات بالتشابك والتعقد كلما ازداد الشخص مهارة. ولوحظ أن هناك علاقة واضحة بين التَعلم والنوم بشكل خاص وبين التعلم والاسترخاء بشكل عام، وأفضل مثال على ذلك هو أن كثير من الأشخاص يبدئون بتعلم المهارة (كقيادة السيارة) ثم يتوقفون ليوم أو يومين ثم يرجعون إلى التدريب ليتفاجئوا أن مهاراتهم قد تضاعفت فجأة.

طريقة العلاج بالتنويم هو وضع الشخص في حالة استرخاء ثم الإيحاء له بالأفكار الإيجابية، فمثلاً في حالة الشخص الذي خسر حبيبته فإن الإيحاءات قد تكون أن الحياة ما زالت مستمرة وأن الكثير قد خبروا مثل هذه المشكلة ولم يتأثروا بها ،وهكذا.

كان ذلك هما الأسلوبين• الأساسيين في العلاج النفسي والسلوكي، ولكـن في عام ١٩٦٠ استطاع بيرن (Eric Berne) أن يضع أول نموذج علاجي يجمـع بـين الأسلوبين ويضع خطوات واضحة للعلاج. وكان منهج ثوري استطاع أن يختصر المدة الطويلة التي يحتاجها أسلوب فرويد للنجاح. كان نموذج بيرن (ترجمـة غيـر حرفية لـ Transactional Analysis) يعتمد على فلسفة وهي أن الإنـسان يتكـون من ثلاثة أجزاء: القيم، النظرة العقلية، والعواطف. وأن مـشاكل الإنـسان النفـسية والسلوكية هي نتاج التنافر والتجاذب والصراع بين هذه الأجزاء الثلاثة.

البرمجة العصبية هي امتداد وتوسع للفلسفات الثلاثة السابقة (أسلوب فرويد والتنويم ونموذج بيرن).

في عام ١٩٧٢ تعرف ريتشارد على جون. وكانت لهما فلـسفة بـسيطة ولكنهـا فعالة: إذا أردت أن تمتلك مهارة موجودة عند شخص فعليك أن تستخدم أسلوب الملاحظـة والتجزئـة (ترجمـة غيـر حرفيـة لـ Modelling Process). وفي هـذا الأسلوب فأنت تقوم بملاحظة سلوك وتصرفات هذا الشخص، ثم تقـوم بتجزئـة

•هناك أسلوب ثالث ولكنه خارج إطار هذا البحث. فقد انتبه بعض العلماء لما في بعض النباتات من أثر على تعديل المزاج وتهدئة الأعصاب وإحاطة للاكتئاب. وكانت امتداد هذه الملاحظات ظهور أدوية التهدئة ومضادات الاكتئاب. وتقوم هذه الأدوية بإرخاء ضغط التوتر والاكتئاب على العقل، فيمكن عندها للعقل من النظر إلى الأحداث بواقعية، وعندها يمكنه من ترتيب نفسه بنفسه، فهذه طريق مختصرة لأسلوب فرويد. المشكلة في هذه الأدوية أنها تختلف باختلاف الطبائع، فبعضهم يتحسن بهذا الدواء ولا يتحسن بالدواء الآخر، وبعضهم يتأثر بالأعراض الجانبية لهذا الدواء ولا يتأثر بالأعراض الجانبية للدواء الآخر. ولهذا فمن الخطأ الشديد أخذ هذه الأدوية دون إشراف ومتابعة من الطبيب المختص.

سلوكياته وتصرفاته لفلترة العوامل الأساسية في هذه المهارة عن غيرها من التصرفات. ثم تقوم بالتجربة إذا كانت هذه العوامل هي العوامل الرئيسية، ثم تعيد الملاحظة والتجزئة والتجربة، وهكذا حتى تصل إلى العوامل الرئيسية لهذه المهارة. وهنا تكون قد حصلت على وصفة لهذه المهارة ويمكنك عندها تعليمها للجميع.

مثال حقيقي هو وصفة مهارة الرماية، فقد طلب الجيش الأمريكي من أحد أساتذة البرمجة العصبية تقديم المقترحات بخصوص رفع مستوى الرماية للمتدربين. فكان أن جمع عدداً من أمهر الرماة وبدأ باستخدام أسلوب الملاحظة والتجزئة: كيف يمسكون البندقية، ماذا يفكرون عندما ينظروا إلى الهدف، كيف ينظرون إلى الهدف، ما هو أسلوب التنفس عندهم، وهكذا. وكانت النتيجة هي وصفة عملية لهذه المهارة.

وكان لريتشارد مهارة خاصة، فقد كان يمتلك مهارة المحاكاة جسداً وصوتاً، فهو إذا رأى أحدهم يفعل شيئاً أو يقول شيئاً، فقد كان قادراً أن يحاكي ذلك الفعل والقول وكأنه ذلك الشخص. ولهذا فقد كان أقدر من غيره على الاستفادة من أسلوب الملاحظة والتجزئة.

كان أول عمل لهما هو ملاحظة مهارات أحد الأطباء النفسيين المتفوقين (فيرجينيا ساتير – Virginia Satir). وكانت النتيجة هو أول نموذج في البرمجة العصبية وهو نموذج ساتير (ترجمة غير حرفية لـ Meta Model).

الفكرة في هذا النموذج أن الإنسان يستقبل في كل لحظة الملايين من الإحساسات البصرية والسمعية والحسية والذوقية والشمية. وحيث إن دماغ الإنسان يبقى محدود، فلا بد للدماغ من عمل فلترة لهذه الإحساسات . وهذه الفلترة تقوم باستخلاص الإحساسات المهمة وإهمال الباقي. فلترة الإحساسات

هذه تعتمد على البديهيات والمسلمات والقيم والعادات والمهارات والرغبات، الخ.

الآن، عندما يقوم الإنسان بالتفكير أو الحديث مع نفسه أو الحديث مع غيره فإن هناك جهاز فلترة آخر يقوم باختزال الإحساسات إلى ألفاظ وعبارات. جهاز الفلترة الأخير ضروري لأن الشخص عندما يتحدث عن قصة فإنه لا يمكنه أن يذكر كل شيء وإلاّ أصبحت القصة مملة، وإنما يقوم باستخدام مهارات اللغة من بلاغة وتشبيهات واستعارات ومجاز واختصار لذكر القصة.

هذه الفلترة ضرورية وإلا لما استطاع الإنسان التواصل مع غيره بصورة فعالة. ولكن كأي نظام ديناميكي (راجع موضوع الأنظمة في فصل المناهج) فإن أي فائدة من نظام يمكن لها أن تنقلب إلى ضرر إذا استخدمت بالأسلوب الخاطئ.

نموذج ساتير يقول إن جهازي الفلترة (الاستقبال والاختزال) إذا استخدما بصورة خاطئة فإنه يؤدي إلى تشويه التفكير وتشويه الأفكار مما يؤدي إلى تشويه نظرة الإنسان إلى الأحداث. وأن تصارع الأفكار والمشاعر عند الإنسان هي بسبب تشوه لغة التفكير عنده. وأنه إذا استطاع العقل أن يضع الأصبع على حقيقة الأحداث فإنه سيقوم بترتيب نفسه بنفسه (امتداد لأسلوب فرويد).

ضمن هذه النظرة فإن تشويه التفكير عند الإنسان يأتي نتيجة عوامل لغوية تتعلق بالتعميم ، والتشويه اللغوي، والحذف:

التعميم: كقول الشخص أن الناس لا يقدروني. والتعميم هنا يتعلق بالناس: من هم أولئك الناس بالضبط.

التشويه: كقول الشخص أن زيداً لا يحب عائلته لأنه يتأخر في عمله. فكان التشويه هو لصق فكرتين دون رابط واضح.

الحذف: كقول الشخص: هذا الرجل مكروه. والحذف هنا يتعلق بالكراهية،

فمن بالضبط يكره هذا الرجل، وما المقصود من كلمة كراهية، حيث إنها كلمة تحمل معاني كثيرة.

كان هذا هو الفلسفة في نموذج ساتير، أما التكنيكات فقد وضع النموذج أدوات وأساليب لغوية متكاملة تسمح بالانتباه إلى العناصر الثلاثة السابقات (التعميم، والتشويه، والحذف) والكيفية لإرجاعها إلى الحقيقة. وبالتالي فالهدف من نموذج ساتير هو إرجاع التفكير والأفكار إلى حقيقتها وتجريدها من العواطف والتشبيه والمجاز والتعميم والحذف وإرجاعها إلى حقيقتها المجردة. فعندما يأتي الرجل إلى العلاج ويبدأ بشرح حالته للمعالج النفساني، فإن المعالج سيقوم بمقاطعة الرجل والطلب إليه بتوضيح عباراته. فإذا قال الرجل إن الناس يكرهوه. فإن المعالج سيوقفه وسيسأله من هم الناس بالضبط، وماذا تقصد بكلمة يكره. وقد يظهر بعد التجريد أن كل ما حدث أن زيداً وجريراً لم يكونا يدعوان الرجل لرحلات الصيد كما كانا يدعوان الآخرين، وهذه العبارة تختلف تماماً عن العبارة السابقة.

كان هذا النموذج ثورة حقيقية، إذ إن أسلوب فرويد يحتاج إلى أسابيع وأشهر، ونموذج بيرن يحتاج إلى أيام وأسابيع، أما نموذج ساتير فيحتاج إلى ساعات أو بضعة أيام.

يجب التنبيه أن نموذج ساتير ينجح بشكل رائع في العلاج وفي التمحيص العلمي، ولكن يجب استخدامه بحذر وتعقل واحترام لمشاعر الآخرين وذلك لأنه نموذج فيه المقاطعة والتحقيق والشراسة.

ثاني عمل وضعه الثنائي (جون وريتشارد) هو استخدام أسلوب الملاحظة والتجزئة لاستخراج مهارات ميلتون (Milton Erickson) في التنويم. وكانت النتيجة نموذج ميلتون.

وفي هذا النموذج فقد ظهر أن التنويم الذي يحدث في المسرح أو عيادات

التنويم إنما هو حالة عميقة من ظاهرة تحدث لجميع البشر يومياً. فالرجل عندما يذهب إلى الامتحان فلربما يقول في صدره «اللهم يسر ولا تعسر، اللهم ألهمني حسن التصرف والجواب»، وأما غيره فربما يقول "It is easy, I can do it". وكلاهما عملية إيحاء ذاتي (حالة من التنويم) أولهما بأسلوب الدعاء والآخر بالأسلوب المباشر.

وأنت عندما تحاول تعلم مهارات كرة القدم، فربما بعد محاولة أو محاولتين فاشلتين، تقوم بإغلاق عينيك ثم تتخيل قدمك تضرب الكرة بالشكل الصحيح، وربما تقوم بتحريك قدمك في الهواء وكأن الكرة موجودة، وقد تقوم بعملية التخيل هذه مرات عدة.

الآن، عندما تقوم بإغماض عينيك فأنت تضع نفسك في نوع من الاسترخاء، وأما عملية التخيل فهي نوع من الإيحاء الذاتي.

إن هذا يماثل ما يفعله الصينيون واليابانيون في تعلم الفنون القتالية، فهم بعد التدريب يقومون بالاسترخاء العميق، ثم يبدؤون بتقوية مهاراتهم بالتخيل.

وإنه لمن الممتع جداً هنا الانتباه إلى التشابه بين التكنيكات الحالية للإيحاء الذاتي وبين صلاة الاستخارة وصلاة الحاجة والدعاء بشكل عام. ففي صلاة الحاجة فأنت تسبح الله وتذكره ثم تذكر الحاجة بتفصيلاتها. وكذلك الأمر في صلاة الاستخارة فأنت تذكر الموضوع بتفصيلاته. إن هذا وبشكل غير مباشر هو إيحاء ذاتي. ونظرية الإيحاء الذاتي تقول أن الإنسان أقدر بكثير على إنجاز حاجاته إذا كان العقل الباطن مدركاً تماماً لتفاصيل هذه الحاجة. وأسلوب الإيحاء الذاتي للوصول إلى هذه الحالة هو الاسترخاء ثم الطلب (لفظاً أو تخيلاً) من العقل الباطن الحصول على هذه الحاجة، ويتم هنا شرح الحاجة أو تخيلها بالتفصيل الكامل.

ومن المناسب هنا ذكر قول رسول الله ﷺ: «إذا دعوتم الله فأعزموا في الدعاء ولا يقولن أحدكم إن شئت فأعطني فإن الله لا مستكره له» رواه البخاري في التوحيد، وقال «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ولا يرد القدر إلاّ الدعاء ولا يزيد في العمر إلاّ البر» رواه أحمد في باقي مسند الأنصار.

كان نموذج ساتير ونموذج ميلتون البداية الأولى لنشوء البرمجة العصبية، ثم تفرعت هذه الفلسفة كما لو أنها كانت شرارة لامست حطباً.

فلسفة البرمجة العصبية الآن تعتمد على الفلسفات الرئيسية التالية:

١) هناك عقل واعي وعقل باطن. وانسجام الإنسان وتطور مهاراته يتطلب انسجام العقل الباطن والتواصل المستمر بين العقل الواعي والعقل الباطن.

٢) يتكون العقل الباطن من أجزاء (امتداد لنموذج بيرن). كل جزء (part) له مزاجه وأهدافه. وتحدث المشاكل النفسية والسلوكية بسبب تصارع هذه الأجزاء بعضها ببعض. مثال ذلك عندما يحب الإنسان المخاطرة ولكنه يكره ولا يتحمل الخسارة. ضمن هذه الفلسفة فإن هناك جزءاً يحب المخاطرة وجزءاً يكره الخسارة. وأن سبب التردد عند ذلك الشخص ربما يكون بسبب تصارع هذه الأجزاء. وأسلوب الحل ضمن هذه الفلسفة هي إخراج الصراع إلى الوعي وعمل المفاوضات بين هذه الأجزاء.

٣) يتم ترميز الإحساسات التي تصل إلى الإنسان عن طريق الحواس بثلاثة عناصر أساسية : صور وأصوات وأحاسيس. وضمن هذه الفلسفة فإن الرغبات والمعلومات والمهارات والقيم والقناعات والعادات السيئة والحسنة، كلها مشفرة في الدماغ بتجمعات من هذه العناصر الثلاثة. والفائدة من هذه الفلسفة هي أنه إذا تمت المعرفة الحقيقية للشيفرة المتعلقة بالمشكلة (كالوسواس أو الرهاب)

فأنت لست بحاجة لنموذج ساتير ولا لنموذج ميلتون وإنما تستطيع حل المشكلة بتعديل الشيفرة وبشكل مباشر عن طريق استخدام الألعاب الذهنية.

هذه الفلسفة قد فتحت الباب أمام الكثير من الألعاب الذهنية المبتكرة لحل المشاكل السلوكية عند الإنسان. مثال ذلك إذا جاء شخص يشكو أنه ينسي مفتاح السيارة في داخلها. إحدى الألعاب الذهنية هي أن يسترخي الرجل ويغمض عينيه ثم يتخيل أنه أوقف السيارة وخرج منها وأغلقها بالمفتاح. ثم يتوقف عن التخيل ويفتح عينيه ويُشغل عقله في أمر آخر ولمدة بسيطة ثم يغمض عينيه ويتخيل أنه يقفل باب السيارة بالمفتاح، ولكن هذه المرة يتخيل تفاصيل أكثر: لون السيارة، رائحتها، ملمس المفتاح، الخ. ثم يتوقف ويفتح عينيه ويشغل العقل في أمر آخر. ثم يعيد التخيل بتفاصيل وإضافات أكثر، وهكذا لعشرة أو عشرين مرة. هذا هو عبارة عن ترسيخ برنامج «إغلاق السيارة بالمفتاح» في الدماغ. والتكرار والتفصيلات والإضافات هي لعبة ذهنية هدفها زيادة الترسيخ. بمعنى آخر فإن هذه الألعاب تزيد من قوة تَذَكر الدماغ لهذا البرنامج.

طبعاً فإن فلسفة البرمجة العصبية لم تتوقف عند هذا الحد، وإنما تفرعت وتوسعت. ولكن الفلسفات السابقة كانت الأساسية.

يجب الانتباه أن معظم فلسفات البرمجة العصبية لم يتم تمحيصها علمياً. وحيث إنها فلسفة فإنه ينطبق عليها مبدأ الاحتمالات (راجع موضوع المنهج الفلسفي). وأي فلسفة ينطبق عليها مبدأ الاحتمالات فإنها يمكن أن تكون صحيحة، أو غير دقيقة، أو غير كاملة، أو خاطئة. وهذا ينطبق كذلك على البرمجة العصبية.

وهذا الأمر في غاية الأهمية وللأسف فإنه لا يتم عرضه بشكل مناسب في الكتب الحديثة للبرمجة ولا في الدورات التدريبية. إن أحد الأمور التي رفعت من

مصداقية البرمجة العصبية عند المؤلف هو التنبيه الواضح والصريح من الثنائي (ريتشارد وجون) في كتابهما Reframing أن فلسفات البرمجة العصبية هي «أكاذيب مفيدة». وكان واضحاً منهما أنه من الخطأ الشديد التصديق أن العقل مقسوم إلى عقل واعي وعقل باطن، وأنه من الخطأ الشديد التصديق أن الإنسان مقسوم إلى أجزاء وأن هذه الفلسفات هي غير صحيحة ولكنها مفيدة. بل إن ريتشارد في أحد دوراته (Building & Maintaining Generalizations) بعد انفصاله عن جون قد حذر من التمادي في استخدام فكرة الأجزاء لأنها ستسبب مشاكل نفسية إن تم تصديقها.

وكذلك فإن المؤلف يرتاب من نموذج الألفة والتواصل (ترجمة غير حرفية لـ Pacing & Matching Model) حيث إن هذا النموذج يتناقض تماما مع نموذج بيرن للتواصل (ترجمة غير حرفية لـ Transactional Analysis Communication Model).

وما زال نموذج بيرن للتواصل هو المعتمد في نظريات التواصل في علوم الإدارة وما زالت له تطبيقات إدارية فعالة حتى الآن. وضمن وجهة نظر المؤلف فإن فلسفات وتكنيكات البرمجة العصبية قد تفوقت تماما على نموذج بيرن إلا في موضوع التواصل فإن نموذج بيرن في هذا المجال ما زال متفوقا على البرمجة العصبية.

ولهذا السبب فإن فلسفات البرمجة العصبية ليست حقائق، ولكنها كذلك ليست خرافات أو أوهام، وإنما نماذج فلسفية تمت معرفتها بعد بحث جدي ولها تطبيقات مفيدة. إن هذا يشبه تماماً الطب الصيني، ففلسفة الطب الصيني ليست حقيقية، ولكنها مفيدة ولها تطبيقات علاجية حقيقية.

المشكلة الكبرى هي عندما يخلط الإنسان بين الفلسفات والحقائق، وعندها فإن الرجل قد زرع بذرة التوهم في عقله، وستنمو هذه البذرة دون انتباه من أحد.

وإن أفضل طريقة لحل هذه المشكلة هي أن تعمل في عقلك أرشيفين (على

الأقل)، أحدهما للحقائق، والآخر للفلسفات (راجع المنهج العلمي)، ويستطيع كل أرشيف أن يؤثر في الآخر ولكن يجب عدم خلطهما معاً. وهذا هو أساس التفكير المتوازي (التفكير بالخطوط المتوازية) الذي تم الحديث عنه سابقاً.

الملحق الرابع :

كانت متعة المؤلف في قراءة التاريخ. ومهما تعمق الشخص في قراءة التاريخ فإنه قد تأتي ظروف يسمع فيها حكاية لا تستقيم ومنطقية التاريخ الذي يعرفه. ويقوم عندها (معذورا) برفض هذه الحكاية ليكتشف لاحقا (وربما مصدوما) أن هذه الحكاية كانت صحيحة.

وهذا ما حدث مع المؤلف في أوائل عام ٢٠١١. ففي إحدى دردشاته مع خالته قالت له إنها عرفت أن الحجر الأسود في الكعبة ما هو إلا ثمانية أحجار أكبرها بحجم التمرة محاطة بمعجون من الشمع والمسك والعنبر. وأن هذا قد حدث بعد اجتياح القرامطة لمكة (عام ٣١٧هـ) وفيه تم خلع الحجر الأسود من مكانه وتفتيته وبعد سنوات (٢٢ سنة) تم إرجاع هذه الأحجار الثمانية منه.

بالطبع المؤلف لم يقم بتكذيب القصة ولكنه كذلك لم يصدقها فقد كانت مخالفة لمنطقية التاريخ الذي يعرفه. وكان حال المؤلف كالقول الذي انتسب لعمر بن الخطاب في رده لعمار بن ياسر: لعلّه أخطأ، لعله نسي. فكان ظن المؤلف أن الراوي (الذي سمعت منه خالتي القصة) لعله بالغ، لعله أخطأ، لعله نسي.

ولم يقم المؤلف وقتها بمتابعة القصة ولكن بعد أشهر قليلة كان يطالع صفحات الانترنت واكتشف مصدوما أن القصة كانت صحيحة تماما.

الآن..... هل يوجد للمؤلف العذر لعدم تصديقه القصة؟؟؟

نعم، يوجد للمؤلف العذر. إذ عندما تكون القصص والأخبار المزيفة والمبالغ فيها والخالية من الدقة والموضوعية أكبر بكثير جدا من الحقيقة فمن

الأولى التحقق من هذه القصص والأخبار، وخصوصا عندما تكون هذه الأخبار مخالفة للمنطقية العامة للأمور.

وكذلك الأمر متعلق بالأحاديث المروية عن الرسول ﷺ، فعندما تكون الأحاديث الضعيفة والمنكرة أكبر بكثير من الأحاديث الصحيحة فمن الواجب التحقق من ثبوت هذه الأحاديث قبل تبنيها.

وفي الواقع هناك أمر مهم جدا يجب الانتباه له عند النظر إلى القصص والأخبار والأحاديث المروية عن الرسول ﷺ والأقوال المروية عن القادة بشكل عام، إذ أنه من فجر التاريخ وحتى الآن فإن هناك ثلاثة مواضيع تكثر فيهم الإشاعات والأخبار المزيفة والأخبار غير الموضوعية والتي ربما تكون بنية طيبة أو خبيثة. وهذه المواضيع هي:

- الأخبار التي تتعلق بنظرة سياسية.
- الأخبار التي تتعلق بالمصلحة.
- الأخبار التي تتعلق بالروحانيات.

والأخبار التي تتعلق بنظرة سياسية هي القصص والشائعات والأخبار التي تخدم هدفا سياسيا أو مصلحة سياسية لفئة معينة ضد أخرى. ومنذ أن عرف الإنسان سرد القصص فإن هذا الموضوع تكثر فيه الألسن (بنية حسنة أو بنية خبيثة) كمحاولة لتقوية موقف سياسي على موقف سياسي آخر. ومن يراجع الأحاديث المنكرة والتي ظهرت في عهد بني أمية وبني العباس يجد الكثير منها متعلقة بمواقف سياسية.

وهذه هي النقطة هنا: القصص والأخبار التي يرويها حزب سياسي ضد حزب سياسي آخر يجب النظر إليها بحذر قبل تصديقها، إذ إن هناك شبهة حقيقية (مدعومة بسوابق كثيرة عبر التاريخ) أن هذه الأخبار قد تكون مبالغ فيها أو غير صادقة تماما.

وأما الأخبار التي تتعلق بالمصلحة فإنها بالضبط كما المثال السابق، فعندما يكون هناك جماعة تبحث عن مصلحتها فإنه من الغريزي (خصوصا إذا كانت فلسفات المجتمع غير حازمة في موضوع الصدق والأمانة) أن تنتشر القصص والإشاعات التي تهدف إلى تحقيق هذه المصلحة.

وكمثال حي شهده المؤلف في أحد المدن الأوروبية فقد كانت هناك جماعتان تتنافسان على إقامة جمعية عربية، فقامت الجماعة الأولى باتهام الجماعة الثانية ظلما وبهتانا أنهم يريدون فقط الاستيلاء على المنحة التي تقدمها الحكومة للجمعيات. وهذا الاتهام ساندته قصص وأخبار وحكايات غير صادقة. ولكن هذه القصص والاتهامات أدت في النهاية إلى انحسار الناس عن الجماعة الثانية.

الآن.... الجماعة الأولى لم تكن ذات نية خبيثة ولكن فلسفات تحري الصدق والأمانة لم تكن عالية عندهم فكان أن ذكر أحدهم قصة مع قليل من المبالغة فكان أن أضاف إليها آخر بقليل آخر من المبالغة ثم آخر وآخر حتى تحولت الإشاعات إلى حقائق لا جدال فيها.

وهذه هي النقطة هنا: الأخبار التي ترويها جماعة ضد جماعة أخرى منافسة (أو فرد ضد آخر منافس) فإنه يجب النظر إليها بحذر قبل تصديقها لأن هناك شبهة حقيقية (مدعومة بسوابق كثيرة عبر التاريخ) أن هذه الأخبار قد تكون مبالغ فيها أو غير صادقة تماما.

وأما الأخبار التي تتعلق بالروحانيات فهي عندما تقوم جماعة (أو شخص) وبنية طيبة أو بنية خبيثة بسرد أخبار وقصص تهدف إلى دعم وإسناد العقيدة أو الديانة أو الشعائر التي يقتنعون بها. وضمن وجهة نظر المؤلف فإن هذا الموضوع بالذات قد تعرض إلى أكبر قدر من الإشاعات عبر التاريخ.

انظر إلى هذا العبارة التالية والتي وجدها المؤلف معلقة على جدار غرفة أحد أصدقاءه وقد أخبره صديقه أن هذه العبارة وجدها في أحد المقالات (القصة هنا بتصرف ومعنى ضمن الذاكرة):

«أظهر العلماء أن السجود يزيد من وفرة الدم في الدماغ، وقد أثبت العلماء ضمن اختبارات موضوعية دقيقة أن السجود يزيد من الذكاء بنسبة ٢٠٪ مقارنة بالذين لا يسجدون. فسارع أخي المسلم إلى كثرة السجود».

بالطبع فإنه إذا أردنا تحليل القصة السابقة فإن أول ما يتبادر إلى الذهن هو: من هم أولئك العلماء وما هي تلك الاختبارات وكيف تمت عمليات الاختبار، الخ. وهذه الأسئلة كافية لتحطيم مصداقية العبارة السابقة تماما حتى تظهر الأجوبة بشكل مرضي.

ولكن المشكلة أن أشباه العبارة السابقة كثيرة جدا إلى الدرجة التي لا تستطيع أن تقوم بتحليلها واحدة واحدة. كمثال على ذلك أن مكة تقع في مركز الأرض، وأن لبس الذهب يخفف من الرجولة، وأن وأن وأن. وبالطبع لا يوجد أي دليل نقلي أو علمي على العبارات السابقة ولكن قام أحدهم بذكرها ونتيجة للروحانية العالية في المجتمع فقد انتشرت هذه الأخبار بين الناس. فمكة هي مكان مقدس عند المسلمين فقام أحدهم بالادعاء أن مكة هي في مركز الأرض (دون إحضار أدلة علمية موضوعية لذلك) لتنتشر هذه القصة بين الناس. ولبس خواتم الذهب حرام عند المسلمين فقام أحدهم بالادعاء أن السبب في التحريم هو أن الذهب يخفف من الرجولة (دون إحضار أدلة علمية موضوعية لذلك) لتنتشر هذه القصة بين الناس.

وهذه الصفة (الإشاعات التي تخدم الروحانيات) ليست منتشرة فقط عند المسلمين وإنما هي منتشرة في كل ديانة ومجتمع روحاني لا يتصف بتحري الصدق في زماننا هذا والأزمة السابقة حتى أعماق أعماق التاريخ.

وهذه هي النقطة هنا: الأخبار التي تتعلق بالروحانيات والتي لا تكون مستندة إلى نصوص نقلية واضحة (أي نصوص القرآن والسنة) أو لا تكون مستندة إلى اختبارات موضوعية دقيقة فإنه يجب الحذر منها لأنه ضمن سوابق تاريخية متعددة فإن هذه الأخبار قد تكون مبالغ فيها أو غير صادقة.

نرجع إلى القصة التي أخبرتها لي خالتي عن الحجر الأسود. فهذه القصة ليست متعلقة بأي أمر من الثلاثة بشكل مباشر وإنما المؤلف في مطالعاته للتاريخ لم يتعرض أبدا لموضوع أن الحجر الأسود قد تفتت مع أنه موضوع مهم جدا وجدير بالذكر والمنطقي أن يكون هذا الخبر مشهورا. فكانت قصة خالتي مخالفة لمنطقية الأمور. فكان هذا هو السبب في عدم تصديق المؤلف لهذه القصة.

الآن.. هل يوجد للمؤلف العذر لعدم تحريه عن هذه القصة بعد أن سمعها ؟

نعم، للمؤلف العذر في عدم تحريه لهذه القصة بعد أن سمعها. فهذه القصة لم تكن مصيرية للمؤلف ذلك الوقت. وكذلك لو كان مطلوبا منك أن تتحرى عن كل قصة لا تصدقها لما كان عندك أي وقت آخر لأعمالك الأخرى.

النقطة هنا أن الأخبار والشائعات غير الصحيحة هي أكبر بكثير جدا من الأخبار الصحيحة ولو كان عليك أن تتحقق من كل قصة تسمعها ولا تصدقها لما وجدت الوقت الكافي لذلك.

لهذا السبب فإن المؤلف معذور لعدم تصديقه القصة السابقة ومعذورلعدم قيامه بتحري القصة وقتها ولكن بالتأكيد فإن قناعاته ومعلوماته ذلك الوقت كانت خاطئة.

ولكن هناك صفة من الضروري التقيد بها لموازنة ما سبق وهي صفة ضرورية لضمان نمو مهارة الانتباه والاستنتاج. إذ من الضروري جدا عندما تنتبه للخطأ أن تعترف به وتعترف بفضل الآخر.

وهذا الأمر في غاية الأهمية ويستحق التوقف عنده:

لنفترض أن هناك نقاش تم بين زيد وجرير. ولنفترض أن جريراً أخبر زيداً بقصة ولم يقتنع بها زيد. ولنفترض أن زيدا بعد وقت قد اكتشف أن جريراً كان على حق.

ما الذي سيحدث وقتها في نفس زيد؟؟؟

قد تأخذ «العزة بالإثم» مكانا في صدر زيد وخصوصا في المجتمعات ذات المظاهر والتفاخر والانتقاد. والاعتذار ليس بالأمر السهل في هذه المجتمعات حتى بين النفس والنفس. وإذا أخذت «العزة بالإثم» مكانا في صدر زيد فإنه من الغريزي لزيد أن يشعر بالرفض لتصديق القصة حتى بعد أن ظهرت له صحتها إلا بعد وقت. وإذا تجذرت هذه الصفة («العزة بالإثم») في صدر زيد فإن هذا سيؤثر في مهارة الاستنتاج عند زيد لأن مهارة الاستنتاج تتطلب الانتباه الدقيق للمعلومات المتوفرة وتعديل الآراء والأفكار والاحتمالات بناء عليها.

وهنا النقطة: إن أفضل طريقة لمنع «العزة بالإثم» من التسلل إلى الصدر هو أن تعترف بالخطأ (وبمجرد انتباهك له) وأن تعترف بفضل الآخر. وهذا بحق ما حدث مع المؤلف وخالته فقد اعتذر لها وأقر بفضلها واعترف بخطئه وقتها.

وقصة الحجر الأسود التي روتها خالتي لم تكن كاملة وإنما لها تكملة. وقد كانت لهذه القصة تأثير كبير جدا على المؤلف ومن هذه القصة انتبه المؤلف لتفسير آية النصر ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ (٧ – محمد)

تكملة القصة أن القرامطة قد استباحوا مكة مدة ١١ يوما. وفيها تم تدنيس الكعبة وخلع الحجر الأسود من مكانه وقتل حوالي عشرين ألفا من الحجيج تم دفن الكثير منهم في بئر زمزم. وكان القرامطة يصرخون أثناء إعدامهم للحجيج

وأثناء خلعهم للحجر الأسود: أين الطير الأبابيل وأين الحجارة من سجيل؟

وهذه العبارة كانت بهدف السخرية والاعتداء والكفر والجحود، ولكن المؤلف يكرر هذه العبارة وعبارات أخرى بهدف الاستفسار والتحليل:

أين الحجارة من سجيل، وأين الطير الأبابيل؟؟؟؟؟

أين الملائكة الألوف المسومين؟؟؟؟

أين صيحات السماء على الظالمين؟؟

المؤلف يؤمن تماما أن الطير الأبابيل قد جاءت إلى جيش أبرهة وأن الحجارة من سجيل قد سقطت على جنوده. والمؤلف يؤمن تماما أن الملائكة المسومين قد جاءت لنجدة المسلمين والرسول ﷺ في غزوة بدر وحنين. ولكن لماذا لم تأت الملائكة إلى مكة عندما استباحها القرامطة؟؟؟

قد يقال إن السبب في عدم قيام الملائكة بنجدة الحسين بن علي بن أبي طالب أن الأمر كان فتنة بين مسلمين ومسلمين وأن الملائكة لا تتدخل في فتنة بين المسلمين. وقد يقال إن السبب في عدم قيام الملائكة بنجدة الأنصار يوم استباحها جيش يزيد بن معاوية أن الأمر كان فتنة بين مسلمين ومسلمين والملائكة لا تتدخل في فتنة بين المسلمين. وقد يقال إن السبب في عدم قيام الملائكة بنجدة عبد الله بن الزبير وعدم نجدة الكعبة نفسها يوم ضربها الحجاج بن يوسف الثقفي بالمنجانيق أن الأمر كان فتنة بين مسلمين ومسلمين وأن الملائكة لا تتدخل في فتنة بين المسلمين.

ولكن القرامطة يومها لم يكونوا مسلمين بل كانوا كفرة جاحدين. فلماذا لم تأت الملائكة لنصرة المسلمين المحاصرين في مكة ولم تأت الملائكة لحماية الكعبة من دنس الكافرين الجاحدين؟؟؟؟

السبب في غاية الوضوح في ذهن المؤلف: الملائكة لا تشفق ولا تساند

المتخاذلين المهملين. والمسلمون ذلك الوقت لم تنقصهم العدة أو العدد ولكنهم كانوا متخاذلين ومهملين. والملائكة لا تشفق للمتخاذلين.

ولكن في الوقت نفسه فإن المسلمين إذا اتحدوا وجمعوا كلمتهم فإنهم ليسوا بحاجة إلى سيوف الملائكة ولا إلى سواعد الملائكة ولا إلى الملائكة أنفسهم.

إن الله قد وضع الإسلام ووضع فيه القوة. والمسلمون (بمجموعهم) بعد وفاة الرسول ﷺ لم تكن تنقصهم العدد ولا العدة ولكن تخاذلهم وإهمالهم (كمجموع) كان هو السبب في انكساراتهم.

قال رسول الله ﷺ: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: ومن قِلّةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ، ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل، ولينزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول اللّه، وما الوهن؟ قال: حبُّ الدنيا وكراهية الموت» رواه أبو داوود وأحمد والنص لأبي داوود.

وهذه هي النقطة التي يقتنع بها المؤلف تماما وهي أن الله قد وضع أسرار القوة في الإسلام. وأن المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ لم تنقصهم (كأمة بمجموعها) العدد والعدة في أي يوم من الأيام. وأن الله بعد أن أكمل هذا الدين بقوله تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (٣ - المائدة) فإن الطير الأبابيل لن تأتي أبدا لحماية الكعبة لأن الكعبة أصبحت في عهدة المسلمين. وأن الملائكة لن تأتي أبدا لنجدة المسلمين لأن المسلمين ليسوا بحاجة لها إن هم جمعوا كلمتهم ووحدوا صفوفهم.

وهذا كذلك يفسر ما حدث مع سيدنا الحسين وعبد الله بن الزبير وما حدث مع الأنصار يوم وقعة الحرة، وما حدث مع الإمام زيد. فهؤلاء الرجال وأصحابهم كانوا في غاية العلم والعلا والشرف ولكن المسلمين وقتها كانوا (كمجموع)

متخاذلين، والملائكة لا تشفق لأمة متخاذلة.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (٢٥ - الأنفال).

هذه هي النقطة هنا... وهي أن الملائكة لا تأتي لنجدة الأمة المتخاذلة وأن المسلمين إن جمعوا كلمتهم ووحدوا صفوفهم فإنهم لن يكونوا بحاجة إلى الملائكة.

وهذه النقطة في غاية الأهمية إذ إنه من العار الشديد أن يكتب التاريخ أن الرومان والمغول والإنجليز قد حكموا العالم بحدة ذكائهم وقوة قلوبهم وحد سيوفهم وأن المسلمين قد حكموا العالم بسواعد الملائكة وسيوفها وبوحي الملائكة وسندها.

وهذه هي نقطة النقاش: فإنه إذا لم تقم الملائكة بنجدة الحسين بن علي بن أبي طالب من القتل هو وأهله وهو حفيد الرسول ﷺ، وإذا لم تقم الملائكة بنجدة الأنصار في موقعة الحرة وهم أصحاب الرسول ﷺ وهم من ارتفع الإسلام على أكتافهم، وإذا لم تقم الملائكة بحماية الكعبة من منجانيقات الحجاج بن يوسف، وإذا لم تقم الملائكة بحماية الإمام زيد بن على من بني أمية ولم تقم حتى بحماية جسده، إذ تم حرق الجسد الكريم ونثر رماده في نهر الفرات، وإذا لم تقم الملائكة بحماية ضيوف الرحمن في بيت الرحمن من إعدامات القرامطة ولم تقم بحماية الكعبة من دنس القرامطة ولم تقم بحماية الحجر الأسود من الخلع والتفتيت، فإنه من الصعب جدا أن يتم الادعاء أن الملائكة ستأتي لنصرة المسلمين عند الحاجة.

ولكن هناك تساءل:

إذا كانت الملائكة لم ولن تأتي لنصرة المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ، فلماذا نقوم بالابتهال إلى الله تعالى ونطلب منه المدد والسند والنصر؟؟؟؟

وهذا تساؤل مهم.

وهناك الأسباب التالية والتي تجعل الابتهال إلى الله ضرورة قبل المعركة:

أولا: لأن هذا العمل (الدعاء والابتهال إلى الله قبل المعركة) هو من سنن الرسول ﷺ.

ثانيا: لأن أي انتصار وأي انتباه وأي إدراك هو من عند الله بغض النظر عن ديانة وعقيدة المنتصر. فعندما انتصر المسلمون في بدر فإن الله هو الذي نصرهم. وعندما انتصر المشركين في أحد فإن الله هو الذي نصرهم. وعندما انتصر الحلفاء على ألمانيا فإن الله هو الذي نصرهم. فكل أمر وكل عمل وكل انتباه وكل إدراك فإنما يتم بإرادة الله وقدره.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٧ - الأنفال).

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠ - الأنفال).

ولهذا السبب فإن دعاء المسلمين وابتهالهم لله هو كي يكون قدر الله أن ننتصر في هذه المعركة وهذه الحرب.

ثالثا: لأن الله قد خلق القوانين في هذا الكون. وحتى المعجزات فإن لها قوانينها. فنبي الله موسى ﷺ عليه أن يرمي العصا كي تتحول إلى ثعبان وعليه أن يضرب البحر كي ينفلق، ومريم بنت عمران عليها أن تهز النخلة كي تتساقط عليها الرطب الجنية.

وكذلك الانتصار في المعارك والحروب فلها قوانينها ومقدماتها ومن وافق هذه القوانين والمقدمات فقد انتصر في المعركة ومن خالفها فقد انهزم. وأحد

قوانين الانتصار هو شحن النفوس إلى درجة التضحية بالجسد والنفس في سبيل الانتصار. والقيام بالابتهال إلى الله والدعاء له بالسند والثبات هو أحد الطرق لشحن النفوس إلى تلك الدرجة.

رابعا: هناك ملاحظة ميتافيزيقية غير محكمة ولكنها خارج إطار الصدفة (أي أن سببها ليس الصدفة) وهو قدرة العقل لوحده على التأثير قليلا على خط المستقبل. وبلغة إسلامية فهو قدرة الدعاء على تغيير القدر.

قال رسول الله ﷺ: «... ولا يرد القدر إلاّ الدعاء ...» رواه أحمد في باقي مسند الأنصار.

ولقد تعرض المؤلف لهذا الأمر في الملحق السابق (البرمجة اللغوية العصبية) ولكن هنا سنتعمق قليلا في هذا الأمر:

عندما يضيع شيء لبعض الناس فإنهم قد يقومون بالدعاء: يا جامع الناس ليوم القيامةِ رد علي ضالتي. وفي كثير من الأحيان يجدون ما أضاعوه.

الآن..... هل هذه صدفة وأوهام أم أنها ظاهرة تحكمها قوانين كونية؟

وعندما يريد شخص أن يستخفي من منافس له فقد يدعو: «وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون» وفي قصص كثيرة سمعها المؤلف فإن الدعاء بهذه الآية يأتي بمفعول. فهل هذه صدفة وأوهام أم أنها ظاهرة تحكمها قوانين كونية؟

وكذلك هناك دعاء الاستسقاء وهو قيام المسلمين بطلب الغيث من السماء وفي كثير من الأحيان فإن الله يستجيب لهم وتهطل الأمطار عليهم.

والسؤال هنا: هل هطول المطر بعد دعاء الاستسقاء جاء بأمر مباشر من السماء وخارج عن قوانين الكون أم أن هطول المطر جاء ضمن قوانين كونية؟؟ بمعنى آخر: هل الدعاء وهطول المطر هما ضمن القوانين الكونية أم الله وبشكل

خارج عن قوانين الكون قد أمر السماء أن تمطر؟؟

على أية حال فإن هـذا الأمـر لـيس ملاحظـا فقـط في العـالم الإسـلامي وإنمـا ملاحظ كذلك في حضارات أخرى مختلفة بما فيهـا الحـضارة الغربيـة. فالإيحـاء الـذاتي (Auto-Suggestion) والتنـويم الـذاتي (Self Hypnosis) في الفلـسفات الغربية يقابلان الدعاء في العالم الإسلامي. فإذا قام المـسلم بالـدعاء للوصـول إلى شيء أضاعه فـإن التكنيكـات المقابلـة في العـالم الغربـي هـي أن يقـوم الـشخص بمخاطبة عقله الباطن أو مخاطبة الطبيعة أو الكون لمساعدته في الوصول إلى ذلك الشيء. وهناك نجاحات واضحة لهذه التكنيكات وخارجة تماما عن إطار الصدفة.

وكما أن تأثير الدعاء يزداد عندما يكون في جماعة (كدعاء الاستسقاء) فإن هـذا يقابله تكنيكات مشابهة في الفلسفات الغربيـة: فالـسيلفا (Silva Mind Control) وهي في حقيقة الأمر نوعا من فلسفة التنويم الذاتي تتحدث عن توجيه ما يسمى بـ «الطاقة الايجابية» (Positive Energy) من شخص أو أشـخاص تجـاه آخـر مـن أجل مساعدته في الشفاء. وهذا كذلك حاضر في بعـض الفلـسفات الأخـرى مثـل فلـسفات الطاقـة الحيويـة (Energy Healing) والريكـي (Reiki) الـخ. وهنـاك نجاحات لهذه الفلسفات خارجة عن إطار الصدفة.

انتبه هنا: السيلفا والطاقة الحيوية والريكي هي فلسفات قد يكون مـن المفيـد الاطلاع على خطواتهـا ومحاولـة معرفـة العوامـل الفاعلـة فيهـا ولكـن انتبـه أنهـا فلسفات وليست علم، وأن تكنيكاتهـا قـد تكـون مفيـدة ولكـن فلـسفاتها ليـست بالضرورة أن تكون صحيحة (راجع منهج التحليل الفلسفي). والمشكلة الحقيقية أن ممارسي هذه الفلسفات (وعلى الأخص السيلفا) لا ينظـرون إلى أنفـسهم أنهـم ممارسين بل أتباع ودعاة. فقد أصبحت السيلفا أشبه بديانة ذات صـبغة روحانيـة. وأصبح هؤلاء الأتباع ينظرون إلى مؤسس السيلفا (جـوزي سـيلفا – José Silva)

وكأنه نبي ملهم. وكان أحد أول الكتب التي اطلع عليها المؤلف في موضوع السيلفا كتاب يتحدث عن السيلفا ويتضمن قصصا وحكايات عن نجاح السيلفا إلى الدرجة أنه لم يبق إلا أن يقال إن السيلفا تحيي الموتى وتبرأ الأكمه والأبرص. والنقطة هنا أن دراسة الفلسفات الغربية الميتافيزيقية المتعلقة بتطوير المهارات هو أمر مفيد ولكن انتبه من أولئك الذين يقومون بتحويل هذه الفلسفات إلى روحانيات وطقوس دون أي اهتمام لمنهجية البحث وموضوعيته. وانتبه كذلك أنه من الطبيعي لمن يكتب في هذه المواضيع بروحانية ودون التقيد بمنهجية البحث أن كتاباته وقصصه تكون مبالغ فيها وربما غير صادقة أبدا. وهذا يتطلب من القارئ أن ينتبه لمنطقية هذه القصص قبل أن يتبناها.

على أية حال فإن السيلفا والطاقة الحيوية والريكي لها نجاحات واضحة وخارجة عن إطار الصدفة كما بالضبط الدعاء ونجاحاته.

ووجهة نظر المؤلف أن الدعاء لله تعالى، أو مخاطبة العقل الباطن أو مخاطبة الطبيعة أو مخاطبة الكون، الخ هي كلها تقوم بتوجيه العقل تجاه هدف محدد. وأن هناك علاقة ميتافيزيقية بين توجيه العقل وبين خط المستقبل، أو بمعنى آخر أن هناك علاقة ميتافيزيقية بين توجيه العقل وخط القدر.

دعونا نشرح المقصود بالظاهرة الميتافيزيقية:

الظاهرة الميتافيزيقية هي ظاهرة تتكرر بشكل غير متنبأ به وخارجة عن إطار الصدفة (أي أن احتمالية ظهور هذه الظاهرة بطريق الصدفة هي احتمالية ضئيلة) ولكن ليس بالمقدور دراسة هذه الظاهرة علميا ضمن الإمكانيات الحالية.

دعنا نضرب المثل:

زيد جالس مع أصحابه ويتجاذب معهم أطراف الحديث ويذكر زيد جريراً الذي لم يره من فترة طويلة وما هي إلا دقائق ويتصل جرير بزيد.

هذه الظاهرة يكاد يجزم المؤلف أنها حدثت مع جميع الناس، وهي لا يمكن أن تكون واقعة ضمن إطار الصدفة المحضة. وحتى هذه اللحظة فإن المنهج العلمي غير قادر على دراسة هذه الظاهرة. وهذا ينطبق كذلك على ظاهرة التخاطب عن بعد (Telepathy) وظواهر أخرى كثيرة غيرها.

وهنا النقطة: هناك علاقة ميتافيزيقية واضحة بين الدعاء وخط القدر. وهي واضحة تماما ولكن المنهج العلمي حتى هذه اللحظة غير قادر على الإجابة على أسئلة الـ متى وكيف وأين ولماذا المتعلقة بهذه الظاهرة.

الآن... ما العلاقة بين ما سبق وبين الابتهال إلى الله للنصر قبل المعركة؟؟

كما تم شرحه في كتاب سابق (سياسات الأمم ولعبة الأقدار) فإن الدولة التي تتفوق على خصمها في الذكاء والانضباط والإرادة فإنها هي المنتصرة ولا محالة في الحرب. وربما تنهزم في بعض المعارك وربما تكون بحاجة إلى الوقت والتضحية ولكنها هي المنتصرة في الحرب.

وأما في المعركة فإن أعمدة الانتصار هي نفسها السابق ذكرها (الذكاء والانضباط والإرادة) بالإضافة إلى قليل من الحظ.

مثال ذلك هو معركة واترلو بين نابليون والإنجليز. فنابليون كان المنتصر في الأيام السابقة ولكن في الليلة السابقة فإن المطر قد انهمر بصورة غير عادية على أرض المعركة. وهذا أدى إلى عدم قدرة نابليون لاستخدام مدافعه. إذ إن التأثير الحقيقي للمدافع يكون في الأرض الصلبة وهذا ما يجعل القذيفة تصل إلى الأرض وتتدحرج إلى أقدام العدو وصفوفهم مما يؤدي إلى إرباك هذه الصفوف. ولكن إذا كانت الأرض موحلة فإن تأثير المدافع يتناقص كثيرا. ولهذا السبب فإن نابليون اضطر إلى تأجيل المناورات ضد الإنجليز حتى تنشف الأرض. ولكن كانت المفاجأة أنه مع قيامه بالهجوم على الإنجليز في آخر النهار فإن الألمان قد وصلوا

وبشكل مفاجئ إلى أرض المعركة وكانت هذه هي النهاية لنابليون.

وهذا هو تأثير الحظ في المعركة، وإذا نظرنا إلى معارك نابليون فإن الحظ قد خدمه في الكثير منها ولكن في هذه المرة فقد خذله. وهذه هي النقطة وهي أن الحظ (بشكل عام) يأتي بشكل متساوي للطرفين في أوقات مختلفة ولكن القدرة على استغلال الحظ وتأثير هذا الحظ يختلف من طرف إلى آخر.

الآن.... هل نستطيع أن نقول أن المطر هو الذي هزم نابليون؟؟

الجواب هو بالطبع لا: إن سبب هزيمة نابليون هو قرارات خاطئة اتخذها، منها إرسال جيش كامل لمطاردة الألمان في الاتجاه الخاطئ، وعدم وجود وحدة استطلاع قوية تعطيه معلومات صحيحة عن مكان الألمان وقرارات خاطئة أخرى. وأما المطر فهي قد ضخمت من تأثير هذه القرارات الخاطئة.

أي أنه لولا المطر لانتصر نابليون في المعركة حتى مع وجود هذه القرارات الخاطئة ولكن سبب الهزيمة يعود في الأساس إلى قرارات خاطئة تم ارتكابها.

وهنا نأتي إلى تعريف مفيد للحظ سمعه المؤلف من أحد أصدقاءه: الحظ هو تقاطع الفرصة مع الإمكانيات. فهطول المطر مع إمكانيات الثبات عند الإنجليز قد أدى إلى انتصارهم. ولكن ليس المطر هو الذي كان سبب انتصار الإنجليز.

وهذا التعريف مفيد لأنه يحدد تأثير الحظ على النجاح، فعندما تأتي الفرص متكررة لرجل غير متمكن فربما ينجح في أمر أو أمرين ولكنه سيسقط في النهاية. وأما إذا كان هناك رجل متمكن فإنه قد يصبر بعض الوقت ولكن ما أن تأتيه الفرصة حتى يصعد إلى الأعلى. وبشكل عام فإن الفرص تأتي للجميع ولكن تأثير الفرصة يختلف من شخص لآخر ومن وقت لآخر.

الآن..... قليل من الحظ لن يفيد الدولة الضعيفة الهاوية غير المتمكنة أمام الدولة المحترفة. فقليل من الحظ قد يجعل الدولة الضعيفة تنتصر في بعض

المعارك ولكن النصر في النهاية سيكون للمحترف. ولكن قليل من الحظ ينفع كثيرا وسيوفر كثيرا من التكاليف للدولة المحترفة المتمكنة.

أفضل مثال لذلك هو مضمار السباق للخيول. فالخيل السابق الأول ربما فاز على الثاني بمقدار طول الأنف (أي أن الفرق بين الأول والثاني في السباق كان بمقدار طول الأنف) وهو مقدار قليل جدا ولكن فرق الجائزة بين الأول والثاني ضخم جدا. وهذا كذلك هو التأثير لقليل من الحظ الطيب لجيش محترف.

وهنا نأتي للمهارات الحقيقية المؤثرة للدولة أو الجيش وهو الانتباه والقدرة على استغلال الحظ الطيب إذا جاء والمهارة والقدرة على معالجة الحظ العاثر إذا ظهر وقلبه (تحويله) لمصلحتنا.

وهنا نأتي إلى الابتهال والدعاء إلى الله قبل المعركة فهناك ظاهرة ميتافيزيقية واضحة بين الدعاء وخط القدر. والدعاء لن يقدر أن يقوم بحرف خط القدر بشكل حاد وإنما الدعاء قادر إلى حرف قليل لخط القدر وهذا ما يمكن تسميته بالحظ الطيب. وقليل من الحظ الطيب سيكون له أثر ضخم لجيش محترف متمكن.

ولهذا فإن الدعاء والابتهال إلى الله يكون على الأمل أن يكون القدر والكون والحظ معنا وننتبه له ونعرف كيف نستثمره ويكون عندنا القدرة والمهارة لمعالجة الحظ العاثر وتحويله لمصلحتنا.

النقطة هنا أن الله هو الذي خلق هذا الكون وقد خلقه بقدر وخلق فيه القوانين وبعض هذه القوانين نعرفها وبعضها نستطيع الإلمام بها والبعض الآخر ما زلنا نحاول إدراكه. والكثير من القوانين الكونية ليست حسابية وإنما هي قوانين ديناميكية ذات طبيعة مزاجية تتغير بتغير الظروف.

والانتصار والنجاح والنهضة هي ظواهر مربوطة ومحكومة بهذه القوانين

الكونية. وكل دولة انتصرت ونجحت ونهضت في الماضي فإنما فعلت ذلك لتوافق وانسجام فلسفاتها وسلوكياتها ذلك الوقت مع قوانين الكون. وكل دولة انهزمت وسقطت فإنما حدث لها ذلك لتناقض وتنافر فلسفاتها وسلوكياتها ذلك الوقت مع قوانين الكون.

وإذا استطاع المسلمون أن يحكموا العالم واستطاعوا أن يحكموا عقول وقلوب الناس (مسلمين وغير مسلمين) فإن هذا لن يحدث بسبب مساندة الملائكة ولا لسيوف الملائكة ولا لأعين الملائكة الساهرة على أنظمة الدولة وإنما لأن المسلمين قد استطاعوا فهم قوانين الكون المتعلقة بالانتصار والنجاح والنهضة واستطاعوا أن يخلقوا فلسفات سلوكية وإدارية ودستورية قادرة على الانسجام مع قوانين الكون بكل ما في هذه القوانين من ديناميكية ومزاجية.

وإذا استطاع المسلمون أن يفهموا قوانين الكون المتعلقة بالانتصار والنجاح والنهضة وأن تنسجم فلسفاتهم الإدارية مع هذه القوانين فهم لن يكونوا بحاجة إلى الملائكة ولا إلى سيوف الملائكة ولا إلى مساندة الملائكة ولا إلى سهر الملائكة، بل سيكون انتصارنا ونجاحنا ونهضتنا بسبب ذكائنا وانضباطنا وإرادتنا ومهارتنا في إدراك قوانين هذا الكون، ومهارتنا في التعامل مع هذه القوانين. وهذا بحق هو نجاح ونهضة يحق لنا أن نرضى به أمام جميع الأمم والحضارات السابقة.

وهنا نرجع إلى قصة الحجر الأسود والسؤال فيه: لماذا لم تأت الملائكة لنجدة المسلمين في مكة ولم تأت لنجدة الحجر الأسود؟؟

والجواب البسيط هو: لأنه بعد أن أكمل الله هذا الدين وجعل فيه أسرار النهضة فإن الملائكة لن تقوم بنجدة أمة قد تخاذلت وأهملت. وأما إذا اتحدت الأمة وجمعت كلمتها فهي ليست بحاجة لسيوف الملائكة.

وهنا نأتي إلى تفسير آية النصر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ (٧ - محمد). وفي الواقع هناك آيتين بحاجة إلى التفسير وهما آية النصر وآية الغلب: ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾(١٦٠ – آل عمران)

ومن ظاهر النص نستطيع أن نرى المنطق التالي:

١ - من ينصر الله فإن الله سينصره (آية النصر).

٢- من ينصره الله فهو الغالب (آية الغلب).

على أية حال هناك تعارض بين المنطق السابق والواقع فهناك جيوش نحسن الظن فيهم أنهم نصروا الله ولكنهم لم ينتصروا مثال ذلك معركة الجسر بين المسلمين والفرس ومعركة كربلاء بين الحسين وبني أمية.

وهناك نقطة تعارض أخرى في آية النصر هو أن نصر الله جاء قبل تثبيت الأقدام. والواقع أن تثبيت الأقدام يجب أن يكون قبل الانتصار لأن الثبات هو أحد أسباب الانتصار وليس العكس. أي أنه إذا كان نصر الله يعنى الانتصار لكان الأولى أن يكون المعنى هو: إن تنصروا الله يثبت أقدامكم وينصركم.

وهناك احتمالان لتفسير الآية والاعتراضين، وغلبة ظن المؤلف أن نص الآية عام إلى الدرجة التي يمكن القول إن الاحتمالين صحيحان. ولكن المؤلف يميل أكثر للاحتمال الثاني وذلك لتطابقه أكثر مع الوقائع التاريخية:

الاحتمال الأول:

أن يكون الخطاب موجه نحو الأمة جميعها وليس إلى جماعة في الأمة. بمعنى أنه إذا نصرت الأمة الله فإن الله سينصر الأمة وسيجعلها هي الغالبة. وهذا المعنى ينسجم مع منطقية الأمور كما يتفق مع كثير من الآيات والأحاديث.

وبالنسبة إلى الاعتراض الأول فتفسيره أن الأمة انهزمت في معركة من المعارك ولكنها في نهاية الحرب فإنها هي التي غلبت.

وبالنسبة إلى الاعتراض الثاني فمن الممكن أن يقال إن معنى الآية هو تثبيت الأقدام ثم النصر ولكن تم تقديم النصر على التثبيت لأنه أكثر بلاغة في اللفظ. وهذا التفسير ممكن جدا لكن نظرة المؤلف هو أخذ ظاهر النص كما هو إلا إذا ظهرت قرائن تضع معاني أخرى للنص أو إذا وصلنا إلى طريق مسدود في تفسير الظاهر. بمعنى أن ظاهر النص هنا أن نصر الله جاء قبل تثبيت الأقدام والأولى هو محاولة تفسير الآية بأخذ هذا الظاهر إلا إذا ظهرت آيات وأحاديث أخرى تضع معاني إضافية لهذا النص الظاهر.

الاحتمال الثاني:

وهو أن نصر الله في آية النصر يختلف عن نصر الله في الآيات الأخرى وقرينة الاختلاف هي تقديم نصر الله على تثبيت الأقدام.

دعونا ندخل إلى التفاصيل:

عندما نقول أن «زيداً نصر جريراً»، فهذا لا يعني أبدا أن جريراً قد انتصر. وإنما يعني أن زيداً قد أيد وساند وأعان جريراً. ولهذا السبب فمن الممكن أن ينصر زيد جريراً ولكن ينهزم جرير في النهاية. فالنصر في العبارة السابقة لا تعني الانتصار وإنما تعني المعونة والمساعدة والتأييد.

وهنا يأتي السؤال التالي: ما هو المقصود بنصر الله في آية النصر؟

غلبة ظن المؤلف أن نصر الله للمسلمين سيكون بنفس المستوى من نصر المسلمين لله. فالآية هي: إن تنصروا الله ينصركم.

أي أن الكيفية التي ينصر فيها المسلمين الله ستكون نفسها الكيفية التي سينصر فيها الله أولئك المسلمين.

وهنا يأتي سؤال آخر: كيف ينصر المسلمون الله؟؟؟

والجواب هو: ينصر المسلمون الله بالاستعداد للتضحية بالجسد والنفس لإعلاء ذكره، والإخلاص الحقيقي في عبادته وطاعته.

والسؤال هنا: كيف ينصر الله المسلمين ضمن تفسير آية النصر؟؟

والجواب هو: بإعلاء ذكرهم وتقوية روابط الإخلاص بين بعضهم البعض وتشديد طاعتهم لبعضهم البعض.

وبالتالي يصبح المعنى في آية النصر كما يلي:

إن تضحوا بالجسد والنفس لإعلاء كلمة الله وتخلصوا في عبادته وطاعته فإن الله سيعلي كلمتكم ويخلص قلوبكم وطاعتكم لبعضكم البعض و..... يثبت أقدامكم.

أي أن آية النصر لا تضمن الانتصار ولكنها تضمن علو الذكر وعلو الكلمة وشدة التأثير والثبات في المعركة.

هل المعنى السابق متحقق عبر القرون من التاريخ الإسلامي؟؟؟؟

نعم متحقق وبوضوح تام:

فالحسين بن على بن أبي طالب لم ينتصر في معركة كربلاء ولكن ثباته وصموده وتضحيته أصبحت مثلا وقصة تروى أبد الدهر ويتم فيها شحن النفوس قبل المعركة.

وكذلك عمر المختار. فهو في النهاية لم ينتصر على الطليان. ولكن قصة عمر المختار ليست قصة منعزلة وإنما هي سلسلة من الثبات والصمود والتضحية في

تاريخ المسلمين. ولم تذهب أفعال وتضحيات عمر المختار سدى وإنما أصبحت مثلا منيرا لشحن النفوس. وقد صدق عمر المختار حينما قال إن حياته ستكون أطول من حياة جلاديه.

وهنا نقطة انتباه..... كيف يتم شحن النفوس للصمود والتضحية قبل المواجهة؟؟

يتم شحن النفوس بتذكر القصص والسوابق المنيرة في تاريخنا أو تاريخ غيرنا. وتضحية عمر المختار كانت أحد السوابق التي استطاعت شحن النفوس وبشكل كبير في الثورة الليبية ضد القذافي.

وهناك قصة قريبة العهد وهي معركة الفلوجة بين المسلمين والأمريكيين في العراق، فقد ثبت المجاهدون في الفلوجة وصمدوا. ولكن قوتهم لم تكن كافية لصد الاحتلال الأمريكي إذ يقال إن عدد المجاهدين كان ألف شخص وبأسلحة معظمها خفيفة في حين جهزت أمريكا ١٥ ألف جندي لاحتلال الفلوجة مجهزين بأسلحة متطورة وبدبابات وطائرات، وهناك أخبار متداولة أن أمريكا استخدمت أسلحة دمار محرمة دوليا في سعيها لاحتلال المدينة.

وهذه هي النقطة هنا.... المسلمون في الفلوجة لم ينتصروا ولكن هل علا ذكرهم، وهل ثبتوا أمام عدوهم، وهل بثوا الخوف والتردد في قلوب هؤلاء الأعداء؟؟

وقد قيل أن القيادة الأمريكية قد اتهمت المجاهدين بتعاطي المخدرات وأن هذا السبب (ضمن وجهة نظر القيادة الأمريكية) في قدرة المجاهدين في الفلوجة للصمود والتضحية. ويبدو أن هذا الاتهام كان ضروريا للإجابة على تساؤلات الجنود الأمريكيين عن سر صمود أولئك المجاهدين.

هل ذهبت تضحيات المسلمين في الفلوجة سدى؟؟؟

إذا نظرنا إلى معركة الفلوجة كحادثة منفصلة من التاريخ فمن الممكن القول إن القتال في الفلوجة كان مضيعة للجهد. ولكن إذا نظرنا إلى معركة الفلوجة كمرحلة من مراحل المقاومة في سلسلة متصلة من تاريخ المسلمين عبر الزمن فإن صمود وتضحية المسلمين في الفلوجة لم تذهب سدى وإنما بثت الخوف والتردد في صدور الأعداء كما أنها قصة ستبقى تشحن النفوس المجاهدة في المستقبل إلى أبد الدهر.

وهذه هي النقطة هنا .... إن آية النصر ضمن التفسير السابق منسجمة تماما مع الوقائع والتاريخ.

وهنا نقطة من الضروري الانتباه لها:

كما تم تبيانه سابقا فإن الله خلق هذا الكون وخلق فيه القوانين التي تدبر أمره. ومن انسجم مع قوانين الكون علا ومن تعارض مع قوانين الكون انهزم.

وانتبه هنا أن آية النصر ليست خارجة عن قوانين الكون وإنما هي تعبير دقيق جدا لقوانين الكون. إن أي جماعة (مهما كانت ديانتها أو عقيدتها) تقوم بالإيمان بأفكارهم إلى درجة التضحية بالنفس من أجلها، وكان إخلاصهم للفكرة أكبر بكثير من الاهتمام إلى مشاكلهم واختلافاتهم الشخصية وكانوا على استعداد للإخلاص والطاعة لبعضهم البعض من أجل تحقيق تلك الأفكار فإن أولئك الأشخاص ستثبت أقدامهم وصفوفهم في المعركة وستعلو كلمتهم في الحاضر وسيعلو ذكرهم في التاريخ بغض النظر إذا انتصروا أو لم ينتصروا في المعركة.

وبالإضافة إلى القصص الإسلامية الكثيرة المؤيدة لما سبق فإنه فمن الواجب أن نذكر كذلك الخوارج. ومع أن أفكار الخوارج كانت ضالة إلا أنهم كانوا شديدي الأيمان بهذه الأفكار وشديدي الإخلاص لها إلى الدرجة أن ٣٠٠ شخص

منهم كانوا قادرين على الوقوف في وجه ١٠ آلاف من جنود بني أمية.

وكذلك يجب أن نذكر أتباع الحزب الشيوعي في بداية مراحل صراعه ضد المحيط حوله (في أوائل القرن العشرين). ففي ذلك الوقت كان النظرة إلى الشيوعية وكأنها الحل الوحيد لنشر العدالة بين الناس. وكان إيمان الشيوعيين بأفكارهم تصل إلى درجة التضحية بالجسد والنفس من أجلها. وقد أثبت الشيوعيون الأوائل (وبالأخص الشيوعيين الصينيين) درجة ثبات ضخمة جدا مكنتهم في النهاية من السيطرة على كثير من الأقاليم. ولكن ما أن ظهر حب الاستمتاع والإسراف في هرم القيادة الشيوعية حتى ماتت مشاعر التضحية في نفوس الأتباع وبدأت نواقص الأفكار الشيوعية بالظهور.

النقطة هنا أن آية النصر ليست خارجة عن قوانين الكون ولكنها منسجمة تماما معها.

وهذه نقطة من المناسب التعمق فيها بشكل أكبر:

كما تم تبيانه فإن أعمدة الانتصار هي الذكاء والانضباط والإرادة. والجيش الذي يتفوق على عدوه في هذه الأعمدة فهو المنتصر في الحرب ولا محالة. وأما العدة والتكنولوجيا فهي مؤثرة في سرعة أو بطأ، سهولة أو صعوبة الانتصار. أي أن المتفوق في الأعمدة الثلاثة هو المنتصر في الحرب ولا محالة ولكنه قد يكون بحاجة إلى كثير من التضحية وبعض من الوقت.

الآن.....

الإرادة هي الاستعداد للتضحية بالجسد والنفس من أجل الانتصار.

والانضباط هو الالتزام المتجذر في النفوس للفلسفات والبروتوكولات المتعلقة بالتصرف والسلوك والنظم الإدارية المتفق عليها. وهذا في الواقع هو الطاعة الكاملة للجنود تجاه القيادة ضمن الفلسفات والنظم المتفق عليها بينهم.

وأما الذكاء فهو يتكون من ثلاثة أمور:

الأمر الأول: وهو القدرة على خلق فلسفات وبروتوكولات ذكية ومناسبة تحدد التصرف والسلوك والنظم الإدارية المتعلقة بالجنود والقيادة. والقدرة على تربية القيادة والجماعة عليها.

والأمر الثاني: وهو المهارة في صناعة الخطط الآنية (التكتيك) والخطط طويلة المدى (الاستراتيجية) في مواجهة العدو.

والأمر الثالث: وهو المهارة في تنفيذ هذه الخطط دون التأثر بالمزاجية والعواطف التي قد تظهر أثناء التنفيذ.

الآن.... الجماعة والجيش والدولة التي تقوم بنصر الله تعالى (أي يكون عندها الاستعداد للتضحية بالنفس من أجل إعلاء كلمة الله وتكون عبادتهم وطاعتهم مخلصة لله) فإنهم (ضمن مفهوم آية النصر وضمن النظرة الواقعية لقوانين الكون) قد ضمنوا في جعبتهم اثنين من أعمدة الانتصار وهي الانضباط والإرادة.

أي أن ثلثي النصر قد تم ضمانه بمجرد قيام الجيش بنصر الله. ويبقى الثلث الأخير (الذكاء) منوط بهذا الجيش. ولكن حتى وإن كانت قيادة الجيش الإسلامي غير متفوقة على العدو بالذكاء فإنه ما زال هناك فرصة طيبة للفوز، إذ إنه في كثير من الحالات فإن التفوق في الإرادة والانضباط يقوم بالتعويض عن عدم التفوق في الذكاء. وحتى لو انهزم المسلمين في المعركة بسبب عدم التفوق في الذكاء فإن هذه إنما هي معركة واحدة في سلسلة الحرب. وقد قال الرسول ﷺ: «لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين» (رواه البخاري). وقد قيل أن هذا الحديث لفظه خبر ومعناه طلب. أي أنه المطلوب من المؤمن أن لا يلدغ من الجحر مرتين. وبمعنى آخر فالمطلوب من المؤمن أن يتعلم من أخطائه. وعندها فإن الهزيمة في تلك

المعركة إنما هي مرحلة من سلسلة متصلة من المقاومة والتعلم.

هذه هي النقطة.... آية النصر ليست خارجة عن قوانين الكون وديناميكياته وإنما منسجمة تماما معه. وهذا بالضبط المقصود بالقول إن الله قد وضع الكثير من أسرار القوة في الإسلام.

ولكن هنا نقطة في غاية الأهمية: إن الله قد وضع الكثير من أسرار القوة في الإسلام ولكنه لم يضع كل الأسرار:

لقد قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة-٢). وهذا معناه أن القرآن فيه هدى ولكن ليس كل الهدى محصوراً في القرآن. فالقرآن هو الكتاب المهيمن على جميع الكتب وأحكام الله فوق جميع الأحكام ولكن القرآن ليس فيه كل الهدى. فالطالب الذي يريد ممارسة الطب بحاجة إلى قراءة مراجع علوم الطب ولن يستطيع أن يمارس الطب بقراءة القرآن. كما أن الرجل الذي يريد المهارات الاستراتيجية فعليه قراءة كتب التاريخ ولن يستطيع أن يتعلم فن الاستراتيجية من قراءة القرآن فقط.

وما سبق لا يتعارض مع اكمال الله لهذا الدين. إذ أن الإكمال معناه أن الله قد أنزل في القرآن الأحكام الشرعية كاملة فيما يتعلق بافعال العباد من حيث كونها فرضا أو مستحبا أو مباحا أو مكروها أو حراما.

ولكن أمور الفرض محدودة وأمور الحرام محدودة وبينهما مسافة ضخمة وهي الحلال (وهي المستحب والمباح والمكروه). وفي هذا الحلال توجد أنظمة الإدارة ومبادئ الاستراتيجية وخطط السياسة وغيرها. وهذا كله قد استطاع الإنسان التوصل إليه بسبب الانتباه لنجاحات وفشل الآخرين ومن تجربة الخطأ والصواب ومن النظرة الذكية لديناميكية وقوانين الكون.

إن الهدف من هذه المقالة (وهذا الكتاب) هو التبيان أن المسلمين إن

انتصروا وظهروا وحكموا العالم وسيطروا على عقول وقلوب المسلمين وغير المسلمين فإن هذا لن يحدث بحدة سيوف الملائكة ومساندتهم وإنما بسبب قدرة المسلمين على خلق فلسفات سلوكية وإدارية ذكية ومنسجمة تماما مع قوانين الكون مع ما في هذه القوانين من ديناميكية ومزاجية.

وهنا نرجع إلى الكلمة الموجودة في خاتمة الكتاب:

هل الإسلام هو الحل؟

أم الإسلام والاحتراف هو الحل؟؟؟؟؟؟

المراجع

◄ مراجع عربية:

- أسد الأشقر، الخطوط الكبرى في تاريخ سوريا ونشوء العالم العربي (الجزء الأول – القسم الثاني): الحضارة الكنعانية السورية في حوض المتوسط. (١٩٨٠) بيروت: دار الفكر
- تقي الدين النبهاني، التفكير (١٩٧٣).
- تقي الدين النبهاني، سرعة البديهة (١٩٧٦).
- هاي روتشليس، التفكير الواضح، ترجمة لطيف دوس (١٩٦٨) مصر : نهضة مصر.

◄ مراجع غربية:

- Bandler, Richard. and Grinder, John (1990) Frogs into princes: neuro linguistic programming UK: Eden Grove.
- Bandler, Richard. and Grinder, John (1982) Reframing : neuro-linguistic programming and the transformation of meaning US: Real People.
- De Bono, Edward (1982) Lateral Thinking for Management UK: Penguin.
- De Bono, Edward (1990) Six Thinking Hats UK: Penguin.
- D'Herbemont, Olivier. and Cesar, Bruno (1998) Managing sensitive projects : a lateral approach UK: Macmillan.
- Gall, John. (1986) Systemantics: The Underground Text of Systems Lore US:General Systemantics Press.

- O'Connor, Joseph. and Seymour, John. (1993) Introducing neuro-linguistic programming : psychological skills for understanding and influencing people UK: Aquarian.
- Phil Hanford, "Developing director and executive competencies in strategic thinking" (in) Developing Strategic Thought edited by Bob Garratt, (1995) UK: HarperCollins Publishers.
- Senge, Peter. (1992) The Fifth Discipline: The art and practice of learning organization UK:Century Business.
- Weinberg, Gerald (1992) Quality Software Management: Systems Thinking - V.1 UK: Dorest HOUSE.
- Weinberg, Gerald (1997) Quality Software Management: Anticipating Change - V.4 UK: Dorest HOUSE.
- Wikipedia Encyclopedia http://en.wikipedia.org

◄ مؤلفات سابقة للمؤلف:

- عمر محمد، فلسفات الحكم والدستور (١٩٩٩) لبنان: دار النهضة الإسلامية.
- عمر محمد، بذور الهلاك: التربية التي زرعت فينا منذ ١٣٧٩ سنة (٢٠٠٠) لبنان: دار البيارق.
- عمر محمد، سياسات الأمم ولعبة الأقدار (٢٠١١) مصر: دار الفكر العربي.